

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

27

الإصلاح الديني



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

مراجعة
عائِد أدهم

ترجمة
فؤاد أندراوس

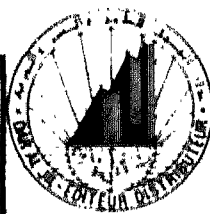
الجزء السادس من المجلد السادس

٢٧



تونس

الهيئة العامة	كندرية
رقم الترخيص	
رقم التسجيل	١٤ / ١٩٥٨



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

ولاء الحيت : ص.ب، ۸۷۳۷ - ت: ۶۶۶۱۵۸ - ۶۶۰۴۱۵ - تلکس: ۶۳۴۳۰
العنوان البرقي: دار مهيلاب - بيروت - لبنان

فهرس

الجزء السادس من المجلد السادس

صفحة

- ١ ... الفصل الخامس والثلاثون - الأدب في عصر رابليه ١٥١٧ - ٦٤ ...
- ١ ... ١ - في صناعة الكتب ...
- ٥ ... ٢ - المدارس ...
- ١٣ ... ٣ - العلماء ...
- ١٣ ... ٤ - النهضة الفرنسية (الميلاد الجديد) ...
- ٢٠ ... ٥ - رابليه ...
- ٢٠ ... (أ) رابليه الإنسان ...
- ٢٦ ... (ب) جارجانتوا ...
- ٣١ ... (ج) بنتا جرويل ...
- ٣٥ ... (د) مضحك الملك ...
- ٤١ ... ٦ - رونسار وجماعة البلياد (النجوم السبعة) ...
- ٤٧ ... ٧ - ويات وصرى ...
- ٤٩ ... ٨ - هانز زاكس ...
- ٥٣ ... ٩ - ربة الشعر الأيبيرية ...
- ٦٢ ... الفصل السادس والثلاثون - الفن في عصر هولبين ١٥١٧ . ٦٤ ...
- ٦٢ ... ١ - الفن ، والإصلاح البروتستنتي ، والنهضة ..
- ٧٧ ... ٢ - الفنون الملحقه ...

- ١٨١ ٦٩ - ١٥٢٠ - بيتر بروجل
- ١٨٩ ٥٨ - ١٥١٧ - الطراز اليهودي
- ٩٥ ١٥٤٣ - ١٤٩٧ - هولبين الابن
- ٩٨ ٥٥ - ١٥١٥ - الفن في أسبانيا والبرتغال
- ١٠٧ ٦٥ - ١٥١٧ - عصر كوبرنيق
- ١١٤ ١٢٥ - الثورة الكوبرنيقية
- ١١٤ ١٣٩ - ماجلان وكشف الأرض
- ١٢٥ ١٤٧ - بعث علم الأحياء
- ١٣٩ ١٥٠ - فيساليوس
- ١٤٧ ١٥٧ - نهضة الجراحة
- ١٥٠ ١٦١ - باراسيلسوس والأطباء
- ١٥٧ ١٧١ - الشكاكون
- ١٦١ ١٧٥ - راموس والفلاسفة

الكتاب الخامس

معارضة الإصلاح البروتستانتي

٦٥ - ١٥١٧

- ١٨٥ ٦٥ - ١٥١٧ - الكنيسة والإصلاح
- ١٨٥ ١٩٢ - المصلحون البروتستانت الإيطاليون
- ١٩٢ ١٩٩ - المصلحون الكاثوليك الإيطاليون
- ١٩٩ - القديسة تريزا والإصلاح الديري

(٥)

صفحة

٢٠٩ ٤ - إجناتيوس لويولا

٢١٩ ٥ - اليسوعيون

٢٢٧ ٦٥ - ١٥١٧ المجمع البابوات والمجمع الفصل التاسع والثلاثون

٢٢٧ ١ - البابوات يكرهون على الدفاع

٢٣٨ ٢ - الرقابة ومحكمة التفتيش

٢٤٣ ٣ - مجمع ترنت

كلمة ختامية :

٢٥٤ النهضة ، والإصلاح البروتستنتي ، والتنوير

الفصل الخامس والثلاثون

الأدب في عصر رابليه

١٥١٧ - ٦٤

١ - في صناعة الكتب

اتخذ حافز الإعلان عن النفس صورة جديدة بعد جوتنبرج . هي رغبة الكتاب الملمحة في طبع مؤلفاتهم . على أن هذا الحافز كان غالى الثمن ، لأن حق التأليف الوحيد المعروف آنئذ كان « الامتياز الخاص » الذى تمنحه السلطات المدنية أو الكنسية لطبع كتاب بعينه ، وهو منحة استثنائية ، بدونها كان فى استطاعة الناشرين المتنافسين ، حتى فى البلد الواحد ، أن يسلطوا على أى أثر حين يشاءون ، وكان الناشر عادة - إذا راج الكتاب الذى ينشره - ينقد المؤلف أتعاباً ، ولكن المطبوعات الوحيدة تقريباً التى غلت من الربح ما يكفى لحصول المؤلف على تعابه هى الروايات الشعبية ، وقصص السحر أو المعجزات ، والنشرات الجدلية التى كان شرط رواجها أن تحشى بالمطاعن . أما الكتب العلمية والثقافية فكانت محظوظة إن غطت نفقاتها . وكان الناشر يشجعون المؤلفين على إهداء هذه الآثار إلى كبار رجال الدولة أو الكنيسة أو إلى أثرياء الأعيان والأشراف بأمل الحصول على منحة لقاء هذه الزاوى .

واجتمعت الطباعة والنشر عادة فى بيت واحد . وكان الرجل أو الأسرة المشتغلان بهما عنصراً حيويّاً فى مدينتهما وجيلهما . أما الشهرة عن طريق الطباعة وحدها فقط فكانت نادرة ، وقد أفلح كلود جرامون الباريسى

في إحرازها بنبذه حرف الطباعة « القوطى » الذى اتخذه الطباعون الألمان نقلا عن حروف المخطوطات ، وبتصميمه حرف طباعة « رومانياً » (حوالى ١٥٤٠) مبنيا على خط الكتابة الكارولنجى الصغير المنتشر فى القرن التاسع كما طوره الإنسانىون الإيطاليون والمطبعة الألدية : واختار الطباعون الفرنسيون والإنجليز هذا الحرف الرومانى ، أما الألمان فقد تمسكوا بالحرف القوطى حتى القرن التاسع عشر . وما زالت أنماط من حروف الطبع تحمل اسم جرامون .

وتزعمت ألمانيا العالم فى ميدان النشر . فقامت بيوت نشر نشيطة فى بازل وستراسبورج وأوجزبورج ونورمبرج وفنبرج وكولونيا وليبزج وفرانكفورت ومجدبورج : وكان الناشرون وتجار الكتب ياتقون مرتين كل عام فى سوق فرانكفورت ، فيشترى الكتب ويبيعونها ويتبادلون الأفكار . وأصدر طباع فرانكفورتى أول جريدة (١٥٤٨) . وكانت ورقة توزع فى السوق وتروى آخر الأحداث . وأصبحت أنتورب مركزاً للنشر حين عمد كرسنوفر بلاتن إلى دكان التجليد الذى يملكه فحواله إلى مطبعة (١٥٥٥) ، وبعد عامين أرسل ١٢٠٠ مجلد إلى سوق فرانكفورت . أما فى فرنسا فكانت ليون مركزاً لصناعة الكتاب ، وأتاحت لها مائتان من مؤسسات الطباعة أن تتحدى باريس بوصفها العاصمة الفكرية للبلاد .

وكان إيتين دوليه الطباع والأديب الإنسانى شعلة ليون المتأججة بالثورة . ولد فى أورليان . وتلقى علومه فى باريس . ثم أولع بشيشرون . « إننى لا أستحسن سوى المسيح وتللى » . ولما سمع بأن الكفر يحظى بحرية غير عادية فى بادوا سارع إليها ، وهناك تبادل الشعر الساخر البذى مع الشكاكين من المتأثرين بفلسفة ابن رشد : وفى تولوز أصبح الروح المحركة لجماعة حرة التفكير تهزأ بالبابويين والموثريين على حسد سواء . فاما نبي

قصدا ليون وفيها اكتسب سمعة بكتابة الأشعار والمقالات ، ولكنه قتل طباعاً أثناء احتدام الجدل بينهما ، ففر إلى باريس حيث حصلت له مارجريت النافارية على عفو من الملك . وهناك صادق مارو وراينيه ، ثم تشاجر معهما . ولما عاد إلى ليون أنشأ مطبعة وتخصص في نشر الكتب المهرطقة ، واستدعته محكمة التفتيش ، وحاكمته وسبنته ، فهرب من السجن ، ولكن قبض عليه أثناء زيارته ابنه خفية ، وفي ٣ أغسطس ١٥٤٦ أحرق حياً .

أما أبرز الناشئين الفرنسيين فكانوا آل إتيينز ، وهم أسرة ثابرت على الطباعة مثابرة آل فوجير على التمويل . بدأ هنري إتيين مطبعته في باريس حوالي ١٥٠٠ ، وواصل العمل من بعده أبناؤه فرانسوا وروبر وشارل ، وإلى هؤلاء الأربعة تدين فرنسا بأفخر طبعاتها اللآذاب اليونانية واللاتينية . وصنف روبر قاموساً لغة اللاتينية (١٥٣٢) أصبح سنداً أساسياً لجميع القواميس اللاتينية الفرنسية التالية له . وغدت اللاتينية لغة ثانية لآل إتيين يتكلمونها بانتظام داخل الأسرة . وامتدح فرانسوا الأول عنهم وأيد مارجريت في الدفاع عنهم ضد السوربون ، وحضر في إحدى المناسبات اجتماعاً الفيف من الأدباء التمتعوا في حانوت روبر . وفي رواية مشهورة أن الملك ظل ينظر في صبر رهيباً بفرغ روبر من تصحيح تجربة طباعة عاجلة . وقدم فرانسوا المال الذي أتاح لروبر تكليف جرامون بتصحيح وصب طقم طباعة جيداً للحروف اليونانية فيه من الجمال ما جعله نموذجاً لمعظم الطباعة اللاتينية التالية . واستنكرت السوربون تلويح الملك بالثقافة الهيلينية ، وقال أحد أساتذتها ينادر « البرلمان » (١٥٣٩) « ان نشر معرفة اليونانية والعبرية سيجعل على تدمير الدين كله » . أما العبرية فكان رأى أحد الرهبان فيها « أنه من المعلوم جيداً أن كل من تعلموا العبرية أصبحوا من فورهم يهوداً » (١) ولما لاحقت السوربون روبر وأرهقته طوال ثلاثين عاماً نقل مطبعته إلى

جنييف (١٥٥٢) وهناك أُمَاط اللثام سنة وفاته (١٥٥٩) عن ميوله البروتستنتية بنشره طبعة من « مبادئ كالفن » . واحتفظ ابنه هنرى لإثنين، الثانى بسمعة الأسرة إذ أصدر فى باريس طبعات جميلة من الآداب القديمة ، وصنف معجماً للغة اليونانية (١٥٧٢) فى خمسة مجلدات لا تزال إلى يومنا أكمل المعاجم اليونانية قاطبة . غير أنه أثار حقد السوربون عاياه بنشره كتاباً سماه « دفاع عن هيرودوت » (١٥٦٦) أشار فيه إلى انتظائر من المعجزات المسيحية والعجائب الغربية التى رواها المؤرخ اليونانى ولجأ هو الآخر إلى جنييف ، ولكنه وجد نظام الحكم الكالفنى لا يتقل تعصباً عن السوربون .

وكثير من مطبوعات هذا العصر نماذج تختلج فى الطبع والحفر والتجليد ، فقد حل محل أغلفة نصف المعدنية ، الثقيلة ، الشائعة فى القرن الخامس عشر ، أغلفة أخف وزناً وأرخص ثمناً مصنوعة من الخلد أو الورق المتين أو الرق . ومن أمثلة هذا التقدم أن جان جروليب دسير فير . وزير مالية فرنسا فى ١٥٣٤ ، كلف الخلدين بتجليد كتبه البالغ عددها ٣,٠٠٠ مجلد الماعز المشرق تجليداً بلغ من الأناقة حداً يضعها فى صنف أبجل الكتب إطلاقاً . وغدت المكتبات الخاصة الآن لا تحصر لها ، وفتحت المكتبات العامة فى كثير من المدن - مثل كركاو (١٥١٧) . وهامبورج (١٥٢٩) . ونورمبرج (١٥٣٨) ، وفى عهد فرانسوا الأول نقلت المكتبة الملكية القديمة التى جمعها شارل الثامن من اللوفر إلى فونتينبلو . وأثرتها مجموعات جديدة من الكتب وأغلفة فاخرة . وأصبحت هذه « المكتبة الملكية » بعد الثورة الفرنسية « المكتبة الأهلية » . وقد دمر كثير من المكتبات الديرية فى حركة الإصلاح البروتستنتى ، ولكن الكثير منها انتقل إلى أيدي الأفراد ووجد كل ثمين فيها طريقه إلى دور الكتب العامة . لقد ضاع فى التاريخ الكثير . ولكن احتفظ بالكثير جداً مما له قيمته ، وليس فى استطاعة فرد ولو أوتى مائة عمر أن يستوعبه .

٢ - المدارس

كان من الطبيعي أن تعتمد الثورة الفرنسية حيناً إلى تمزيق نظام غربي أوروبا التعليمي لأنه جلّته كان خدمة تابعة للكنيسة ، ولم يكن في الإمكان تحدى نفوذ رجال الدين التقليديين بنجاح ما لم تحطم هيمنتهم على التعليم . وقد أنحى لوثر باللوم على مدارس ذلك العهد الثانوية التي تركز على تعليم اللغات القديمة ، وقال إنها تعلم الطالب « من اللاتينية الرديئة ما يكفي لإعداده قسيساً وتمكينه من تلاوة القداش . . . ومع ذلك يظل طوال حياته جهولاً مسكيناً لا يصلح لشيء »^(٢) . أما الجامعات فبدت له مغارات للقتلة ، وهياكل للإله ملخ ، ومجامع للفساد « لم يظهر على الأرض . . . ولن يظهر . . . ما هو شر منها . » وخلص من هذا إلى أنها « لا تصلح إلا لهدمها وتسويتها بالتراب »^(٣) . واتفق ملانكتون مع لوثر في الرأي ، لأن الجامعات تحول طلابها إلى الوثنية^(٤) . وتقبل الآباء الذين يرضون بنفقات تعليم أبنائهم ، رأى كارلشتات ، و « أنبياء » زفيكالو ، والقائلين بتجديد المعمودية ، في غير تردد - وهو أن التعليم زخرف لا غناء فيه ، وخطر على الأخلاق ، ومعوق للخلاص . وكانت حجة بعض الآباء أنه ما دام التعليم الثانوي موجهاً إلى حد كبير لإعداد الطلاب ليكونوا قساوسة ، وما دامت هذه المهنة قد بارت سوقها ، إذن فليس من المنطق أن يبعثوا بأبنائهم إلى الجامعات .

كان دعاة الإصلاح البروتستانتي يتوقعون أن يفرد جانب من دخل الأملاك الكنسية التي استولت عليها الدولة لإنشاء مدارس جديدة تحل محل تلك الآخذة في الزوال عقب إغلاق الأديار . ولكن « الأمراء والأشراف » على حد قول لوثر « شغلوا بشئون عالية وهامة - شئون كهف الحُمور والمطبخ والمخدع - فلم يعد لديهم متسع من الوقت » لمزيد المعونة إلى التعليم . وكتب يقول في ١٥٢٤ « إن المدارس في الولايات الألمانية ترك الآن في كل مكان لتصبح خراباً يباباً »^(٥) . وما وافى عام ١٥٣٠

حتى كان هو وملائكتون يرثيان ما أصاب الجامعات الألمانية من تدهور
وانحلال (٦) . ففي إرفورت هبط عدد الملتحقين بالجامعة من ٣١١
في عام ١٥٢٠ إلى ١٢٠ في عام ١٥٢١ ، وإلى ٣٤ في عام ١٥٢٤ ،
وفي روستوك هبط العدد من ٣٠٠ في عام ١٥١٧ إلى ١٥ في عام ١٥٢٥ ،
وفي هيدلبرج كان في ذلك العام من الأساتذة عدد أكثر ممن كان فيها من
الطلاب . وفي ١٥٢٦ لم يلتحق بجامعة بال سوى خمسة طلاب (٧) .

وجاهد لوثر وملائكتون لإصلاح ما فسد : فنأشد لوثر في « رسالته إلى
العبد » (١٥٢٤) السلطات الزمنية أن تفتش المدارس . وفي عام ١٥٣٠
تخطى زمانه بكثير فاقترح أن يقرر التعام الأولى إجبارياً وأن يوفر للأطفال
على حساب الدولة (٨) . أما الجامعات التي أعيد تأسيسها تدريجياً تحت الرعاية
البروتستنتية فقد أوصى ببرنامج دراسة لها يتركز حول الكتاب المقدس .
ولكنه يحوى أيضاً تعليم اللاتينية واليونانية والعبرية والألمانية والقانون والطب
والتاريخ و« الشعراء والخطباء . . . الوثنيين منهم أو المسيحيين » (٩) . أما
ملائكتون فقد جعل من إحياء التعليم مهمته الأولى . ففتح الكثير من المدارس
تحت قيادته وبتشجيعه . وما وافقت نهاية القرن السادس عشر حتى أصبح
في ألمانيا ٣٠٠ مدرسة . ثم وضع « خطة مدرسية » (١٥٢٧) لتنظيم المدارس
والجامعات . وألف كتاباً مدرسية في النحو اللاتيني واليوناني . وفي الجان
والمنطق وعلم النفس والأخلاق واللاهوت . ودرب آلاف الطلاب على
الاضطلاع بالتعليم في المعاهد الجديدة . وقد لقبه وطنه بـ « معلم ألمانيا »
بجميله . وانتقلت جامعات شمال ألمانيا الواحدة تلو الأخرى إلى أيدي البروتستنتية :
فنتبرج (١٥٢٢) ، وماربورج (١٥٢٧) . وتوبنجن (١٥٣٥) . ولينبرج
(١٥٣٩) وكوننجزبرج (١٥٤٤) . وبيننا (١٥٥٨) . وطارد الأساقفة
أو الطلاب المعارضون « للعقيدة الإنجيلية الصادقة الصحيحة » كما قال أولريش
دوق فورتمبرج . ومنع الكالفينيون من دخول الكليات اللوثرية . وأبهرت
من دخول الجامعات التي لم تزل في أيدي الكاثوليك . ويمكن القول بعمه

عامه إنه بعد صلح أوجزبورج (١٥٥٥) حرم على الطلبة الألمان أن يختلفوا إلى المدارس التابعة لمذهب آخر غير الذى يدين به أمير المقاطعة (١٠) . هذا وقد أتيح للتعليم الجديد أن يحرز تقدماً هائلاً على يد يوهان شتروم حين أنشأ مدرسة ثانوية « جمنازيوم » فى ستراسبورج (١٥٣٨) ، ونشر فى ذلك العام نبذة كان لها نفوذ كبير عنوانها « فى فتح مدارس الآداب بالطريقة الصحيحة » . وكان ككثيرين غيره من زعماء الفكر فى وسط أوروبا قد تلقى علومه على يد « إخوان الحياة المشتركة » . ثم قصد لوفان وباريس حيث التقى برابليه . ولعل سالة جارجانتوا الشهيرة فى التعليم صدى لتأثير الرجلين المتبادل . ومع أن شتروم يرى فى « التقوى المقترنة بالحكمة » الهدف الأول للتعليم . فانه أكد تأكيداً متزايداً أهمية دراسة اليونانية واللاتينية وآدابهما . وقد انتقلت هذه العناية والدقة فى تعليم الآداب القديمة إلى مدارس ألمانيا الثانوية التالية . فربت جيش العلماء والأدباء الذى غزا العالم القديم وقتله بعتاً وتنقيماً فى القرن التاسع عشر .

أما مدارس إنجلترا فقد قاست أكثر حتى من مدارس ألمانيا نتيجة للثورة الدينية . وذابت مدارس الكاتدرائيات والأديار والنقابات والأوقاف فى طيب الهجوم على رذائل الكنيسة وتراثها . وكان أكثر طلاب الجامعات يقدون إليها من هذه المدارس . فلما توفى هذا السيل لم تخرج أكسفورد سوى ١٧٣ من حملة بكاوريوس الآداب . وكمبردج سوى ١٩١ فى عام ١٥٤٨ ، وفى عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٠ لم تخرج أكسفورد منهم أحداً (١١) . وأحس هنرى الثامن بالمشكلة ، ولكن حاجته إلى المال للحرب أو لزيجاته العديدة حدت من قدرته ، فاكتفى بإنشاء كلية ترينى بكمبردج (١٥٤٦) وبتمويل كراس بمنح ملكية فى اللاهوت ، والعبرية واليونانية ، والطب ، والقانون . وفى هذه الفترة قامت الهيئات الخاصة الخيرية بإنشاء كلية كوربس كرسى ، وكلية كرايست تشيرش ، وكلية سانت جون ، وكلية ترينى

بأكسفورد ، وكلية ماجدلين بكبر دج . وقامت اللجنة الملكية التي أوفدها كرومويل إلى أكسفورد وكبر دج (١٥٣٥) لتستولى للملك على براءاتهما وأوقافهما باخضاع الكلية والمنهج للإشراف . والحكوى . وهكذا قضى بضربة عاجلة على سلطان الفلسفة الكلامية في إنجلترا ، وذرت في الربح — حقيقة لا مجازاً — أعمال دنزسكوتس (١٢) ، ونحى القانون الكنسي جانباً ، وشجعت الدراسات اليونانية واللاتينية . وصيغ المنهج بالمصبغة العلمانية إلى حد كبير — ولكن الدحاطيقية لم تمت . فقد اشترط قانون صدر في ١٥٥٣ على جميع طلاب الدرجات الجامعية أن يتعهدوا كتابة بقبول « مواد الدين الانجليكانية » .

أما في فرنسا وفلاندر الكاثوليكيين فقد تدهورت الجامعات لامن حيث أوقافها وعدد طلابها ، بل من حيث قوة الحياة الفكرية وحريتها . وفتحت جامعات جديدة في رامس ودواي وليل وبيزانسون . ونافست جامعة لوفان جامعة باريس في عدد الطلاب (٥٠٠٠) ، وفي الدفاع عن لون من الكاثوليكية التقليدية بدا متطرفاً حتى في نظر البابوات . وكان طلاب جامعة باريس كثيرين (٦٠٠٠) ، ولكنها لم تعد تجتذب أى عدد مذكور من الطلاب الأجانب أو تتسامح كما كانت تفعل إبان عنفوانها في القرن الثالث عشر مع خيرة الأفكار الجديدة المنشطة . أما كلياتها فسيطرت عليها كلية اللاهوت — السوربون — حتى كاد يصبح هذا الاسم مرادفاً لاسم الجامعة . ورأى مونتيني في منهج اللاهوت والآداب القديمة المنقاة نمطاً سطحيّاً من الاستدكار والامثال . أما رابليه فلم يتعب من ذم الشكليات المدرسية والتدريبات المنطقية السائدة في السوربون ، وضياح سنى الدراسة في مناظرات أبعدت في حرص عن الاهتمام الفعلى بالحياة الإنسانية . وأما كليان مارو فقد صرح بقوله « إننى على استعداد للتضحية عن طيب خاطر بنصيبى في اللجنة لو أن هؤلاء الوحوش الكبار (أى

الأساتذة) لم يدمروا شباني « (١٢) . ووجهت قوة الجامعة وسلطانها كله ، لا لمقاومة البروتستنت الفرنسيين فحسب ، بل للإنسانيين الفرنسيين أيضاً . وبذل فرانسوا الأول ما وسعه لحماية الثقافة الفرنسية من مثبطات المحافظين المنبعثة من السوربون . وكان قد شرب من خمر إيطاليا والتقى ببعض رجال الكنيسة ممن تعمقوا أدب اليونان والرومان . وبخض من جيوم بوديه ، والكردينال جان دبلية ، ومارجريت المثابرة في غير كلل - قدم المال لإنشاء مدرسة مستقلة عن الجامعة (١٥٢٩) ، متفرغة بوجه خاص للدراسات الإنسانية . وبدى بتعيين أربعة من « الأساتذة الملكيين » اثنان منهم لليونانية واثنان للعبرية ، وسرعان ما أضيفت كراس للالينية والرياضيات والطب والفلسفة . وكان التعليم فيها مجانياً (١٤) . وأصبحت هذه « الكلية الملكية » التي عدل اسمها فيما بعد إلى « كاية فرنسا » باعثة النشاط في الدراسات الإنسانية الفرنسية ، وملاذ العقل الفرنسي الذي يجمع بين الحرية والنظام .

أما أسبانيا فقد قيص لها جامعات ممتازة برغم تخمس الدولة للكاثوليكية التقليدية ، فكان عددها أربع عشرة عام ١٥٥٣ ، شملت ما أسس منها حديثاً في طليطلة وسنتياجو وغرناطة . أما جامعة سلامنكا التي ضمت سبعين أستاذاً و ٦٧٧٨ طالباً في عام ١٥٨٤ فتثبت للمقارنة بأية جامعة أخرى من جامعات ذلك العهد . وأما جامعات إيطاليا فقد واصلت ازدهارها ، فكان بجامعة بولونيا في ١٥٤٣ سبعة وخمسون أستاذاً بكلية الآداب ، وسبعة وثلاثون بكلية الحقوق ، وخمسة عشر بكلية الطب ه وكانت بادوا مقصد الطلاب المغامرين الوافدين من شمال الألب ه وقدمت بولنده الدليل على عصرها الذهبي بقبولها ١٥٣٣٨ طائناً دفعة واحدة في جامعة كركاو (١٥) ، وفي بوزنان خصص « لوبرانسكيانوم » الذي أنشأه الأسقف يوحنا لوبرانسكي (١٥١٩) للأبحاث والدراسات الإنسانية ه

ويمكن القول على الحملة أن الجامعات في البلاد الكاثوليكية أوفر حظاً منها في البلاد البروتستنتية في هذا القرن العنيف .

على أن المعلم لم يلق ما هو خليق به من تقدير . وكان مغموط الأجر إلى حد أليم . كان الأستاذ في « الكلية الملكية » بفرنسا يتقاضى ٢٠٠ كراون في العام (٥٠٠٠ دولار ؟) . ولكن هذا كان استثناء نادراً . وكان الأساتذة في جامعة سلامنكا يختارهم الطلاب بعد فترة اختبار يعرض فيها الأساتذة المتنافسون عينات من محاضراتهم . وكان أكثر التعليم بالمحاضرات . وأحياناً تضمنى عليها الحياة بالمناظرات . وكان أخذ المذكرات يخل عند كثير من الطلبة محل الكتب الدراسية . أما القواميس فنادرة . وأما المعامل فمجهولة عملياً إلا للمشتغلين بالكيمياء القديمة . وكان الطلاب يسكنون حجرات رخيصة سيئة التدفئة ويقعون فريسة للمرض بسبب قذارة الطعام ونقصه . وكان كثير منهم يشتغلون بتغطية نفقات الكاية . وتبدأ الفصول في السادسة صباحاً وتنتهى في الخامسة بعد الظهر . وكان النظام صارماً ، يجوز بمقتضاه جلد الطلبة حتى من قارب منهم التخرج . وكان الطلاب ياتمسون الدفء في مشاجرات الشوارع وفي كؤوس النبيذ وأحضان البغايا إذا تبسر لهم المال . وهكذا كانوا بطريقة أو بأخرى يخصاون قسماً محدوداً من التعليم .

أما فتيات الطبقات الدنيا فظللن أميات ، وكان كثيرات من بنات الطبقات الوسطى يظفرن بتعليم مدرسى متواضع في أديار الراهبات . أما الفتيات الغنيات فلهن مربون خصوصيون . وقد فاخرت هولندية بعدة سيدات يمكن مغازلتهم باللاتينية ، وربما يستطعن تصريف الأفعال خيراً من تصريف الأسماء والصفات . واشتهرت في ألمانيا زوجة يوتنجر وشقيقات بركهيمر وبناته بثقافتهن . وفي فرنسا كانت النساء المحيطات بالملك فرانسوا يجمان عبارات الغزل محسنات يقتبسها من الآداب القديمة .

وفى إنجلترا كانت بعض النساء المثقفات - كبنات مور ، وجين جراى ، و « مارى الدموية » ، وإليزابيث - مضرب المثل فى سعة المعرفة والاطلاع . وينتمى إلى هذا العصر معلمان شهيران . أما أقلهما شأنًا فهو السير توماس إليوت ، الذى وضع فى كتابه « الحاكم » (١٥١٣) خطة تعليم تيسر إعداد الطلاب العريق ، النسب للاشتغال بشئون الحكم . وقد بدأ كتابه بنقد الفجاجة الثقافية التى يتردى فيها نبلاء الإنجليز ، وقارنها بما روى عن ثقافة رجال الأعمال عند اليونان والرومان ، ونقل ما روى عن الفيلسوف الكلبى ديوجين « حين رأى رجلاً جاهلاً جالساً على حجر فقال : انظر كيف يجلس حجر على حجر » (١٦) .

وفى رأى إليوت أن الصبى متى بلغ السابعة يجب أن يعهد به إلى مرب يختار بعناية ، فيعلمه مبادئ الموسيقى والتصوير والنحت ، حتى إذا ناهز الرابعة عشرة تعلم وصف الكون والمنطق والتاريخ ، ودرب على المصارعة والصيد والرمى بالقوس الطويل والسباحة والتنس . دون كرة القدم لأنها لعبة سوقية « ليس فيها غير الثورة الوحشية والعنف الظاهر » . ويجب أن يعلم الصبى الآداب القديمة فى كل مرحلة من مراحل تعليمه - فيبدأ بالشعراء . ثم المؤرخين ، ثم القواد ، ثم الفلاسفة ، ويضيف إليوت إلى هذا الكتاب المقدس ، وتكاد الإضافة تبدو فكرة لاحقة ، وهو بهذا يعكس الخطة التعليمية التى وضعها لوثر . ويفضل إليوت الآداب القديمة على الكتاب المقدس برغم تأكيداته . فهو يقول « رباه ، يا لها من حلاوة لا نظير لها فى كلمات كتب أفلاطون وشيشرون ، وفى مادة هذه الكتب التى جمعت بين الرزانة والعذوبة ، واقتربت فيها الحكمة الرائعة بالبلاغة الإلهية ، والفضيلة المطلقة باللذة التى لا تصدق » ، وهكذا « فإن هذه الكتب تكاد تكفى فى ذاتها لإعداد الحاكم الكامل الممتاز » (١٧) .

أما ثانى المعلمين وهو جوان فيف ، أكثر الأدباء الإنسانيين إنسانية ،

فقد اختط هدفاً أوسع وترسم طريقاً أرحب . ولد في بلنسية في ١٤٩٢ .
ورحل عن أسبانيا وهو في السابعة عشرة ، ولم يرها بعد ذلك قط . وقد
درس في باريس فترة أتاحت له حب الفلسفة واحتقار المناسفة
الكلامية . وحين بلغ السادسة والعشرين ألف أول تاريخ حديث للفلسفة .
وفي السنة ذاتها تحدى الجامعات بهجوم على الطرائق السكولاستية في
تعليم الفلسفة . فقد شعر بأن خطة النهوض بالفكر بطريق المناظرة
لا تشجع إلا الشجار العقيم حول مسائل لا وزن لها . ورحب إرزمس
بالكتاب وأوصى مور بأن يقرأه ، وقال في أدب إنه يخشى أن « يحجب . .
فيف . . إرزمس » (١٨) . وعين فيف أستاذاً للدراسات الإنسانية في لوفان
(١٥١٩) ربما بنفوذ إرزمس . ثم نشر بتشجيع إرزمس طبعة من كتاب
أوغسطين « مدينة الله » عليها شروح ضافية وأهداها إلى هنري الثامن .
وتلقى منه رداً رأى فيه من الود ما حمله على الانتقال إلى إنجلترا (١٥٢٣) .
ورحب به مور والملكة كاترين التي تنتمي إلى وطنه (أسبانيا) . وعينه هنري
واحداً من أساتذة الأميرة ماري الخصوصيين . وربما ألف كتابه « في
تربية الأطفال » لإرشادها (١٥٢٣) . وسارت الأمور على ما يرام إلى أن
أعرب عن استنكاره لطلب هنري فسخ زواجه . فأوقف هذا راتبه واعتقله
في بيته ستة أسابيع ٥ ولما أطلق سراحه عاد إلى بروج (١٥٢٨) وهناك
أنفق سني حياته الباقية ٥

وإذ ظل مثالياً وهو في السابعة والثلاثين فقد وجه إلى شارل الخامس نداء
إرزمياً يدعو فيه إلى إنشاء محكمة دولية للتحكيم بديلاً عن الحرب (١٥٢٩)
وبعد عامين أصدر أكبر كتبه ، وهو أكثر رسائل النهضة الأوروبية التعليمية
تقدماً ، وفيه دعا إلى تعليم موجه إلى « ضروريات الحياة ، وإلى شيء من
النهوض سواء بالجد أو العقل ، وإلى تربية الاحترام وزيادته » (١٩) . وقال

إن على التلميذ أن يدخل المدرسة « كأنه يدخل هيكلًا مقدسًا » ولكن دراسته فيها يجب أن تعدّه ليكون مواطناً كريماً نافعاً ، وأن تغطى هذه الدراسات الحياة بأسرها مع مراعاة اتصالها بعضها ببعض كما تؤدي وظائفها في الحياة . ويجب أن تدرس الطبيعة كما تدرس الكتب ، فالأشياء تعلم الطالب أكثر مما تعلمه النظريات ، فليلاحظ إذن العروق والأعصاب والعظام وسائر أعضاء الجسم في تشريحها وفي أداء وظائفها . وليسأل المزارعين والصيادين والرعاة والبستانيين ، وليفد من خبراتهم ، فإن هذه المعلومات التي يلتقطها ستكون أنفع له من « الثروة السكولاستية التي أفسدت كل فروع المعرفة باسم المنطق » (٢٠) . وينبغي أن تظل الدراسات القديمة المنقاة خصيصاً للشباب جزءاً حيوياً من المنهج ، ولكن يجب أن يدرس أيضاً التاريخ الحديث والجغرافيا . كذلك يجب أن تدرس اللغات القومية كما تدرس اللاتينية ، وكل هذا بالطريقة المباشرة المستعملة في الحياة اليومية .

لقد كان فيف متقدماً جداً على جيله ، فلم يفتن إليه ذلك الحيل ، وتركه يموت فقيراً ، وقد ظل كاثوليكياً إلى النهاية .

٣ ... العلماء

كانت المهمة المميزة للجامعات والأكاديميات والعلماء الإنسانيين في عصر النهضة هي جمع تراث العالم القديم ، عالم اليونان والرومان ، وترجمته ونقله إلى جيل الشباب في أوروبا الحديثة . وقد أنجزت هذه المهمة على وجه رائع ، وكان الكشف عن وحي العالم القديم كاملاً .

بقي رجلان يجب أن يخلد ذكرهما كاهنين لهذا الوحي ، وأول الرجلين هو جيوم بوديه ، الذي بلغ الثانية والستين وهو يعلل النفس بأن يجعل باريس وارثة للدراسات الإنسانية الإيطالية . ثم رأى هذا الأمل يتحقق

حين أنشأ فرانسوا الكلية الملكية . وقد بدأ بوجيه دراساته في كبره بدرس القانون ، فظل زهاء عشر سنوات يدفن نفسه في « قوازين جستنيان » . ورغبة في تفهم هذه النصوص تفهماً أفضل ، وهى لاتينية اللغة بيزنطية المعاني ، راح يدرس اليونانية على يوحنا لاسكارس ، ويدرسها في إخلاص وتفان حملاً مدرسه عند رحيله أن يوصى له بمكتبته الثينة العامرة بالكتب اليونانية . فلما نشر وهو في الحادية والأربعين كتابه (١٥٠٨) Annotations in xxlv libros Pandectarum توفرت لخدمة الأولى في فقه النهضة . دراسة لخلاصة جستنيان تستهدف هذه الخلاصة ذاتها وبيئتها ، بدلا من أن تنحيا هوامش الشراح لعباراتها . وبعد ست سنوات أصدر أثراً جليلاً آخر من آثار البحث العميق (De assue et Partibus) وهو في ظاهره نقاش للعمليات والمقاييس القديمة . ولكنه في حقيقته درس شامل للأدب القديم فيما يتصل بالحياة الاقتصادية ، وأوقع من هذا « تعليقاته على اللغة اليونانية » (١٥٢٩) . وهو كتاب مفكك الترتيب ، ولكنه غني بالمعلومات والإرشادات المعجسية ، بحيث وضع بوجيه على رأس جميع الهيلنستيين الأوربيين . وأرسل له رابليه خطاباً أعرب فيه عن احترامه وتقديره . أما إيرزمس فكانت تحبته له أنه غار منه . انما كان إيرزمس رجل دنيا ولم يكن الدرس إلا جزءاً من الحياة عنده . أما بوجيه فكان الدرس والحياة عنده شيئاً واحداً . كتب يقول : إن فقه اللغة هو الذى ظل طويلاً رفيقاً وشريكاً لى ، بل كان لى الحليمة التى ارتبطت بى بكل موافيق الحب . . . ولكننى اضطررت إلى إرخاء ربط هذا الحب الذى ينهشنى . . . حتى كاد يدمر صحى (٢١) . وكان يحزنه أن يضطر إلى اقتناص بعض الوقت من دراساته ليأكل وينام . وفى لحظات طوه تزوج وأنجب أحد عشر طفلاً . وفى الصورة التى رسمها له جان كاويه (الشخصية متحف الفن المتروبوليتانى فى نيويورك) تبدو عايه مسحة من تشاوم .

ولكن فرانسوا الأول لا بد قد وجد فيه شيئاً من الحيوية لأنه عينه أميناً لمكتبة فونتنبلو ، وكان يجب أن يكون هذا العالم العجوز قريباً منه حتى في رحلاته : وفي إحدى هذه الرحلات مرض بوديه بالحمى ، وقد ترك تعليمات دقيقة بالألا يصحب جنازته أى إحتفال . وفارق هذه الدنيا في هدوء (١٥٤٠) . أما الأثر الذى خلده فهو كلية فرنسا :

ولم تكن باربس إبان حياته قد استوعبت بعد الحياة الثقافية لفرنسا : كان للدراسات الإنسانية اثنا عشر وطناً فرنسياً : منها بوردو ومونبلييه ، وأهم من هذه كلها ليون ، التى امتزج فيها الحب والدراسات الإنسانية ، ونساء الطبقة الراقية والأدب ، امتزاجاً ساراً مبهجاً . وفى آجن ، التى ما كان أحد ليجت فيها عن إمبراطور ، هيمى يوليوس قيصر سكاليجر على مسرح فقه اللغة بعد موت بوديه هيمىة الإمبراطور المستبد . ولعل بادوا مسقط رأسه (١٤٨٤) . وقد وفد على آجن وهو فى الحادية والأربعين ، وفيها عاش حتى مات (١٥٥٨) . وكان كل العلماء يخشون بأسه لشدة تمكنه من لغة القديح اللاتينية ، وقد اكتسب شهرة حين هاجم إرزمس لغضه من شأن « الشيشرونين » أى المتمسكين بلاتينية شيشرون دون غيرها . وانتقد رابليه ، ثم انتقد دوليه لانتقاده رابليه . وفى مجلد من كتابه Exercitationes قححص كتاب جيروم كاردان De subtilitate وأخذ على عاتقه أن يثبت أن كل ما أكده الكتاب زائف ، وكل ما أنكره صحيح . وكان كتابه فى النحو اللاتينى أول أجرومية لاتينية مبنية على مبادئ علمية . أما تعليقاته على أبقراط وأرسطو فمتنازة ، سواء من حيث أسلوبها أو من حيث إسهامها فى العلم . وكان ليوليوس خمسة عشر طفلاً أصبح أحدهم أعظم علماء الخيل التالى . وقد أسهم كتاب يوليوس Poetice الذى نشر بعد موته بأربع سنوات . وما قام به ولده من دراسات ، وما أثر به الإيطاليون الذين

تبعوا كاترين مديتشى إلى فرنسا — كل هذا أسهم فى تحويل تيار الدراسات الإنسانية الفرنسية وردها من الدراسات اليونانية إلى اللاتينية .

وقد أهدت حركة إحياء الدراسات اليونانية للثقافة عطاء ممتازاً هو ترجمة أميو لكتاب بلوتارخ « التراجم » . كان أميو أحد الرجال الكثيرين الذين حظوا برعاية مارجريت . وقد عين بنفوذها أستاذاً لكبرى اليونانية واللاتينية فى بورج . وكوفئ على ترجماتة لدافنيس وخلوا وغيرها من قصص الحب اليونانية ، على طريقة ذلك العصر العجيب السخية ، بمنحه رئاسة دير غنى . وإذ كفل له الرزق على هذا النحو تنقل كثيراً بين أرجاء إيطاليا لإرضاء لميوله الأثرية واللغوية . ولما نشر كتابه « التراجم » (١٥٥٩) قدم له بدعوة بليغة لدراسة التاريخ بوصفه « خزنة البشرية » ، والمتحف الذى يحتفظ بمئات الأمثلة للفضيلة والذيلة ، ولحكم الصالح والطالح ، ليسترشدها بنو البشر ؛ وكان كتابليون يرى كتاب بلوتارخ فى التاريخ معلماً للفلسفة خيراً من الفلسفة ذاتها . ومع هذا فقد اضطلع بعد هذا بترجمة كتاب بلوتارخ *Moralia* أيضاً ، وقد رقى إلى أسقفية أوجزير ، ومات هناك معمرأ فى الثمانين (١٥٩٣) . أما ترجمته لكتاب بلوتارخ « التراجم » فلم تكن صحيحة دقيقة فى كل جزء منها ، ولكنها كانت أثراً أدبياً فى ذاته ، تتميز بأسلوب طبيعى فردى لا يقل عن أسلوب الأصل . أما تأثيره فكان هائلاً . وقد استمتع به مونتين أياًما استمتع ، وانصرف عن فرنسا القديس بارتلميو إلى هذا الأثر القديم الذى أضفت عليه الترجمة روعة وسموا . واختار شكسبير ثلاث تمثيلات من ترجمة نورث القوية المنقولة عن ترجمة أميو ، وأصبح المثال الذى رسمه بلوتارخ للبطل نموذجاً حاكاه عشرات الثوار وكتاب المسرحيات . وأعطى هذا الكتاب *Vies des hommes illustres* للأمة مجعاً من الأبطال المشهورين خليقاً بأن يحرك ما تنطوى عليه الروح الفرنسية من الفضائل الأكثر رجولة وأشد قوة .

٤ — النهضة الفرنسية (الميلاد الجديد)

من الأشياء المألوفة والمغتفرة أن تطلق عبارة « الميلاد الجديد » ،
وهي عبارة حافلة بالمعاني الإضافية ، على الفترة الممتدة بين ارتقاء فرانسوا
الأول العرش (١٥١٥) واغتيال هنرى الرابع (١٦١٠) . كان هذا
الازدهار البهيمى للشعر والنثر والعادات الاجتماعية والفنون والملابس
الفرنسية فى جوهره نضجاً أكثر منه ميلاداً جديداً . فقد استطاع الاقتصاد
الفرنسى والروح الفرنسية أن يفيقا من حرب المائة عام بفضل ما أتيج
للناس من مرونة صابرة وما استجد من نمو التربة التى ألقيت فيها البذار
حديثاً . وكان لويس الحادى عشر قد منح فرنسا حكومة منظمة ممرضة
قوية ، ومنحها لويس الثانى عشر عقداً مثمراً من السلام . وظلت
إبداعية العصر القوطى الحرة ، الطليقة ، الغريبة الأطوار ، حية
متوازنة غالبية على رابليه ، الذى بلغ إعجابه بالآداب القديمة مبلغاً جعله
يقتبس منها كلها تقريباً . ولكن اليقظة الكبرى كانت كذلك ميلاداً
جديداً . فقد تأثر الأدب والفن الفرنسيان تأثراً لا ريب فيه بما أتيج
لها من علم أوثق بالثقافة القديمة والأشكال الكلاسيكية . واستمرت هذه
الأشكال وهذا المزاج الكلاسيكى — الذى يغلب الفكر المتظم على العاطفة
المشوبة — فى الدراما والشعر والتصوير والنحت والمعمار الفرنسى زهاء
ثلاثة قرون . أما العوامل المخصبة فى هذا الميلاد الجديد فهى الكشف
والغزو الفرنسيان لإيطاليا ، والدراسة الفرنسية للآثار والفقه والآداب
الرومانية والآداب والفنون الإيطالية ، وتدفق الفنانين والشعراء الإيطاليين
على فرنسا . وأسهمت عوامل كثيرة أخرى فى بلوغ هذه النهاية السعيدة :
كالطباعة ونشر النصوص القديمة وترجمتها ، والرعاية التى حظى بها العلماء
والشعراء والفنانون من الملوك الفرنسيين ومن عشيقاتهم ومن مارجريت
النافارية ومن رجال الكنيسة والأشراف ، ومن إلهام النساء القادرات

على تذوق ألوان أخرى من الجمال غير جملهن . كل هذه العناصر
تضافرت للعمل على ازدهار فرنسا .

كان لفرانسوا الأول - الوريث لهذا التراث كله - تابع هو الشاعر
الذى أدى مهمة الانتقال من القوطى إلى الكلاسيكى ومن فيون إلى
النهضة . دخل هذا الشاعر - واسمه كليمان مارو - التاريخ صبيّاً مرحاً
فى الثالثة عشرة يروح عن الملك بالقصص الطريفة والردود الذكية البارة .
وبعد سنوات هس فرانسوا لأنباء مغامرات الفتى ومشاجراته مع « جميع
سيدات باريس » ، فقد وافقه على أنهن فى الحق فانتات جداً .

« إن المرأة الفرنسية كاملة لا عيب فيها

فالسروور رائدها ، وهى لا تعبأ بالمال .

والفرنسيات - مهما قلت فيهن أو سخرت منهن -

هن أروع أعمال الطبيعة » (٢٢) .

كان مارو يثرثر بالشعر كأنه النبع الفوار ، وقلماً اتصف شعره
بالعمق ، ولكنه كان فى الكثير الغالب مشوباً بالعاطفة الرقيقة . كان
شعر مناسبات ، وحديثاً فى أبيات قصيرة ، أو أغنيات شعبية ، أو
قصائد غزلية صغيرة ، أو أغنيات ذوات لوازم متكررة ، أو هجائيات
ورسائل تذكرك بهوراس أو مارتىال ، وقد لاحظ فى شىء من الغيظ
أن النساء (برغم اعتراضه على هذا السلوك) يسهل إغراؤهن بالماس
أكثر من القصائد العاطفية :

« حين تجد الغوانى عشيقاً ثرياً يلوح بماسة أمام عيونهن الضاحكة الخضراء
فإن رءوسهن تدور . أتضحلك مما أقول ؟ ملعون من يخطئ هنا . فالفضيلة
العظمى لهذا الحجر الكريم هى التى تنشر الضباب أمام عيونهن . وإن
عطايا وهدايا كهذه لأفضل من الجمال والحكمة والتوسلات . إنها
تنوم الوصيفات ، وتفتح الأبواب الموصدة كأنها السحر . وتعنى

عيون المبصرين ، وتسكت نباح الكلاب : والآن أما زلت تكذبني ؟ » .
وفي ١٥١٩ أصبح مارو وصيفاً خاصاً لمارجريت ووقع في غرامها
ممثلاً ، وذكرت الأقاويل أنها بثته شكوى بشكوى ، وأكبر الظن أنه
لم ينل منها غير مذهبها . فقد عود نفسه الآن على التعاطف المعتدل مع قضية
البروتستنت في فترات غرامياته . وتبع فرانسوا إلى إيطاليا . وحارب
في بافيا وأبلى فيها بلاء الأبطال . ونال شرف الأسر مع مليكه . ثم
أطلق سراحه — ولا عجب . فان أحداً لا يتوقع أن يفتدى شاعر
بالمال . ولما عاد إلى فرنسا جهر بأفكاره البروتستنتية في صراحة حملت
أسقف شارتر على أن يستدعيه ويعتقله اعتقالاً كريماً في القصر
الأسقفى . ثم أطلق سراحه بشفاعة مارجريت . ولكن سرعان ما قبض
عليه لمساعدته المسجونين على الفرار من البوليس . وأطلق فرانسوا سراحه
بكفالة وأخذه إلى بايون ليتغنى بمفاتن عروسه الجديدة إليانور البرتغالية .
وبعد أن قضى في السجن فترة أخرى لأكله لحم الخنزير في الصوم الكبير
تبع مارجريت إلى كاويز ونيراك .

وسرعان ما تجددت الحملة على البروتستنت الفرنسيين نتيجة لحركة
الملاصقات . ونمى إلى مارو أن مسكنه في باريس فاقش ، وأن أمراً
صدر بالقبض عليه (١٥٣٥) . وخاف ألا يجد نجباً يكتفى لإخفائه ولو كان
مندع مارجريت . ففر إلى إيطاليا لاجئاً إلى الدوقة رينيه في فررا .
ورحبت به الدوقة ، كأن فرجيلا جديداً قد وصل من مانتوا . ولعلها
كانت تعلم أنه يحب أن يربط اسمه باسم بوبليوس فرجيليوس مارو .
وايكنه كان أكثر شهاً بأوفيد العاشق المرح . أو بشاعره المفضل
فيون . الذي أشرب على نشر قصائده . وترسم خطاه في حياته . ولما
أذاع الدوق إركولى الثاني أنه اكتظ بالبروتستنت . انتقل كايديان إلى
البنديقية . وهناك باعه أن فرانسوا عرض العفو عن المهرطقين المرتدين

عن ضلالهم . فأعلن مارو ارتداده ، لأنه رأى أن نساء باريس جديرات بتضحية العقيدة . ومنحه الملك بيتاً وحديقة ، وحاول كليمان أن يعيش عيشة السادة البورجوازيين .

ثم طالب إليه فرانسوا فاتابل الذي كان يدرس العبرية في الكلية الملكية أن يترجم المزامير شعراً فرنسياً ، وشرحها له كلمة كلمة . فترجمها شعراً رخيماً ونشرها مشفوعة باهداء جميل العبارة إلى الملك . وأعجب بها فرانسوا إعجاباً حماسياً على أن يهدي نسخة خاصة منها إلى شارل الخامس ، الذي كان صديقاً له في تلك الفترة : وبعث شارل إلى الشاعر بمائتي كراون (٥٠٠٠ دولار ؟) . وترجم مارو مزيداً من المزامير ونشرها في ١٥٤٣ مع إهداء إلى غرامه الأول « سيدات فرنسا » . ووضع لها جوديميل موسيقى كما رأينا ، وبدأ نصف فرنسا ينشدها . ولكن إعجاب لوثر وكالفن أيضاً بها شكك السوربون ، فشمت فيها رائحة البروتستنتية ، أو لعل مارو عاد إلى التمتعة بهرطقاته في محنة نجاحه . وتجددت الحملة عليه ، ففر إلى جنيف . ولكنه وجد المناخ اللاهوتي فيها أشد صرامة مما تحتمله صحته ، فتسلل إلى إيطاليا ومات في تورين (١٥٤٤) في التاسعة والأربعين ، تاركاً ابنة غير شرعية لرعاية ملكة نافار :

٥ - رابليه

(أ) رابليه الإنسان :

أن مؤلف « أمتع وأنفع ماروى من قصص » (٢٣) هذا المؤلف الفذ ، الواسع الحيلة ، الشكك ، المرح ، المثقف ، البذيء - رأت عيناه النور في ١٤٩٥ ، ابناً لموثق غني في شينون . وأدخل في سن مبكرة جداً ديراً فرانسيسكانياً . وقد شكوا بعد ذلك من أن النساء « يعملن الأطفال تسعة شهور تحت قلوبهن . . . ولكنهن لا يطقن تربيتهم تسع سنوات . . .

ويكفي أن يضمن ذراعاً من القماش إلى ثيابهم ويحلقن شعرات لا أدرى كم عددها من قمة رؤوسهم ليحولنهم طيوراً يوضع كلمات . وهو يعنى جز شعورهم وتحويلهم رهباناً . وقد ارتضى الغلام حظه هذا لميله إلى الدرس ، ولعله كإرزمس اجتذبه مكتبة الدير إلى الكتب . وهناك التقى براهبين أو ثلاثة آخر راغبين في دراسة اليونانية ، وقد شدهم هذا العالم القديم الفسيح الذى فتح لهم الدرس والبحث مغاليقه . وأحرز فرانسوا من التقدم ما جعل بوديه نفسه يبعث إليه بخطاب ثناء . وبدأ أن الأمور تسير على ما يشتهى . وفى عام ١٥٢٠ رسم شكاك المستقبل قسيساً ، ولكن نفرأ من كبار الرهبان شمووا المهرطقة في فقه اللغة ، فاتهموا الهلنستيين الشبان بشراء الكتب بالأتعاب التى يتلقونها نظير الوعظ بدلا من تسليمها للخزانة العامة . وحبس رابليه وراهب آخر حبساً انفرادياً ، وحرما الكتب وهى لهما نصف الحياة . ونمى إلى بوديه هذا الاتجاه الرجعى فلجأ إلى فرانسوا الأول ، وأمر الملك باطلاق سراح الأديبين ورد امتيازاتهما . وبفضل شفاعة أخرى صدر مرسوم بابوى أذن لرابليه بتغيير تبعيته وإقامته الديريتين . فترك الفرنسيسكان ، ودخل بيتاً بندكتيا في مايزيه (١٥٢٤) ، وهناك أعجب به الأسقف جوفروا دستيساك إعجاباً حمله على أن يتفق مع رئيس الدير على السماح لرابليه بالذهاب حيث شاء للدرس ؛ وذهب رابليه ، ونسى أن يعود . وبعد أن جرب عدة جامعات دخل مدرسة الطب في مونبليه (١٥٣٠) . ولا بد أنه كان قد حصل تعليماً سابقاً في الطب ، لأنه نال درجة البكالوريوس في الطب عام ١٥٣١ . على أنه لأسباب لا نعلمها لم يواصل دراسته لنيل الدكتوراة ، بل عاد إلى تجواله حتى استقر به النوى في ليون في ١٥٣٢ ، وجمع بين ممارسة الطب ودراساته الأدبية ، شأنه في ذلك شأن سرفيتوس . ثم اشتغل مساعد تحرير للطباع سباستيان جريفوس ونشر عدة نصوص

يونانية وترجم حكم أبقرراط إلى اللاتينية . وانزلق برضاه إلى تيار الدراسات الإنسانية الذى كان يومها نى عنفوان تدفقه فى ليون . وفى ٣٠ نوفمبر ١٥٣٢ بعث بنسخة من « يوسيفوس » إلى إرزمس بخطاب زلنى يستغرب من رجل فى السابعة والثلاثين . ولكنك تشم فيه رائحة ذلك العصر الحياش بالحماسة :

« بعث إلى جورج دارمنك مؤخرًا . . . بتاريخ فلافيوس يوسيفوس . . . وطلب إلى . . . أن أرسله إليك . وقد تحببت هذه الفرصة مشتاقًا ، يا أكثر الآباء إنسانية . لأدلل لك بالتقدير الشاكر على احترامى العميق لك وعلى ولائى البنوى . أقول هل دعوتك بأنى ؟ أجدر بى أن أدعوك بأنى لو اتسع لذلك صدرك . فكل ما نعرف عن الأمهات . اللاتى يغذين ثمرة بطونهن قبل أن يرينها وقبل أن يعرفن حتى ما ستكون عليه . واللاتى يرعينها ويحمينها من قسوة الجو . كل هذا صنعه أنت بى . أنا الذى لم يكن وجهى معروفًا لك ولا كان اسمى المغمور ليستطيع أن يستويك . لقد ربيتى وغذوتى من ذلك الصدر الطاهر . صدر معرفتك المقدسة . وكل ما أنا عليه . من كل ما أساويه . إنما أنا مدين به لك وحدك . ولو لم أجهز بهذه الحقيقة لكانت أشد الناس عقوقًا . تحية مرة أخرى إليها الأب المحبوب . يا شرف وطا . ويا عماد الأدب . ويا نصير الحقيقة الذى لا يقهر » (٢١) .

وفى نوفمبر من ذلك العام (١٥٣٢) نجد رابايه طبيباً فى الأوتيل ديو . وهو مستشفى مدينة ليون . يتقاضى راتباً قدره أربعون جنيهًا (١٠٠٠ دولار ؟) فى العام . ولكن يجب ألا نخسبه عالمًا أو طبيباً مثاليًا . صحيح أن ثقافته كانت متنوعة وهائلة . فيبدو أنه كان كمشكسبير له معرفة مهنية فى ميادين شتى . كالقانون والطب والأدب واللاهوت والطهو والتاريخ والنبات والفلك والميثولوجيا . وهو يشير إلى مئات الأساطير القديمة . ويقتبس من عشرات المؤلفين القدامى . ونراه أحياناً

يعرض علمه الواسع عرض الهواة . ولكنه شغل بالحياة شغلا لم يتح له وقتاً لبلوغ الدقة الشديدة في دراسته . ولم تكن الطبقات التي نشرها نماذج تحتذى في دقة التفاصيل . لم يكن في طبعه أن يكون أدبيا إنسانيا متفانيا كإرزمس أوبوديه ، فلقد كان يحب الحياة أكثر من الكتب . والصورة التي تركت لنا عنه صورة رجل تروع الناظر طلعته ، فارح القامة حلو الوجه ، ينبوع للثقافة ومحدث يشع نوراً وناراً (٢٥) . ولم يكن سكيراً كما استنتجت خطأ رواية قديمة متواترة من تحياته للسكاري ومن خمرياته . بل إنه على العكس عاش عيشة مهذبة الى حد معقول ، هذا إذا استثنينا طفلا غير شرعى أنجبه ، (٢٦) ولم يعيش سوى فترة قصيرة بحيث يمكن اعتباره خطيئة بسيطة . وقد كرمته أسمى عقول جيله ، بما فيهم نفر عديد من أجباز الكنيسة . وكان في الوقت نفسه يتصف بكثير من صفات الفلاح الفرنسي ، فيجد لذة في أنماط الفلاحين الصرحاء المرحين الذين يلقاهم في الحقول والشوارع ويستمتع بفكاهاتهم وضحكهم وبقصصهم الطويلة وعباراتهم البذيئة المتفاخرة . وقد طغت شهرته دون عمد منه على شهرة إرزمس لأنه جمع هذه القصص ، وربط بينها . وحسنها ، ووسعها ، وأضفى عليها الكرامة بالعلم الكلاسيكي ورفعها إلى مقام الهجاء البناء ، وضمنها في حرص ما حوته من فحش وبذاءة .

ومن هذه القصص قصة كانت آنئذ ذائعة في كثير من أنحاء الريف ، روت أخبار مار د لطيف يدعى جارجانتوا ، وتحدثت عن شهيته الوحشية ، وعن غرامياته ومظاهر قوته العظيمة ، وكانت تنتشر هنا وهناك تلال وصخور ذكرت الروايات المحلية أنها تساقطت من سلة جارجانتوا أثناء مروره . وكانت هذه الأساطير لا تزال تروى في عام ١٨٦٥ في الكفور الفرنسية التي لم تسمع قط برابليه . وقد دون كاتب مجهول — ربما كان رابليه نفسه — على سبيل التفتكه بعض هذه الحرافات وطمعها

في ليون في كتاب سماه « الأخبار العظيمة الثينة للامارد الكبير المسائل جارجانتوا » (١٥٣٢) . وراج الكتاب بسرعة حمات رابليه على التفكير في كتاب ملحق له عن ابن جارجانتوا . وهكذا ظهر في سوق ليون المنعقدة في أكتوبر ١٥٣٢ ، غفلا من اسم المؤلف ، كتاب عنوانه « الأعمال المربعة الخيفة وأفعال البسالة التي قام بها بنتاجرويل الأشهر » . وكان هذا الاسم قد استعمل من قبل في بعض الدرامات الشعبية ، ولكن رابليه أضفى على صاحبه محتوى وعمقا جديدين . ونددت السوربون والرهبان بالكتاب لبذائه ، وراج رواجاً حسناً . واستمتع به فرانسوا الأول ، ووجد بعض رجال الدين لذة في قراءته . على أن رابليه لم يعترف بأنه مؤلفه إلا بعد مرور أربعة عشر عاماً ، فقد خشى أن يعرض للاخطر سمعته كأديب ، إن لم يعرض حياته .

وكان لا يزال شديد التعلق بالدرس . حتى أهمل واجباته في المستشفى فطرد . ولعله كان ملاقياً عنثاً في كسب قوته لولا أن جان دبلويه أسقف باريس والمشارك في تأسيس كليته فرنسا أخذ رابليه معه طبيباً في بعثة إلى إيطاليا (يناير ١٥٣٤) . ولما عاد رابليه إلى ليون في إبريل نشر في أكتوبر « قصة جارجانتوا الكبير ، أبي بنتاجرويل . وحياته المربعة جداً » . وقد حوى هذا المجلد الثاني . الذي أصبح بعد ذلك الجزء الأول من الكتاب كله ، هجاء مرحاً لرجال الدين حمل السوربون على التنديد به مرة أخرى . وسرعان ما راجت القصتان المنشورتان معاً رواجاً بز كل كتاب في فرنسا باستثناء الكتاب المقدس و« محاكاة المسيح » (٢٧) . وقد قيل ن الملك فرانسوا ضحكك وصفق استحساناً في هذه المناسبة أيضاً . ولكن لصق الإعلانات البروتستنتية المهينة في ليلة ١٧ - ١٨ أكتوبر ١٥٣٤ على مباني باريس وعلى باب قصر الملك نفسه بدل الملك من حامى الأدباء الإنسانيين إلى مضطهد المهرطقين . وكان رابليه قد

أخفى مرة ثانية أنه مؤلف الكتاب ، ولم يكن الشكوك الكثيرة حامت حوله ، وحق له أن يخشى أن تطالب السوربون برأس الكاتب البذء بعد أن حملت الملك في ركابها . وهنا بادر جان دبليه مرة أخرى إلى إنقاذه ، واختطف الكنسى الطيب الذى أصبح الآن كردينالا ذلك الأديب الطيب ، والكاتب البذء ، من مخبئه فى ليون وأخذه إلى روما (١٥٢٥) . وكان من حظ رابليه أن يجد على كرسى البابويه رجلاً مستنيراً . فاغتفر له بولس الثالث إهماله واجباته الديرية والكهنوتية وأذن له بممارسة الطب . وعكف رابليه - على سبيل التعويض والتكفير - على تنقية الطبقات التالية من كتابه ، « المؤيد يومئذ تأييداً مضاعفاً » ، من الفقرات التى تسمى إساءة شديدة إلى الذوق التقليدى . ولما احتال عليه إتيين دوايه فأنشر دون إذنه طبعة غير منقاة ، شطب اسمه من قائمة أصدقائه . ثم عاد إلى الدرس فى مونبازيه برعاية الكردينال ، ونال الدكتوراة فى الطب ، وحاضر الجماهير الكبيرة هناك . ثم عاد إلى ليون ليستأنف حياته طبيباً وأديباً . وفى يونيو ١٥٣٧ ذكر دوايه أنه فى درس تشريح شرح أمام جماعة من الطلاب جثة مجرم نفذ فيه حكم الإعدام .

بعد هذا لا نعرف عن حياته المتقلبة غير نتف من هنا وهناك . كان فى حاشية الملك خلال الاجتماع التاريخى بين فرانسوا الأول وشارل الخامس فى إينمورت (يوليو ١٥٣٨) . وبعد عامين نجده فى تورين طبيباً بلخيوم دبليه ، شقيق الكردينال ، بعد أن أصبح سفيراً لفرنسا فى سافوا . وحوالى هذه الفترة وجد الجواسيس فى رسائل رابليه فقرات أحدثت ضجة فى باريس فسارع إلى العاصمة وواجه الموقف بشجاعة . ثم برأه الملك (١٥٤١) ، وعلى الرغم من تنديد السوربون من جديد بـ « بمارجانتوا وبنـتاجرويل عين فرانسوا المؤلف المطارد فى وظيفة حكومية صغيرة هى وظيفة مأمور العرائض » ، ومنحه إذناً رسمياً لنشر

الجزء الثانى من بنتاجرويل الذى أهده رابليه شاكراً إلى مارجرىث النافارية . وقد أثار هذا الجزء من الاضطراب فى أوساط اللاهوتيين ما رأى معه رابليه أن من الحكمة أن يلتجئ إلى متر . وكانت يومها جزءاً من الإمبراطورية . وهناك قضى عاماً يشتغل طبيباً بمستشفى المدينة (١٥٤٦ - ٤٧) . وفى ١٥٤٨ رأى أن لاخطر عليه فى الرجوع إلى ليون ، وفى ١٥٤٩ عاد إلى باريس . وأخيراً حصل له حماة من رجال الكنيسة على وظيفة قسيس لأبرشية مودون الواقعة إلى الجنوب الغربى من العاصمة مباشرة ، وهكذا عاد هذا الكهل المزعج . المملود . إلى ثيابه الكهنوتية . ويبدو أنه وكل إلى مرءوسيه أداء واجبات وظيفته الدينية واكتفى بالانتفاع بايرادها (٢٨) . وكان على قدر عامنا لا يزال قسيس مودون حين نشر ما هو الآن الجزء الرابع من كتابه (١٥٥٢) . وفى هذا الموقف شىء من الشذوذ . وقد أهده إلى أوديه كردينال شاتون . بإذن منه على الأرجح ، وواضح أنه كان فى فرنسا إذ ذاك بين رجال الكنيسة نفر أوتوا ثقافة كرادلة النهضة الإيطالية ونسائهم . على أن السوربون نددت بالكتاب . وحظر « البرلمان » بيعه . وكان فرانسوا الأول ومارجرىث قد ماتا ، ولم يجد رابليه حظوة لدى هنرى الثانى المكتئب المزاج . فغاب عن باريس حيناً ثم عاد إليها سريعاً . وهناك مات بعد مرض طويل . وتروى قصة قديمة أنه حين سئل على فراشه الموت إلى أين يتوقع أن يمضى أجاب « أنا ماض لأبحث عن ربنا كبرى » (٢٩) إنها أسطورة . ويا للأسف .

(ب) جارجاتوا

تنبىء مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب (أو الجزء الثانى فى الأصل) للتو بمذاق الكتاب كله ورائحته :

« يا أشرف السكارى وأذيعهم صيتاً . وأنتم يا أغلى القنبان المرحين .

المفتري عليهم ، (لأنه إليكم أنتم دون سواكم أهدي كتاباتي) . . .
لو أنكم تأملتم شكل سقراط وقدرتموه حسب مظهره الخارجى لما سوى
فى نظركم قشرة بصلية . . . إنكم يا تلاميذى الطيبين وغيركم من
الحمقى المرحين . المؤثرين الراحة والدعة . إذ تقرءون العناوين السارة
لبعض الكتب التى نخترعها . . . تتسرعون فى الحكم بأنه ليس فيها سوى
النكات والدعابات الساخرة والحديث الفاجر والأكاذيب المروحة عن
النفس . . . ولكن . . . حين تطلعون على هذا المقال ستجدون . . .
تعليمياً ذا تفكير أعمق وأكثر تجرداً . . . سواء فيما يتصل بديننا أو
شئون الحكم العام والحياة الاقتصادية . . . وقد يتكلم أحق مغرور مشوش
العقل بشر عن كتبي . فلا تعبأوا به ، وامرحوا الآن يا أبناءى . واشرحوا
صداوركم ، واقرأوا بابتهاج . . . هيا إلى آخر كلمة .

وهذا الكلام منقول عن ترجمة أوركهارت الشهيرة . التى تتجاوز
الأصل أحياناً . ولكنها هنا تلتزمه بدقة . حتى لتذكر الكلمات العنيفة
التي لم يعد مسموحاً بها فى حديث المثقفين . وفى هاتين الفقرتين تطالعا
روح رابيه وهدفه : الهجاء الجاد مغلفاً فى تهريج يخفف من عنفه ،
وماطعناً أحياناً بسناج خالص . ونحن نمضى فى هذه المغامرة على ما فيها
من خطر . شاكرين لأن الكلمة المطبوعة لا تنبعث منها رائحة خبيثة ،
آملين أن نعثر وسط هذا الكوم من القمامة على بعض الأحجار الكريمة .
ويبدأ جارجانتوا بسلسلة نسب فريدة تخاكى أنساب التوراة شكلاً .
أما أبو المارد فهو جرانجوزيه ملك يوتوبيا . وأما أمه فهى جارجاميل .
حاته أحد عشر شهراً . ولما بدأت آلام غاضبها اجتمع أصدقاء الأسرة
ليسروا وهم يحسبون النبيل . زاعمين أن الطبيعة تكره الفراغ . ويقول
الأب المنخور لزوجته بلهجة من لا يعرف الألم « امضى بشجاعة النعجة :
وأخرجى لنا هذا الغلام بسرعة . وسنعكف بعدها على العمل فوراً . . .

لنصنع غيره » . وتتمنى الزوجة لحظة أن يلتق حظ أيلار : ويقترح هو أن ينجز ما تتمناه للتو ، ولكنها تعود فتعدل . أما جارجانتوا الجنيين فاذ وجد المنفذ العادى للوليد مسدوداً بقابض أخذ فى غير أوانه . فقد « دخل وريد جارجاميل الأجوف » وتساق حجباها الحاجز وعنتها . ثم « انبثق من الأذن اليسرى » . وما ان ولد حتى راح يصيح . ويصيح بصوت علا حتى أسمع لإقليمين : « الشراب ! الشراب ! الشراب ! » وخصص لطعامه ١٧,٩١٣ صفيحة من اللبن . ولكنها منذ البدء أبداً ليثارة للنبيذ .

ولما آن أوان تعليم المارد الصغير وتبهيته لارتقاء العرش . عين له مرب خاص هو الأستاذ جوبلان الذى أحاله فتى غيباً . لأنه حشا ذاكرته بالحقائق الميتة وأربك عقله بحجج الكلاميين . واضطر جارجانتوا إلى سلوك سبيل يائس ، فنقل الغلام ووضعته فى رعاية الأديب الإنسانى بونوكراتيس . وانطلق الأستاذ وتلميذه إلى باريس لتحصيل أحدث تعليم فيها . وكان جارجانتوا يركب فرساً ضخمة قطع ذيلها الهفاف الغابات الفسيحة أثناء مرورها ، وهكذا أصبح جزء من فرنسا سهلاً . ولما باغا باريس ارتقى جارجانتوا برجاً من أبراج نوردام واستهوته أجراس الكاتدرائية فسرقها ليعلقها حول عنق فرسه . وبدأ بونوكراتيس من جديد تعليم المارد الذى أفسد تعليمه ، وذلك باعطائه مسهلاً هائلاً ليظهر أمعاءه ومنه جميعاً ، ولا غرو فكلاهما وثيق الصلة بالآخر . فلما تنق جارجانتوا على هذا النحو أولع بالتعليم وبدأ بحماسة يدرّب جسده وعقله وخلقه فى وقت معاً . فدرس الكتاب المقدس والآداب القديمة والفنون ، وتعلم أن يعزف على العود والبيان وأن يستمتع بالموسيقى . وكان يعزى ويقفز ويصارع ويتسلق ويسبح ، ومارس الركوب والدفع بمنكبيه والمهارات التى يحتاج إليها المقاتل فى الحرب . والصيد ليربى شجاعته .

ولكنى ينمى رثتيه كان يصيغ حتى سمعته باريس كلها . وزار صناع المعادن وقاطعى الأحجار والصياغ والكيميائيين والنساجين وصانعى الساعات والطبايعين والصباغين ودرس حرفهم « باعظائهم شيئاً يشربونه » وكان فى كل يوم يشارك فى عمل بدنى نافع ، ويذهب أحياناً لحضور محاضرة أو مشاهدة تجربه أو الاستماع إلى « مواظظ الوعاظ الإنجيليين » (وتلك نمزة بروتستانتية) .

وفجأة استدعى جارجانتوا وهو يتلقى هذا التعليم كله إلى مملكة أبيه لأن ملكاً آخر يدعى بكروشول أعلن الحرب على جرانجوزيه . لماذا ؟ إن رابليه يسرق هنا قصة من كتاب بلوتارخ « حياة بيروس » ويروى أن قواد بكروشول راحوا يفاخرون بما يستطيعون فتحه من بلاد تحت قيادته : فرنسا وأسبانيا والبرتغال والجزائر وإيطاليا وصقلية وكريت وقبرص ورودس واليونان وأورشليم . . . ويغضب بكروشول وتنفخ أوداجه . غير أن فيلسوفاً عجوزاً يسأله : « وما نهاية كل هذه المتاعب والأسفار ؟ » ويجيب بكروشول : « حين نعود سنجلس ونستريح ونبتج . » . ويقترح عليه الفيلسوف هذا الرأى « ولكن هبك لم تعد إلى وطنك قط لعلول الرحلة وخطرها ، أفلا يحسن بنا أن نستريح من الآن ؟ » وصاح بكروشول « كفى . امضوا بنا قدماً . لأننى لا أخشى شيئاً . . . وليتبعنى من يحببنى » (١ - ٣٣) . وتكاد فرس جارجانتوا تنهى الحرب مع بكروشول بالفوز عليه لأنها أغرقت آلافاً من رجال العدو بدفقة بسيطة واحدة من بولها .

ولكن بطل الحرب الحقيقى هو الأخ يوحنا ، وهو راهب أحب القتال أكثر من الصلاة ، وسمح لتطلعه الفلسفى أن يغامر فى مسالك أكثر خطراً . فهو يتساءل مثلاً « ما السبب فى أن فخذى السيدة النبيلة تبدوان دائماً غضبتين رطبتين ؟ » - ومع أنه لا يجد فى كتب أرسطو أو بلوتارخ ما ينيره فى هذه المشكلة الجذابة ، فإنه هو نفسه يجيب لإجابات

غنية في العلم بفنون الأفخاذ . وقد أحبه كل رجال الملك ، وهم يقدمون له من الطعام والنبيد ما يشتهي ، ويدعونه لخلع رداء الرهبنة حتى يستطيع ابتلاع المزيد من الطعام ، ولكنه يخشى ألا تتوفر له الشهية الطيبة لو خلعه . ويذم المؤلف جميع النقائص التي يرمى بها المصلحون البروتستنت جماعة الرهبان ، عن طريق هذا العضو المرح من أعضاء هذه القبيلة : كالكسل والشره والإسراف في الشراب والتمتمة بالصلوات والعداء للدرس والأفكار كلها ، اللهم الا رقعة متضائلة منها . يقول الأنخ يوحنا : « في ديرنا لا نعكف على الدرس أبداً مخافة أن نصاب بالتهاب الغدة النكفية » . (١ - ٣٩) .

واقترح جارجانتوا أن يكافئ الراهب على حسن بلائه في الحرب بتعيينه رئيساً على دير قائم . ولكن يوحنا رجا بدل هذا أن يوفر له المال لتشيد دير جديد له قوانين « تناقض قوانين الأديار كلها » فيجب أولاً ألا تقام حوله أى أسوار تحصره ، وأن يكون نزلاؤه أحراراً في تركه حين يشاءون . ثانياً : يجب ألا تمنع النساء من دخول الدير . ولكن لا يدخله منهن سوى « الحملات الحسنات الصورة الدمشات الخاق » ممن تتراوح أعمارهن بين العاشرة والخامسة عشرة . ثالثاً : لا يقبل من الذكور سوى من كان بين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، على أن يكونوا ويسمى الوجوه كريمي المولد والطباع ، ولا يسمح للسكيرين أو المتعصبين بالدخول ، ولا للمتسولين أو المحامين أو القضاة أو الكتبة أو المراهين أو الجشعين النهابين أو المنافقين المتزلفين بدخول الدير . رابعاً : لا يسمح بنذور للعفة أو الفقر أو الطاعة ، فللأعضاء أن يتزوجوا وأن يستمتعوا بالمال وأن يكونوا أحراراً في جميع شؤونهم . ويطلق على الدير اسم تليمى أى « ماشئت » ، أما قانونه الوحيد فهو « افعل ما تريد » لأن « الناس الأحرار الطيبى العنصر الحسنى التربية الكريمي المعشر أوتوا بالطبع

غريزة وحافزاً يدفعانهم للفعال الفاضلة ويبعدانهم عن الرذيلة ، وهذه الغريزة اسمها الشرف » (١ - ٥٧) . وقد قدم جارجانتوا المال اللازم لإقامة هذه الفوضى الارستقراطية ، وارتفع بناء الدير حسب المواصفات التي وضعها رابليه في تفصيل أغرى المعمارين برسم رسوم له . وقد زوده بمكتبة ومسرح وحمام سباحة وملعب للتنس وآخر لكرة القدم وكنيسة صغيرة وحديقة وأرض للصيد وبساتين فاخرة واسطبلات و ٩٣٣٢ حجرة . لقد كان فندقاً أمريكياً مقاماً في بلد للنزهة . على أن رابليه نسي أن يزود الدير بمطبخ أو أن يدلنا على من يقوم بالأعمال الوضيعة في هذا الفردوس .

ج - بنتاجرويل

بعد أن خلف جارجانتوا أباه على العرش جاء دوره في الإنجاب والتربية . فحين بلغ من العمر أربعمئة وثمانين وأربعة وأربعين عاماً أنجب بنتاجرويل من زوجته باديبك التي ماتت وهي تلد الغلام فبكى عليها جارجانتوا « كما تبكى البقرة » و « ضحكك كما يضحك العجل » حين رأى ولده القوى البدن . وشب ينتاجرويل حتى استفحل حجمه : وفي إحدى وجباته ابتلع رجلاً عن غير قصد ، ولم يكن بد من إخراجه بعملية تعدين في قناة المارد الصغير الهضمية ، ولما ذهب بنتاجرويل إلى باريس ليتلقى تعليمه العالي أرسل له جارجانتوا رسالة تشتم فيها عبير النهضة الأوروبية : -

ولدى الأعـسـز :

... مع أن المرحوم أبي الطيب الذكر جرانجوزيه بذل ما وسعه من جهد لييسر لي الاستفادة من جميع نواحي العلم والمعرفة السياسية ، ومع أن جهادي وعكوفي على الدرس قابلاً لرغبته هذه بل جاوزها . فان

الزمن كما تعلم جيداً لم يكن يومها موالياً كما هو الآن للتعلم . . . لقد كان زمناً مظلماً تحجب سماءه غيوم الجهالة وينبعث فيه شيء من نحس القوط ونكبتهم ، القوط الذين دمروا كل الأدب الطيب حيثما استقرت أقدامهم ، ذلك الأدب الذى رد بفضل الله فى عصرى إلى سابق لإشراقه وكرامته بحيث لا يكاد يسمح لى الآن بدخول الصف الأول فى مدرسة ثانوية للصبيان

أما اليوم فقد زودت عقول الناس بشتى العلوم . وأحييت العلوم القديمة التى ظلت منقرضة أجيالا كثيرة ، وأعيدت لغات الثقافة إلى نقائها القديم — وأعنى اليونانية (التى يحجل الإنسان بدونها من أن يعد نفسه أديباً أو عالماً) ، والعبرية ، والعربية ، والكلمدية ، واللاتينية . كذلك شاع استعمال الطباعة ، أنيقة دقيقة بحيث لا يمكن تصور ما هو أرقى منها . . .

وفى نيتى . . . أن تتعلم اللغات تعليماً كاملاً . . . أما التاريخ فلا يفتك حفظ أى جزء منه . . . وأما الفنون الحرة كالهندسة والحساب والموسيقى فقد أتمت لك تذوقها حين كنت بعد صبيّاً . . . فامض فيها قدماً . . . وأما الفلك فادرس كل أصوله ، ولكن دعك من التنجيم . . . لأنه ليس سوى غش وغرور خالسين . . . وأما القانون المدنى فانى أريدك أن تحفظ نصوصه عن ظهر قلب ثم تبعتها مسترشداً بالفلسفة . . . وأما أعمال الطبيعة فانى أود أن تدرسها بدقة . . . ولا يفتك أن تطلع بعناية على كتب الأطباء اليونان والعرب واللاتين ، ولا تحتقر التلموديين ، والقبلايين ، واستكثري من التشريح لتلم للماماً تاماً بذلك العالم الصغير ، أعنى الإنسان . كذلك اعكف فى بعض ساعات النهار على درس الكتاب المقدس : أولاً العهد الجديد باليونانية ، ثم العهد القديم بالعبرية . . .

ولكن بما أن الحكمة كما قال سليمان الحكيم لا تدخل عقلا شريراً ،
والعلم بدون ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس ، فإن من واجبك أن
تخدم الله وتحبه وتخشاه . . . كن خدوماً لكل جيرانك وأحبهم كما
تحب نفسك ، واحترم معلمك وتجنب حديث من لا ترغب في التشبه
بهم ، ولا تضعيع المواهب التي منحك الله إياها . فإذا رأيت أنك حصلت
كل ما يجب تحصيله من العلم في تلك الناحية ، فعد إلى لكى أراك وأمنحك
بركتي قبل أن أموت . . .

أبوك

جارجانتوا (٢٠)

وعكف بنتاجرويل على الدرس في حماسة ، وتعلم لغات كثيرة ،
وكان من الممكن أن يكرس وقته كله للقراءة والدرس لولا أنه التقى
ببانورج . وهنا أيضاً يبرز التابع أكثر من السيد ، بأوضح حتى من
بروز الراهب يوحنا ، كما يحجب سانشو بانزا أحياناً شخصية سيده
دون كخوته . فرابليه لا يجد في جارجانتوا ولا في بنتاجرويل المجال
الطليق لدعاباته البذيئة وألفاظه الصاخبة ، إنما هو في حاجة إلى هذا
المخلوق - الذي فيه أثر من الوغد ، ومن المحامي ، ومن الشاعر فيون ،
ومن الفيلسوف - ليستخدمه أداة للهجو . وهو يصف بانورج (ومعنى
الاسم : مستعد لعمل أى شيء) بأنه نحيل كالقط الجائع ، يسير في
حذر شديد « كأنه يمشي على قشربيض » وأنه لإنسان شهم وإن شابه بعض
الفجور ، وأنه « عرضة لضرب من المرض . . . يسمى الإعسار » ، وأنه
نشال ، « ومتشرد فاسق ، ومحتال ، وسكير . . . ورجل داعر جداً ،
ولكنه فيما عدا ذلك خير الناس في هذه الدنيا وأكثرهم فضيلة » (٢ - ١٤ ،
١٦) . وعلى فم بانورج يسوق رابليه أشد نكاته فحشاً . . . كان
بانورج يمقت على الأخص ما درجت عليه نساء باريس من تزيير

أقمصتهن في أعلى ظهورهن ، فقاضى النساء في المحكمة . ولعلد كان خاسراً دعواه ، ولكنه هدد بأن يبدأ عادة مماثلة في سراويل الرجال . وهنا أمرت المحكمة بأن يترك النساء فتحة متواضعة ولسكنها سالكة من الأمام (٢ - ١٧) . وحدث أن غضب بانورج من امرأة اجتثرتة . فرش ثوبها وهي راکعة للصلاة في الكنيسة بسائل حيوان مدلل ساء يد الشهوة ، فلما قامت تبعها جميع كلاب باريس الذكور . وعادها ١٤، ١٠، ٦٠ في ولاء إجماعى لا يعرف الكلل (٢ - ٢١ - ٢٢) . وبيع بنتاجرويل بهذا الوغد تخففاً من الفلسفة . برغم أنه أمير بالغ غاية التهذيب . فيدعوه لمصاحبته في كل رحلاته .

وبينما تمضى القصة في جندل إلى الجزء الثالث يناقش بانورج موضوع زواجه بينه وبين نفسه وبينه وبين غيره . فيعدد ما لامشروع وما عليه خلال مائة صفحة فيها المشرق ، والكثير فيها ممل . ولكننا في هذه الصفحات نلتقى بالرجل الذى تزوج امرأة خرساء . والفقيه الشهير بريدلجوس الذى ينتهى إلى أكثر أحكامه سلامة برمى الزهر . وتستوحى مقدمة الجزء الرابع لوكيان فتصف « مجعاً للآلسة » في السماء . وجوبيتر يشكو من الفوضى اللاأرضية . التى تسود الأرض . والثلاثين حرباً المستعرة في وقت واحد . والكراهية المتبادلة بين الشعوب . وانقسامات اللاهوتيين ، وأقيسة الفلاسفة « فإذا نحن فاعاون بهذه الحرب حرب راموس وجالان — هذين اللذين يخرشان باريس كلها بعضها ببعض ؟ » — ويشير عليه الإله بريابوس بأن يخول هذين البطرسين Pierres إلى هضرتين (pierres) ، وهنا نرى رابليه يسطو على تورية من الكتاب المقدس :

ثم يعود إلى الأرض فيسجل في الجزئين الرابع والخامس (*) رحلات

(*) نشر الجزء الرابع في ١٥٦٢ بعد موت رابليه بتسع سنوات . ولعل الخطة مشيرة فصلاً الأول قد خلفها رابليه (٣١) ، أما الفصول الاثنان والثلاثون الباقية فتدبها إليه مشكور فيها .

طويلة أشبه برحلات جلفر ، خرج فيها بنتاجرويل وبانورج والأخ
يوحنا وأسطول يوتوي ملكي لبيحثوا عن « معبد القارورة المقدسة » ،
وليسألوا هل يحسن بيانورج أن يتزوج . وبعد عشرات المغامرات ،
وبعد التنديد بأصوام « الصوم الكبير » ، وبكارهي البابا من البروتستنت ،
وبعباد البابا من المتعصبين ، وبالرهبان ، وبتجار الآثار المزيفة ، وبالخمامين
(القلط ذات الفراء) ، وبالفلاسفة الكلاميين ، وبالمؤرخين . تنتهي
الرحلة إلى المعبد . وعلى بوابته كتابة يونانية تقول : « إن في النبيذ لحقاً » .
وفي نبع قريب قارورة غمرت في النبيذ إلى نصفها ينبعث منها
صوت يقرر قائلاً « ترنك » ، وتقول الكاهنة باكبوك : إن النبيذ
خير الفلسفات ، وإن « ما يميز الإنسان ليس الضحك بل شرب
النبيذ الرطب اللذيذ » . ويسعد بانورج ان تؤيد الكاهنة ما كان يعرفه
طوال الوقت . فيصمم على أن يأكل ويشرب ويتزوج ويتحمل العواقب
كما يخاف بالرجال ، وهو يأنشأ أغنية عرسية بذئبة ، ثم تصرف باكبوك
الجماعة بعد أن تمنحها هذه البركة « ليحفظكم ذلك المحيط الفكري الذي
يوجد مركزه في كل مكان ، ولا يوجد له نهاية في أي مكان ، والذي
تدعوه الله ، في رعايته القوية القادرة » . (٥ - ٤٧) . وهكذا تختتم القصة
العظيمة بمزيج مثالي من البذاءة والفلسفة .

(د) مضحك الملك :

أى معنى يتوارى خلف هذا الهراء ، وهل من حكمة في هذا السيل
الدافق من المرح الفاليرنى - البرياني ؟ يقول رابليه وهو يجرى الكلام
على لسان أحد حماقه « نحن مهرجى الريف فينا شئ من الخلافة ، نميل
إلى تعظيم الألفاظ وتفكيك أوصالها » . (٥ - ١٨) . إنه يحب الألفاظ ،
وعنده منها معين لا ينضب ، وهو يخترع مئات من الكلمات الجديدة ،

ويشتقها كشكسبير من كل حرفة ومهنة. ومن كل ميدان في الفلسفة أو اللاهوت أو القانون. وهو يضع قوائم بالنعوت أو الأسماء أو الأفعال، وكأنما يلذه تأملها (٣ - ٣٨)، ثم يستكثر من المترادفات في نشوة من الإطناب، ولقد كان هذا الحشو من قبل حيلة قديمة في المسرح الفرنسي (٢٢). وهو جزء من فكاهة رابليه التي لا حد لها ولا ضابط، وفيض تتضاءل أمامه حتى فكاهة أرسطوفان أو مولير. أما بذاته فوجه آخر من وجوه هذا الفيض الذي لا يمكن التحكم فيه. ولعل بعضها رد فعل للنسك الديري، وبعضها لامبالاة تشريحية لا تستغرب من طيب، وبعضها تحد جرىء للحدلقة، وكثير منها يساير أسلوب العصر. وما من شك في أن رابليه قد غلا في فحشه غلواً شديداً، حتى أننا بعد أن نقرأ عشر صفحات أونحوها من التفاصيل المأوثة بالتبول والتناسل والإفراز والغازات نمل القراءة وننصرف عنها. ولم يكن بد من مجيء جيل جديد من التأثير الكلاسيكي ليروض هذا الفوران البركاني ويخضعه للنظام.

على أننا نغترف هذه العيوب لأن أسلوب رابليه ينطلق معنا في يسر كما انطلق معه؛ إنه أسلوب خال من التكلف والصنعة الأدبية، أسلوب طبيعي سهل متدفق، هو بالضبط الأداة لسرد قصة طويلة. والسرد في حيوية رابليه هو الخيال مضافاً إليه النشاط مضافاً إليهما الوضوح. وهو يرى ماث الأشياء التي لا يراها معظمنا، ويلحظ دقائق لا حصر لها في اللباس والسلوك والحديث، ثم يجمع بينها بطريقة خيالية غريبة، ويطلق هذه الأخطاط يطارد بعضها البعض فوق صفحاته الضاحكة.

ثم تراه يستعير يمنة وبسرة جرياً على عادة جيله، معتذراً عن هذا بما اعتذر به شكسبير من أنه يجود كل شيء يسرقه. فهو يتناول ماث من نتف الأمثال الواردة في كتاب لارزمس «أداجيا» (٢٣)، ويحكى

الكثير مما سبقه في «مدح الحمافة» أو «الأحاديث» ، وهو يتمثل خمسين موضوعاً من بلوتارخ ، وذلك قبل سنوات من ترجمة آميو التي فتحت سبل العظماء هذا لأى لص من لصوص الأدب . وهو ينتحل من كتاب لوكيان «الحديث السماوى» وقصة فولنجو عن الحروف الذى أغرق ذاته ، ويجد في كوميديات عصره قصة الرجل الذى ندم على أنه شفى زوجته من الخرس ، ويستعمل عشرات الأفكار التى توحى بها الخرافات والقصص الصغيرة التى انحدرت من فرنسا الوسيطة . وحين يصف رحلات بنتاجرويل نراه يعتمد على الحكايات التى نشرها رواد الدنيا الجديدة والشرق الأقصى . ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذه الاستعارات كلها ، ليس هناك مؤلف أكثر منه أصالة ، ولسنا نجد في غير شكسبير وسرفانتيس مخلوقات واسعة الخيال ، مفعمة بالقوة والحياة ، كالراهب يوحنا ، أو كبانورج . على أن رابليه نفسه هو أهم خلق خلقه الكتاب ، إنه مزيج من بنتاجرويل ، والراهب يوحنا ، وبانورج ، ولارزمس ، وفيزاليوس ، ويوناثان سويفت ، مزيج ثرثار ، فوار ، محطم للأصنام ، عاشق للحياة .

وتعشقه للحياة هو الذى جعله يسلخ جلود أولئك الذين جعلوها أقل فتنة وإغراء . ولعله قسا بعض الشيء على الرهبان الذين لم يستطيعوا مشاركته ميوله أدبياً إنسانياً ، ولا بد أن محامياً أو محامين قد أنشبا برائتهما فيه ، لأنه يمزق فراء المحامين في غل شديد . يقول محذراً قراءه «أنصتوا إلى ، إن عشتم ست دورات أولبية فقط مضافاً إليهما عمر كلين ، فسترون قسط القانون هؤلاء سادة على أوروبا بأسرها » . ولكنه يسطو أيضاً القضاة ، والمدرسين ، واللاهوتيين ، والمؤرخين ، والرحالة ، وباعة صكوك الغفران ، والنساء . ولا تكاد تعثر في الكتاب كله على كلمة طيبة عن النساء ، وتلك هى أشد نقط رابليه عمى ، ولعلها الثن الذى

دفعه راهباً وقسيساً وأعزب لافتقاره طول حياته إلى الخنان .

وقد اختلف المتشيعون له في أمره . أهو كاثوليكي أم بروتستانتي أم حر التفكير أم ملحد . فهو في رأى كالفن ملحد . أما عاشقه أناتول فرانس فينتهى إلى هذا الحكم « في اعتقادى أنه لم يصدق أى شئ » (٢١) . وكان أحياناً يكتب كأشد ما يكون الكاثيون بنزيرة من الناس واحتقاراً لهم ، كما ترى في لغة الغنام في حديثه عن أمثل الطرق لإخضاع الحقول (٤ - ٧) . كان يتهم بالصوم ، وبصكوك الغفران . وبرجال محاكم التفتيش ، وبالمراسيم البابوية ، ويلذه شرح الشروط التشريعية المطلوبة في المرشح للبابوية (٤ - ٤٨) . ويبدو أنه لم يؤمن بالبحيم (٢ - ٣٠) . وتراه يردد حجج البروتستانت الذين قالوا إن البابوية تنزع أحوال الشعوب (٤ - ٥٣) ، وأن كرادلة روما يحيون حياة البطنة والنفاق (٤ - ٥٨) .

(٦٠) . وكان يتعاطف مع المهرطقين من الفرنسيين ، وقد قال إن بنتا جرويل لم يطل مكثه في تولوز لأن القوم هناك « يحرقون حكامهم أحياء كما تشوى الرنجة الحمراء » . — مشيراً بذلك إلى إعدام أستاذ قانون مهرطق (٢ - ٥) ولكن يبدو أن ميوله البروتستانتية اقتصررت على الإنسانيين من البروتستانت دون غيرهم . ولقد تبع إرزمس في إعجاب . ولكنه لم يمل إلى لوثر إلا في اعتدال . وقد صدف في اشتزاز عن جزمية كالفن وغاوه . كان يتسامح في كل شئ إلا عدم التسامح . وكان كجميع الإنسانيين إذا أكرهوا على الاختيار يؤثر الكاثوليكية بأساطيرها وعدم تسامحها وفنونها . على البروتستانتية بقدرتها وعدم تسامحها ونقاها . وكثيراً ما أكد إيمانه بالعقائد الأساسية في المسيحية ، ولكن لعل هذا كان من قبيل الحضافة في رجل كان على استعداد في سبيل الدفاع عن آرائه لأن يلقى عقاب الحرق دون سواه . ولقد أحب تعريفه لله حباً جعله (أو جعل من أكل كتابه) . يعيده غير مرة (٣ - ١٣ ، ٥ - ١٤٧) . ويبدو أنه آمن بخاود النفس

(٢ - ٨ ، ٤ - ٢٧) ، ولكنه أثر بوجه عام حديث الموضوعات الداعرة على حديث الأخرويات . ولقد اتهمه فاريل بالارتداد لأنه قبل وظيفة كاهن مودون (٣٥) . ولكن هذا القبول كما فهمه واهب الوظيفة ومتلقيا على حد سواء لم يكن سوى سبيل إلى الرزق .

أما إيمانه الحقيقي فكان بالطبيعة . ولعله في هذه الناحية كان لا يقل عن جيرانه المحافظين إيماناً وسداجة . لقد آمن بأن قوى الطبيعة تعمل للخير في النهاية ، ولم يقدر حيادها نحو الناس والحشرات على السواء حق قدره . وكان كروسو ، وعلى النقيض من لوثر وكالفن ، يؤمن بطبيعة الإنسان الخيرة ، أو يثق بغيره من الإنسانين بأن التعليم الجيد والبيئة الطيبة كفيلا أن يجعل الإنسان خيراً . وقد نصح الناس كما نصحهم مونتيني بأن يتبعوا الطبيعة ، ولعله كان ينظر بعدم اهتمام خبيث بما قد يحدث عندها للمجتمع والحضارة . وقد يبدو في وصفه لدير تليمي مبشراً بالفوضى الفاسفية ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ؛ فهو لا يسمح بدخول الدير إلا لمن يؤمله حسن تربيته وتعليمه وإحساسه بالشرف لامتحانات الحسرية .

لقد كانت « البنتاجرويلية » فلسفته النهائية . وعلمنا ألا نخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة بنتاجرويليون . التي تعني عشباً مفيداً ليس في حقيقته غير التنب . وفائدته النهائية أنه يصلح لصنع أربطة رقبة مناسبة للمجرمين . أما البنتاجرويلية فهي العيش على طريقة بنتاجرويل في عشرة لطيفة متساهلة مع الناس والطبيعة ، وفي استمتاع شاكر بكل طيبات الحياة ، وفي تقبل بشوش لما يصيبنا من تقلبات ومن نهاية لامفر منها . وقد عرف رابليه هذه البنتاجرويلية مرة بأنها « ضرب من فرح الروح كامن في احتقار أحداث الحياة » (٤ - المقدمة) . وهي تجمع بين فلسفات الرواقى زينون ، والكلبي ديوجين . والفيلسوف أبيقور :

وخلاصتها تحمل كل الأحداث الطبيعية برباطة جأش . والنظر دون تضرر إلى جميع الحوافز والعمليات الطبيعية ، والاستمتاع بكل هذه سليمة دون كبت ديني متزمت أو تبكيت لاهوتي للضمير . لقد كان بنتاجرويل « يتقبل كل شيء برضى ، ويفسر كل فعل بأحسن نية . لا يناكد نفسه ولا يزعجها . . . لأن كل ما تحويه الأرض من متاع . . . لا يساوى أن تضطرب من أجله عواطفنا أو تختل ، وأن نفكر أو نحير بسببه حواسنا أو أرواحنا » (٣ - ٢) . ويجب ألا نبالغ فيما تحويه هذه الفلسفة من عنصر أبيقورى . فخمريات رابليه لفظية أكثر منها كمحولية . وهى لا تنسجم تماماً مع ما وصفه به أحد معاصريه من أنه رجل « طلق الحياء لطيف الوجه هادئة » (٣٦) . أما الخمر الذى احتفى به فهو خمر الحياة . إن هذا الأمير المزعوم لدمنى الخمر يضع على فم جارجانتوا عبارة تصوغ فى بضع كلمات تحدى العصر الذى نعيش فيه «إن العلم بغير ضمير ليس إلا مجلبة لحراب النفس » . (٢ - ٨) .

ولقد اعتزت فرنسا برابليه أكثر من اعتزازها بأى من عمالقة القلم فيها باستثناء مونتيني ومولير وفولتير . ووصفه إيتين باسكويه الذى عاش فى قرنه بأنه أعظم كتاب العصر . وحين تصلبت عادات المجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر تحت المحرمات والباروكات . وطلت الأشكال الكلاسيكية . فقد رابليه بعض مكانته فى ذاكرة الأمة ، ولكن حتى فى تلك الفترة اعترف مولير وراسين ولافونتين بتأثرهم به ، وأحبه فونتينيل ، ولابروير . ومدام دسفنيه . وانتحل باسكال تعريفه لله . أما فولتير فقد بدأ باحتقار جلافته . وانتهى بالولاء له . وحين تغيرت اللغة الفرنسية استعصى فهم رابليه على القراء الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، واعله اليوم أكثر شعبية فى البلاد الناطقة بالإنجليزية منه فى فرنسا . ذلك أن السر نومس أوركهارت نشر فى ١٦٥٣

و١٦٩٣ ترجمة للجزئين الأول والثالث صاغها في إنجليزية قوية لا تقل حيوية وتدفقاً عن الأصل الفرنسى . ثم أكمل بيتر دموتيه الترجمة في ١٧٠٨ ، وبفضل جهود هذين الرجلين أصبح جارجانتوا وبنطاجرويل من عيون الأدب الإنجليزى . ولقد سرق منه سويفت كأنما يسند إلى حق انتائه إلى الاكليروس . ولا بد أن ستيرن وجد في الكتاب خيرة لسمخيته اللاذعة . إنه أحد الكتب التى لا تنتمى إلى أدب بلد بعينه بل إلى الأدب العالمى . .

٦ — رونسار وجماعة البلياد (النجوم السبعة) P éiade

كان فيض غامر من الشعر يتدفق خلال هذه الفترة على فرنسا . وقد وصل إلى عامنا أسماء نحو ٢٠٠ شاعر فرنسى لمعوا إبان حكم فرانسوا الأول وأبنائه . ولم يكن هؤلاء الشعراء أصواتاً جوفاء تصرخ في برية لا تبعاً بهم ، بل مقاتلين يخوضون معركة أدبية — معركة الشكل ضد المضمون . ورونسار ضد رابايه — قررت طبيعة الأدب الفرنسى حتى عصر الثورة .

واقعد أهتمامهم حماسة معقدة . فهم من ناحية يتوقون إلى مباراة اليونان والرومان في نقاء الأسلوب وكمال الشكل . ومنافسة كتاب السونيتات الإيطاليين في رشاقة الكلام وجمال الأخيلة ، ولكنهم من ناحية أخرى مصممون على ألا يكتبوا باللاتينية كالأدباء الذين علموهم وأثاروا حماسهم ، بل بلغتهم القومية وهى الفرنسية . وهم في الوقت ذاته يريدون أن يلينوا ويهذبوا هذه اللغة التى ما زالت خشنة ، وذلك بتعليمها الألفاظ والعبارات والتراكيب والأفكار الى سرقوها بحكمة من الآداب الكلاسيكية . وافتقار رواية رابليه إلى الشكل المحدد ، بما يتخللها من أحداث عرضية ، جعلها في نظرهم إناء خشناً من الطين شكل باليد على عجل ثم أعوره

الطلاء والصقل . لذلك اعتزموا أن يضيفوا إلى حياة رابليه « الأرضية » ضبطاً للشكل المصمم بعناية ، وللشعور الخاضع لحكم العقل .

وبدأت الحملة الكلاسيكية في ليون إبان حياة رابليه نفسه . فقد أنفق موريس سيف جانباً من حياته فيما خاله تحديداً لواقع قبر لورا حبيبته بترارك . ثم كتب ٤٤٦ مقطعاً شعرياً لحبيبته ديلي . ومنهد الطريق أمام رونسار بفضل ما تميز به شعرد من رقة حزينه . وكان أقدر نماذسيه في ليون امرأة تدعى « لويز لابييه » راحت وهى مدججة بسلاحها الكامل تقاثل كأنها جان دارك أخرى في برنيان . ثم هدأت ثائرتها بزواجها من صانع حبال أغضى — على طريقة الفرنسيين اللطيفة — عن غرامياتها الجانبة . كانت تقرأ اليونانية واللاتينية والإيطالية والإسبانية . وتعزف على العود عزفاً ساحراً . وتحفظ بصالون لمناسيتها وعشاقها . وقد كتبت بضع قصائد من أسبق وأروع ما كتب من سونيتات في اللغة الفرنسية . وحسبنا للحكم على شهرتها أن نستشهد بنحازتها (١٥٦٦) التى قال مورش إنجبارت أنها « كانت انتصاراً » . فقد حمل نعشها محترقاً المدينة ووجهها مكشوف ورأسها مكمل بتاج من الزهور . لقد عجز الموت عن أن يشوهها . وجلل أهل ليون قبرها بالزهور والدموع » . (٢٧) وعن طريق شعراء ليون هؤلاء انتقل الأسلوب والمزاج البتراركيان إلى باريس ودخل إلى جماعة البلياد .

وكلمة البلياد ذاتها صدى يردد الكلاسيكية . ذلك أن إسكندرية القرن الثالث قبل الميلاد كان فيها كوكبة من شعراء سبعة أطلق عليهم هذا الاسم مأخوذاً من الثريا التى خلدت ذكر بنات أطلس وبليوني الاسطوريات . على أن رونسار ، ألمع نجوم البلياد الفرنسيين . قل أن استعمل هذا اللقب . وكانت نماذجه التى حاكها هى أناكريون وإهوراس

لا ثيوقریطس أو كايماخوس الإسكندريان . وفي ١٥٤٨ التقى في فندق صغير بتورينيو واكيم دبلية Du Bellay . واثمر معه على توجيه الشعر الفرنسى صوب الكلاسيكية وضما إلى مشروعاتهما أربعة شعراء شبان آخرين هم : أنطوان دباييف . ورينى بيللو . وإتيين جوديل ، وبونتيس دتيار . ثم انضم إليهم أيضاً الأديب جان دورا الذى كان لساخراته عن الأدب اليونانى فى كايية فرنسا وكلية كوكيريه الفضل فى تأجيح حماسهم للشعراء اليونان الغنائيين . وأطلقوا على أنفسهم لقب البريجاد (اللواء) وأقسموا أن ينقلوا ربة الشعر الفرنسى من أيدي جان دمونج ورابليه الحشنة . ومن محور فيون ومارو الممككة . وكانوا يشمئزون من لغة جارجانتوا وبناتجرويل الصاخبة وحكمتها المسترة ، ولم يروا أى ضابط كلاسيكى فى تلك الأفعال والنموت المختلطة ولا فى تلك التدفقات البديئة ، ولم يجدوا فيها أى شعور بجمال شكل المرأة أو الطبيعة أو الفن . ولاحظ أحد أعدائهم من انتقاد أنهم سبعة شعراء ، فأطلق عليهم لقب « البلياد » . ولكن انتصارهم جعل من هذا اللقب نارا على علم .

فى ١٥٤٩ أذاع الشاعر دبلية البرنامج اللغوى لهذه الجماعة فى كتابه « دفاع عن اللغة الفرنسية وجلاء لها » . فأما الدفاع فقد قصد به أن فى الاستطاعة تمكين الفرنسية من التعبير عن كل ما عبرت عنه اللغات القديمة . وأما الجلاء فقصد به أن فى استطاعة الفرنسية أن تكتسب بريقاً جديداً . وأن تصقل ذاتها وتجلو نفسها بنهد الكلام الحشن الذى يسود التثر الفرنسى . والأغاني الشعبية . والقصائد القصيرة المتكررة اللازمات . والألوان القديمة من الشعر الفرنسى . وأن تجدد وتثرى ذاتها باقتباس العبارات ودراسة الأشكال الكلاسيكية . كما توجد فى أناكريون ونيوقراطيس وفرجيل وهوراس وبتراىك . ولا غرو فقد أصبح بتراىك فى نظر جماعة الشعراء السبعة كاتباً كلاسيكياً . وغدت السونيت أكمل الأنماط الأدبية قاطبة .

أما « بيير رونسار » فقد حقق في شعره تلك المثل التي أعرب عنها دبلييه في نثره الرائع . وهو سليل أسرة خلعت عليها النبالة مؤخرًا . فقد كان أبوه رئيس خدم فرانسوا الأول . وعاش بيير حقبة من حياته في البلاط الملكي الفخم . وكان تابعاً للدوفن فرانسوا . ثم لما دأب التي تزوجت جيمس الخامس ملك إسكتلنده . ثم مرافقاً للأمير الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الثاني . وكان يصحبو إلى المشاركة في المغامرات الحربية . ولكنه ابتلى بالصمم وهو بعد في السادسة عشرة . ومن ثم فقد أخذ سببه وجرّد عوضاً عنه قلمه . والتقى بشعر فرجيل صدفة . فرأى فيه إلا في الشكل واللفظ لاعهد لفرنسا به . وأخذ دوريه بيده فانتقل به من اللاتينية إلى اليونانية ، وعلمه قراءة أناكريون وأسخيلوس وبندار وأرسطوفان . وصاح به الفتى « سيدى ! لم أخفيت عنى هذه الكنوز طوال هذا الزمن ؟ » (٢٨) وحين بلغ الرابعة والعشرين التقى بالثائر دبلييه . ومن ذلك التاريخ ونح وقته باخلاص بين الأغاني والنساء والخمر .

وقد أكملت « قصائده الغنائية Odes » (١٥٥٠) هذه الثورة الغنائية . وكانت تقليداً صريحاً لهوراس . ولكنها أدخلت هذا اللون في الشعر الفرنسى ، ووقفت القصائد على قدميها سواء في نقاء اللغة أو جمال العبارة أو لإحكام الشكل . وبعد عامين اتخذ بترارك نموذجاً له في ١٨٣ قصيدة من السونيتات التي نشرها في ديوانه « غراميات » وبلغ فيها من الرشاقة والصقل ما لم يميزه أحد قط في الشعر الفرنسى . وكان يكتب ليتغنى الناس بشعره ، وقد لحن له قصائد كثيرة في حياته . بعضها لحنه كبار الموسيقيين أمثال جانكان وجوديميل . وكان في قصائده يغرى النساء اللاتي يتغزل فيهن بتلك الدعوة القديمة ، دعوة الاستمتاع بالحياة ما دام حسن مضيئاً ، ولكنه حتى في هذا الموضوع القديم راح يعزف نغمة أصيلة . كتبنيّه فتاة حذرة إلى أنها ستندم يوماً ما لأنها فوتت فرصة الغواية من

شاعر شهير مثله . يقول : « حين يتقدم بك العمر كثيراً . إذ تجلسين في المساء إلى المدفأة تتحدثين وتخيطين على ضوء شمعة ، ستشدين قصائدتي وتقولين في عجب : لقد أذاع رونسار اسمي يوم كنت جميلة . عندها إن يكون من بين خدمك الذين يسمعون بنياً كهذا - حتى ولو بعث طنين المناسج الزوم إلى أجناسهم - من لا يفريق وهو يسمع اسمي . ليباركك على ما حظيت به من مديح خالد . عندها سأكون راقداً تحت الثرى . شحاً بلا عظم . ثاوباً تحت الآس . وستكونين يومها عجوزاً قد احدودب ظهرها وهي جالسة إلى المدفأة ، وستأسفين على حبي وعلى ازدراكك الفخور . فاستمعي إلى وعيشتي الآن دون انتظار لغد . واقظي منذ اليوم ورود الحياة » .

وكانت عظمة الأساور تابق ببلاط كاترين دمديشي التي جلبت معها إلى فرنسا حاشية إيطالية حملت بترارك فيما حملت من كتب . وما لبث الشاعر الجديد - بشيته المتعالة برغم ما مسه من صدم . وبقوامه العسكري وشعر رأسه ولحيته الذهبي . ووجهه الشبيه بوجه هرمر كما وصفه براكسياتيليس - أن أصبح أثيراً لدى كاترين ، وهنري الثاني ، وماري ستيفارت . بل وإليزابيث ملكة إنجلترا التي أهدته خاتماً من الماس بوصفها ابنة خاله السابعة عشرة . ووجدت أسطورة البلياد اليونانية الرومانية ترحيباً . وحين تحدث الشعراء عن أوليمبوس قدر البلاط لهم هذه التحية . (٢٩) فهنري هو النظير لجوييتر ، وكاترين هي المقابل لجونو ، أما ديان فهنري ديانا ، وأكدت هذا التشابه التاميل التي نحتها المثال جوجون .

وبعد موت هنري واصل شارل التاسع مصادقة رونسار ، دون أن تسفر هذه الصداقة عن نتيجة طيبة . ذلك أن الملك الشاب كان يرغب أن ينظم له الشاعر ملحمة عن فرنسا تطاول ملحمة الإنيادة . وكتب الملك المغفل يقول : « أستطيع أن أعطي الموت ، أما أنت فتستطيع أن تعطي

الخلود (١٠) . » وبدأ رونسار نظم « الفرنسية » المنشودة . ولكنه ألقى ربة شعره أقصر نفساً من أن تجرى هذا الشوط الطويل . وما لبث أن أقلع عن المحاولة المزعومة . وعاد إلى غنائياته وحبه . وقضى أيامه في دعة وسلام حتى أدركته الشيخوخة وهو في مأمن من ضجيج الدنيا . محافظاً في السياسة والدين دون ما خطر . مكرماً من شباب الشعراء . محترماً من الجميع إلا من الموت . وقد وافته منيته في ١٥٨٥ ودفن في تور ، ولكن باريس منحت جنازة أولمبية مشى فيها كل أعيان العاصمة ليسمعوا أسقفاً يرتل « قصيدة جنازية » .

أما الشعراء الذين خلعوا عاه لقلب الإمارة فقد أصدروا كثيراً من دواوين الشعر . ولكنه شعر ميت برغم رفته . وكان أكثرهم كسبهم وثنين يعلنون كثافتهم المحافظة حين يروقههم إعلانها . ويختفرون الهيجونوت المتزمتين ، وكانوا أرسقراطيين كبرياء . ودما أحياناً ، وإن خوت جيوبهم ، يكتبون للدائرة من القراء أتيح لها من الفراغ ما يكفي للاستمتاع بالشكل . ورد رابليه على خصوصيتهم بالسخرية من حذلقهم ، ومن تقليدهم الوضع للبحور والعبارات والنوع اليونانية والرومانية . ومن ترديدهم التافه للموضوعات القديمة والأخيلة والمراثى البتراركية . وفي هذا الصراع بين المذهبين الطبيعي والكلاسيكي تقرر مصير الأدب الفرنسي . فأما شعراء فرنسا وكتاب مآسيها المسرحية فأثروا الطريق المستقيم الضيق ، طريق البناء الكامل والجمال المنحوت الدقيق . وأما كتاب النثر فقد استهدفوا إمتاع القراء بقوة مادتهم دون سواها . ومن ثم بات الشعر الفرنسي قبل عصر الثورة عصياً على الترجمة . فانت لا تستطيع تحطيم إناء الشكل ثم إعادة صبه في قالب أجنبي . على أن هذين النهين التقيا في فرنسا القرن التاسع عشر . وامتزج نصفنا الحقيقة . واقرن المضمون بالشكل ، وعقد اللواء للنثر الفرنسي .

٧ - وايات وصـرى

مر التأثير الإيطالى بفرنسا وبلغ إنجلتره ، لا فيضا دافقا بل نهراً ينطلق إلى البحر بمخارج كثيرة . فالعلم والدرس اللذان شغلا جيلا أهما الأدب فى الجيل التالى ، وأصبح وحى اليونان والرومان المقدس لإنجيل النهضة . فى عام ١٤٨٦ مثلت مسرحيات بلوتوس فى إيطاليا ، ثم انتقلت سريعاً إلى بلاطى فرانسوا الأول وهنرى الثامن المتنافسين . وفى عام ١٥٠٨ افتتحت مسرحية كالاندرى للكاتب بينا عهد الملهاة الكلاسيكية المكتوبة باللغة الوطنية فى إيطاليا . وفى عام ١٥٥٢ بدأت المأساة الكلاسيكية المكتوبة بالفرنسية فى فرنسا بمسرحية جوديل « كليوبطره أسيرة » ، وفى عام ١٥٥٣ أخرج نيكولاس أودال أول ملهاة إنجليزية ذات شكل كلاسيكى ، قال ناقد عنها « إن مسرحية رالف رويستر دويستر تشم فيها رائحة بلوتس » (٤١) . وهذا حق ، ولكنك تشم فيها أيضاً رائحة إنجلتره ، ورائحة هذه الفكاهة القوية التى كان شكسبير مزجها أن يقدمها للدهاء من رواد المسارح الإليزابيثية .

وتجلى التأثير الإيطالى فى أروع صورته فى الشعر إبان حكم أسرة تيودور . كان أسلوب العهد الوسيط لا يزال حياً فى بعض القصائد الشعبية الحميلة مثل « العذراء غير السمراء » (١٥٢١) ، ولكن حين انصرف الشعراء الذين أظلمهم الملك الشاب هنرى الثامن برعايته إلى قرض الشعر اتخذوا بترارك وأشعاره الغنائية « الكانزونييرى » مثلاً يحتذونه . وقبل ارتقاء إليزابيث العرش بسنة واحدة نشر رتشردتوتل ، أحد الطباعين اللندنيين ، كتاباً سماه « منوعات » كشفت فيه قصائد رجلين من رجال البلاط البارزين عن انتصار بترارك على تشوسر ، وانتصار الشكل الكلاسيكى على فيض خماسة العهد الوسيط . أما أول الرجلين ، وهو السر توماس وايات Wyatt فقد قام برحلات كثيرة إلى فرنسا وإيطاليا بوصفه دبلوماسياً

فى خدمة الملك ، وجاب معه بعض الإيطاليين ليعاونوه فى تهذيب أصحابه وتمدينهم . ولقد أحرق أصابعه بنار الحب كما يخلقى برجل بلاط أصيل يعيش فى عصر النهضة . وفى رواية أنه كان واحداً من عشاق آن بولين الأوائل ، وأنه سجن فترة قصيرة حين أرسلت إلى برج لندن (١٥٢٢) . وقد ترجم أثناء ذلك سونيتات بترارك . وكان أول من ضغط الشعر الإنجليزى فى تلك الصورة المحكمة .

فلما مات وايات بالحمى وهو يعد فى التاسعة والثلاثين (١٥٤٢) تلقى القيثارة من يده شاعر رومانسى آخر من بلاط هنرى يدعى هنرى هوارد (إيرل أف صرى Surrey) . وتغنى صرى فى شعره بمفاتن الربيع ، وأنحنى باللوم على الصبايا العازفات عن حبه ، وأقسم ليكون وفياً إلى الأبد لكل منهن بدورها . وقد ولع بالمغامرات الليلية فى لندن ، وقضى فى السجن فترة عقاباً له على تحديه غريباً فى مبارزة ، وقدم للمحاكمة جزاء أكله اللحم فى الصوم الكبير . وحطم بعض النوافذ بقوسه العابثة . وقبض عليه ثانية ، ثم أفرج عنه . وأبلى فى الحرب على أرض فرنسا بلاء حسناً دفاعاً عن وطنه لإنجلترا . ولما عاد راح يداعب فكرة ارتقاء العرش الإنجليزى على مسمع من الناس ، فحكم عليه بالشنق وانتزاع أحشائه وتقطيعه أرباعاً ، واكتفى من ذلك كله بضرب عنقه (١٥٤٧) .

كان الشعر ترفاً عارضاً وسط حياة صرى العينية . وقد ترجم بعض أجزاء من الإنيادة ، وأدخل الشعر المرسل فى الأدب الإنجليزى ، وخلع على السونيت الشكل الذى استخدمه شكسبير فيما بعد . وقد وجه إلى أحد شعراء الرومان أنشودة رعوية حزينة تتغنى بحياة الريف الريفية وما يشيع فيها من سلام وطمأنينة ، ربما حين توقع أن مسالك الحب الذى لا حق لصاحبه فيه قد تورده موارد الخوف . « أى مارتياى ، إليك الأشياء التى ألفتها مفضية إلى الحياة السعيدة : الزهد فى المال الذى لا يكسب بالعرف ،

والأرض المثمرة . والفكر الهادئ . والصديق الكفو لصديقه ، لا بغضاء ولا شحناء ، لا تغيير في السلطة ولا في الحكومة ، حياة سليمة خلّت من المرض ، وأسرة متصلة الأجيال ، وطعام بسيط لا ترف فيه ، وحكمة صادقة مقرونة بالبساطة ، وليل خلا من كل هم ، لا تستبد فيه الخمر بالعقل ، وزوجة وفية لا تلج في النقاش ، ونوم يزجي الليل ، ورضى بما مالكت يداك . لا تخشى الموت ولا تخاف صولته ».

٨ - هانز زاكس

في القرن الذي تلا مقالات لوثر تاه العقل الألماني في جدل المائة عام الذي مهد للحرب الثلاثين عاماً . وبعد عام ١٥٣٠ توقف نشر الكتب الكلاسيكية القديمة إلى حد كبير ، وقل عموماً عدد الكتب المنشورة ، وحل محلها سيل من الرسائل الجدلية . فراح راهب فرنسيسكاني اسمه توماس مورنر ذو قلم حاد يسوط الناس يمته ويسرة بسلسلة كتيبات عن الأوغاد أو الحمقى (طائفة الأوغاد ، مجمع الحمقى) . . . وكلها منقول بتوسع من كتاب برانت *Narrenschiff* سفينة الحمقى (*) . وكثير من الحمقى الذين هاجهم مورنر كانوا من رجال الكنيسة ، وفي البداية ظنّه الناس لوثرياً ، ولكنه أعلن أن لوثر « كلب صيد متوحش ، ومارق مجنون ، غبي ، مجدف » (١٣) . فوصله هنري الثامن بمائة جنية .

أما سبستيان فرانك فكان أنبل من صاحبه وأصفى معدناً . وكان كاهناً في أوجزبورج حين أقبات حركة الإصلاح البروتستنتي ، فرحب بها ثورة جريئة تمس إليها الحاجة ، وأصبح بعد ذلك قسا لوثرياً

(*) نقل الألكسندر باركل مثل هذا من برانت في كتابه « سفينة الحماقات » (١٥٠٩) مضيئاً إليه طعنات من عنده .

(١٥٢٥) • وبعد ثلاث سنوات تزوج من أوتيلي بهام ، وكان أخوتها من القائلين بتجديد العماد ، فعطف على هذه الطائفة المضطهدة ، وندد بالتعصب اللوثرى ، فطرد من ستراسبورج ، واحترف صناعة الصابون فى أولم ليكسب قوته : وسفر من نحكم النبلاء الألمان فى سلامة العقيدة ، فقال : « إذا مات أمير فأدخل خليفته مذهباً آخر ، أصبح هذا المذهب لتوا كلمة الله » (٤٤) • « تتسلط على جميع الناس اليوم غيرة بمجنونة ترعى أننا يجب أن نؤمن • . أن الله إلحنا وحدنا . وأنه لا جنة ولا إيمان ولا روح ولا مسيح إلا فى مذهبنا » . أما إيمانه فكان الالوهية للكونية التى لا توصد باباً • « إن قلبى ليس غريباً عن أى إنسان . فلى إخوة بين الترك والبابويين واليهود وجميع الشعوب » (٤٥) • . وكان يتوق إلى « مسيحية • • • حرة لامذهبية . . لا يقيدتها أى شىء خارجى ، حتى ولا الكتاب المقدس » (٤٦) . وأقصته أولم هى الأخرى إذ صامتها هذه المشاعر التى لا تليق بحيله . فعمل طباعاً فى بال . وهناك مات شريفاً برغم فقره (١٥٤٢) •

ثم انغمس الشعر والدراما الألمانى فى اللاهوت انغماساً أفقدهما صفة الفن وأحالتها بعض أسلحة القتال • وفى هذه الحرب استحل الكتاب كل جعجعة وجلافة وفحش فى القول . ولو أنك استثنيت الأغاني الشعبية والتراويل لما وجدت للشعر أثراً إلا فى وابل من طلاقات القوافى المسمومة . ولم تعد الجماهير تتذوق مسرحيات القرن الخامس عشر الدينية التى ينفق على إخراجها بسخاء ، فحلت محلها مهازل شعبية تهكم باوثر أو بالبابوات • على أن ألمانيا لم تعد بين الحين والحين رجلاً يطفو فوق هذا الحقد والعنف ليرى الحياة كلا متكاملًا • ولو أن هانز زاكس استمع إلى قضاة نورمبرج لظل صانع أحذية كما كان • ذلك أنه حين نشر تاريخاً منظوماً لبرج بابل دون أن يحصل على الإذن المدنى بطبعه ، صادروا الكتاب

وأكدوا لصاحبه أن الشعر ليس ميدانه ما فى ذلك ريب . وأمروه أن يلتزم قوالب أحدىته (٤٧) . ولكن هانز كان يتمتع ببعض الحقوق التى نالها بفضل مروءه بالمراحل العادية التى أهاته لأن يصبح رئيس فرقة المغنين . ولعل المفارقة التى تبدو لنا فى كونه حذاء وشاعراً تلتقى إذا لاحظنا أن نقابة الغزاليين والحداثيين التى انتمى إليها كانت تمارس بانتظام الغناء الكورالى ، وتعزف فى حفلات موسيقية عامة ثلاث مرات فى السنة . ولحمده النقابة . وفى أية مناسبة أخرى ، كان زاكس يكتب الأغاني والتمثيلات فى مثيرة وجد كأنه ياكوف فى فمه مسامير أحدىته .

وعليها ألا نحسبه شاعراً عظيماً ، فها هو إلا صوت عاقل مبتهج يعلو وسط قرون من الكراهية . وكان شغله الشاغل هم البسطاء من الناس لا العباقرة . وتمثيلياته كلها تقريباً تدور حول هؤلاء . بل إن الله نفسه يبدو فى هذه التمثيلات أحد العامة الخيرين ويتكلم كما يتكلم قسيس الباحية . وبينما راح معظم الكتاب يتبلون صحائفهم بالمرارة أو التبدل أو فحش القول . كان هانز يصور ويمجد فضائل المحبة والواجب والتقوى والوفاء الزوجى والحب الأبوى والبنوى . وقد بدأ بنشر قصائد (١٥١٦) . تستهدف «زيادة الثناء على الله والتحدث بمجده» و «مساعدة إخوانه على أن يحبوا حياة التوبة» (١٨) . وظلت هذه الروح الدينية تبعث الدفء فى كتبائاته إلى النهاية . وقد نظم نصف الكتاب المقدس ، مستخدماً نص الترجمة التى قام بها لوثر ، وحياء هانز ولقبه بـ «بلبل فتنبرج» الذى سينتق الدين ويرد الفضيلة . «استيقظوا ؛ استيقظوا ؛ فقد بزغ الفجر . وهأنذا أسمع فى الغابات أنشودة تتردد . إنه البابل العظيم تصدح موسيقاه فوق السهل والجبل . هاهو الليل يتلاشى فى الغرب ، والصبح يطلع من الشرق . والفجر يقبل فيطرده غيوم الليل المنصرم» (١٩) .

وأصبح زاكس الآن شاعراً ملحمياً لحركة الإصلاح البروتستنتى ،

وراح يندد بأخطاء الكاثوليك في إصرار ساخر . فكتب التيليات عن الأوغاد من الرهبان ، وأرجع قبيلتهم إلى الشيطان ، ونشر مسرحيات كاريكاتورية ساخرة وهزليات تعرض على سبيل المثال كاهناً يغوى فتاة أو يتلو القداس وهو مخمور . وفي ١٥٥٨ نشر «تاريخاً منظوماً للبابة جوانا» - وهي قصة خرافية تقبلها معظم الوعاظ البروتستانت على أنها تاريخ . ولكن هانز ندد باللوثريين أيضاً ، ورماهم بالتناقض الفاضح بين حياتهم وعقيدتهم . «لأنكم معشر اللوثريين جلبتم على الإنجيل أشد الاحتقار بسبب نهمكم للحم ، وضجيجكم الصاخب ، وذمكم للكهنة ، وشجاركم وسخريتكم وسبابكم وغير ذلك من مظاهر سلوككم الشائن (٥٠) .» وشارك الكثيرين في الحزن على ما شاب الحيل من جرى وراء الكسب وفساد في الخلق .

ونحن إذا استثنينا فكرة فاجنر المثالية ، وجدنا على الحملة أن هانز زاكس ربما كان الممثل للرجل الألماني الطيب برغم ما يشوبه من فجاجة وجلافة ، والذي لا بد كان أغلبية في الجنوب على الأقل . ونحن نراه سعيداً في بيته ، مترنماً بشعره طوال أربعين عاماً . ولما ماتت زوجته الأولى (١٥٦٠) تزوج وهو في الثامنة والستين من حسناء في ربيعها السابع والعشرين ، وظل ينعم بالحياة برغم هذه الحنة . ولا بد لنا من إنصاف عصر ومدينة مكنا حذاء من أن يصبح في ظللها أديباً إنسانياً . وشاعراً ، وموسيقياً ، وأن يقتنى مكتبة كبيرة ويستعملها . وأن يتعلم الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ، وأن ينظم ٦٠٠٠ قصيدة ، وأن يعيش متمتعاً بقسط لا بأس به من الصحة والسعادة حتى وافته المنية وقد بلغ الثانية والثمانين .

٩ - ربه الشعر الإيبيرية ١٥١٥ - ٥٥

كانت هذه فترة مفعمة بالنشاط والحياة في أدب البرتغال . ذلك أن حافز الاكتشاف المثير ، والبروة المنتشرة بفضل التوسع في التجارة ، والتأثير الإيطالي ، والأدباء الإنسانيين في كويمبرا ولشبونة . والرعاية التي بسطها بلاط مثقف - كل هذا تضافر لإحداث ازدهار سيبلغ ذروته في « لوزيادات » كاموينز (١٥٧٢) : ونشبت معركة مرحلة بين « المدرسة القديمة » ... مدرسة جل فيتشنتي الذي تعلق بالموضوعات والقوالب القومية ، ومدرسة أبناء القرن الخامس عشر (ويقابله عندنا السادس عشر) الذين اتبعوا صا دي مراندا في تحمسه للنماذج والأساليب الإيطالية والكلاسيكية . قد ظل جل فيتشنتي - وهو « شكسبير البرتغالي » - طوال أربعة وثلاثين عاماً مهيجاً على المسرح بمفصوله التمثيلية البسيطة . . . ورضى البلاط عنه . وتوقع منه إحياء كل حدث ملكي بمسرحية ، وحين دب الشقاق بين الملك والبابا . سمح لجل بأن يهجو البابوية في غير تخرج حتى قال الأندر بعد أن شاهد إحدى هذه التمثيلات في بروكسل « ظننني في قاب سكيونيا أستمع إلى أوثر » (١٥) . وكان هذا الكاتب المسرحي الخصب يكتب تارة بالإسبانية . وتارة بالبرتغالية . وتارة بكاتيهما ، متخللاً كتاباته بنقف من الإيطالية والفرنسية واللاتينية الكنسية والعامية الريفية . وكثيراً ما كان يقطع حركة المسرحية ... كشكسبير - بأشعار غنائية تتسلل إلى قلوب الشعب . وكان جل كشكسبير ممثلاً كما كان كاتب تمثيليات ومديراً للمسرح ومشرفاً على تنظيم مكان وزمان المشاهد المسرحية . وكان إلى ذلك من خيرة صاغة الذهب في جيله .

وفي ١٥٢٤ عاد فرانيسكو صا دي مراندا من إيطاليا بعد أن قضى فيها ست سنوات وجلب معه الحمى الكلاسيكية التي أوتت بها النهضة . وكما

فعل رونسار وجماعة البلياد في فرنسا ، وسبنسر وسدانى في إنجلترا . رأى مراند أن يضفى الكرامة والوقار على الأدب القومى بصوغ موضوعاته وبحوره وأسلوبه على غرار القوالب الكلاسيكية . وقد سلك بترارك في عداد الكلاسيكيين — شأنه في ذلك شأن يواكيم دبليله ... وقدم السونيت لمواطنيه . وكما فعل جوديل ، كتب مراندا أول مأساة كلاسيكية بلغته القومية (١٥٥٠) ، وكان من قبل (١٥٢٧) قد ألف أول ملهاة نثرية برتغالية ذات شكل كلاسيكى . أما صديقه برنارديم ربيرو فنظم شعراً ريفياً بأسلوب فرجيل ، وعاش مأساة على طريقة تاسو . فقد أثار بغرامه باحدى نساء البلاط ضحيجاً عالياً انتهى بنفيه من وطنه ، ثم عفى عنه ورضى عنه مليكه ، وأخيراً مات مجنوناً (١٥٥٢) .

وقد سجلت مدرسة من المؤرخين تلبض كتبهم بالحياة الانتصارات التى أحرزها المستكشفون . ومن هؤلاء المؤرخين كاسبار كورديا الذى ارتحل إلى الهند وارتقى فى السلم الوظيفى حتى أصبح أحد سكرتيرى ألبوكيرك ، وندد بفساد الموظفين الحكوميين ، ثم قتل فى مافا فى ١٥٦٥ . وقد ألف إبان هذه الحياة النشيطة ، فى خمسة مجلدات . كتاباً سماه « خلاصة موجزة » لفتح البرتغال للهند . مفعماً بالأوصاف البهية التى اتسم بها عصر التوسع هذا . أما فرناو لوبيس دى كاستانيدا فقد قضى نصف حياته فى الشرق ، وأنفق جهداً امتد عشرين عاماً فى كتابة « تاريخ لكشف البرتغال وفتحها للهند » . أما جواو دى بارس فقد شغل عدة وظائف إدارية فى « بيت الهند » بلشبونه على مدى أربعين عاماً ، وأخجل سلفه بزهد فى جمع المال . وكانت المحفوظات والسجلات جميعها فى متناوله ، فألف بينها فى تاريخ اكتفى بتسميته « آسيا » ولكن الكتاب اكتسب اسماً آخر هو « العقود » لأن ثلاثة من مجلداته الأربعة الضخمة تناول كل منها فترة عشر سنوات تقريباً . والكتاب فى ترتيبه ودقه

ووضوحه بثبت للمقارنة بأى مؤلف تاريخى معاصر له باستثناء أعمال مكيافللى وجويتشاردينى . ولو أخذ رأى أمته الفخورة لأنكرت هذين الاستثنائين ، فقد خلعت على باروس لقب « لىئى البرتغالى » .

كانت اللغة القشتالية قد أصبحت اللغة الأدبية لأسبانيا . وعاشت اللهجات الحليقية والبانسية والكتلونية والأندلسية فى الحديث الدارج ، وأصبحت اللهجة الحليقية اللغة البرتغالية ، ولكن استخدام القشتالية لغة للدولة والكنيسة أيام فرديناند وإيزابيلا وكسيمينيس ارتفع بهذه اللهجة إلى مقام لا يضارع . ومنذ ذلك العهد إلى يومنا هذا كان رنيها القوى الأداة المعبرة عن أدب أسبانيا . وقد أبدى بعض كتاب هذا العصر ولعاً باللغة . فضرب أنطونيو دى جيفارا المثل فى البحوث اللغوية واخسنات البلاغية . وقد أعانت ترجمة اللورد بيرنرز لكتاب جيفارا « مزاولة الأمراء » (١٥٢٩) على صياغة ذلك التألق اللفظى الذى يتسم به كتاب جون لابل *Euphuus* واللعب السخيف بالألفاظ الذى نلاحظه فى كوميديات شكسبير الأولى .

وتغنى الأدب الأسبانى بالدين والحب والحرب . وبلغ الولع بروايات القروسية ، بلغاً حمل مجاس النواب الأسبانى فى ١٥٥٥ على أن يوصى بحظرها قانوناً . وقد صدر هذا المرسوم فعلاً فى أمريكا الإسبانية ، ولو أنه نفذ فى أسبانيا لكان من الجائز أن نحرم من دون كخوته . ومن بين الروايات التى أبى عليها الكاهن أثناء تنقيته لمكتبة « الفارس » رواية ألفها جورجى دى مونتيمايور تدعى *Dian enamorata* (١٥٤٢) ، وهى تقليد لرواية « أركاديا » التى كتبها الشاعر الأسبانى الإيطالى سانازارو (١٥٠٤) ، وقد قلدها هى الأخرى السرفليب سدنى فى قصة أركاديا (١٥٩٠) . ورواية مونتيمايور الثرية الشعرية مثال من مثات الأمثلة على تغلغل النفوذ الإيطالى فى الأدب الأسبانى . وهنا أيضاً نرى المغلوب

وقد غلب غالبية . وترجم جوان بوسكان « Cortigiano » لكاستايوني
نثراً لا يقل روعة عن الأصل ، ووافق على اقتراح الشاعر البندقي
نافاجيرو بتعميم شكل السونيت في أسبانيا .

وللتو تقريباً ارتقى صديقه جاركيلازو دى لافيغا بالسونيت إلى مرتبة
الكمال في اللغة القشتالية . وكان ككثيرين من شباب هذه الفترة الأسبان
سليل أسرة عريقة ، إذ أن أباه كان سفيراً لفرديناند وإيزابلا في روما .
لقد ولد جاركيلازو بطليطلة عام ١٥٠٣ ، ونذر للجنديّة منذ صباه .
وفي ١٥٣٢ أبلى أحسن البلاء في رد الترك عن فينا ، وفي ١٥٣٥
جرح مرتين جراحاً خطيرة في حصار تونس ، وبعد ذلك بشهور شارك
في حملة شارل الخامس الفاشلة على بروفانس . وفي فريجي تطوع بأن يقود
هجوماً على قلعة تعرقل تقدم الجيش ، وكان أول المتسلقين لسور القلعة .
فتلقى ضربة على رأسه قضت عليه بعد أيام وهو في الثالثة والثلاثين . وفي
إحدى قصائده السبعة والثلاثين التي تركها لصديقه بوسكان تسمع نغمة
تتردد في كل الحروب : يقول « والآن أصابت اللعنة أشد ما أصابت
جيلنا هذا ، وكل ما مضى يتغير من سبيء إلى أسوء . وأحسن كل منا
وطأة الحرب — حرب تتلوها حرب ، ونفى وأخطار ورعب . وننأ
سئم في صميم نفسه من رؤية دمه مراقباً على رمح وهو حي لأن الرمح
لم يصب هدفه . وقد فقد بعض القوم بضاعتهم وكل متاعهم . وذهب
كل شيء ، حتى اسم المنزل والأسرة والزوجة والذكرى . وما جدوى
هذا كله ؟ أبعض الشهرة ؟ أم شكران الأمة ؟ أم مكان في التاريخ ؟
سيكتبون يوماً كتاباً ، وعندها سنرى » (٥٢) :

ولم يعيش ليره ، ولكن مئات الكتب خلدت ذكره في إعزاز
كبير . وسجل المؤرخون موته باعتباره أحد أحداث عصره الكبرى .
وطبعت أشعاره في مجلدات سهلة التداول حملها الجنود الأسبان في جيوبهم

إلى عديد من الأقطار . ولحن الموسيقيون الأسبان شعره قصائد غنائية .
وأحال كتاب المسرحيات حوار قصائده الرعوية تمثيلات .

أما المسرحية الأسبانية فتوقفت عن الحركة . ولم تدر أنها عما قليل
ستكون قريباً للمسرحية الإليزابيثية . وكانت الملهاة ذات الفصل الواحد ،
والهزليات الناقدة ، والفصول المأخوذة من الروايات الشعبية . يمثلها
الممثلون الجوالون في الميادين العامة أو في أفنية الفنادق الصغيرة . وأحياناً
في متمر أمير أو بلاط ملك . وقد حقق لوبي دي رويدا . الذي خلف جل
فيتشاني باعتباره أهم مورد للفصول التمثيلية لهذه الفرق . لنفسه الشهرة .
وأنعطانا لفظاً جديداً . بمهرجيه (البوبو) .

وكثير عدد المؤرخين . وعين شارل الخامس جونزالو فرنانديز دي
أوفيدو مؤرخاً رسمياً للعالم الجديد . وأنجز عملاً متوسط الجودة هو تأليف
كتاب ضخيم سيء الترتيب سماه « التاريخ العام والطبيعي لجزر الهند
الغربية » (١٥٣٥) . وقد أثرى خلال الأعوام الأربعين التي قضاه في أمريكا
اللاتينية بفضل التنقيب عن الذهب . وسماه كتاب « قصة خراب جزر
الهند » (١٥٣٩ وما بعدها) الذي فصح فيه بارتلمى دلاس كازاس الاستغلال
القاسي للعمال الوطنيين المستعبدين في المناجم الأمريكية . وكان لاس كازاس
قد أبحر مع كولمبوس في ١٥٠٢ . وأصبح أسقفاً لكيايا بالمكسيك . وكرس
حياته كلها تقريباً للدفاع عن قضية الهنود الحمر . وقد وصف في « مذكراته »
التي وجهها للحكومة الإسبانية السرعة التي يموت بها الوطنيون في ظروف
العمل الشاقة التي فرضها عليهم المستعمرون . فقال إن الهنود لم يألفوا غير
العمل الخفيف بسبب حرارة مناخهم وبساطة طعامهم . ولم يستخرجوا
الذهب من مناجمهم بل قنعوا بأخذ من سطح الأرض أو من قيعان

الجداول الضحلة ، ولم يستعملوه إلا حلية . وقد قدر لاس كازاس أن السكان الوطنيين لجزر الهند تناقصوا من ١٢:٠٠٠.٠٠٠ (وهو رقم مغالى فيه ولا ريب) إلى ١٤:٠٠٠ فى ثمانية وثلاثين عاماً^(٥٢) . وانضم المرسلون الدومنيكان والجزويت إلى لاس كازاس فى الاحتجاج على هذا الرق الهندى^(٥٣) ، وكانت إيزابالا لا تفتأ تندد به^(٥٤) . ووضع فرديناند وكسيمينيس شروطاً رحيمة بعض الشيء لتجنيد العمال الهنود^(٥٥) . ولكن تعليمات هؤلاء السادة بشأن معاملة الوطنيين كانت تلقى الإهمال فى أغلب الأحيان أثناء استغراقهم الشديد فى شئون السياسة الأوربية .

وقام جادل صغير حول فتح المكسيك ، ذلك أن فرانشيسكو لويز دجومارا كتب يروى قصة هذا السطو الظالم فى انغياز شديد لكورتيز . واحتج برنال دياز ديل كاستيللو على الرواية بأن ألف فى ١٥٦٨ « التاريخ الحقيقى لفتح إسبانيا الجديدة » وفيه دان كورتيز على اختصاصه نفسه بكل مفاخر الفتح ومكاسبه دون أن يترك إلا أقل القليل للجنود البواسل من أمثال برنال ، هذا مع ثنائه على كورتيز بما يستحقه ، والكتاب يستهوى القارئ لأنه يزخر بشهوة الحركة وبهجة الانتصار والدهشة البريئة مما كانت ترفل فيه مكسيك الأراتكة من ثراء وترف . يقول « حين شاهدت ما أحاط بى من مناظر قلت انفسى هذه حنة الدنيا . ثم يضيف « وهذا كله دمر »^(٥٦) .

وقد نسبت أنضج المؤلفات فى تاريخ إسبانيا . وأظهر رواية إسبانية كتبت فى هذه الفترة ، إلى كاتب واحد . اسمه ديجو أورتادو دى مندوزا ولد بغرناطة بعد أن فتحها فرديناند بنحو أحد عشر عاماً . وكان أبوه قد ظفر بالجد الحسن بلائه فى حصارها . فعين حاكماً للعاصمة بعد سقوطها . وتلقى الفتى علومه فى سلمنقة ، وبولونيا . وبادوا . فحصل ثقافة عريضة فى اللاتينية واليونانية والعربية . وفى الفلسفة والقانون . وراح

يجمع النصوص الكلاسيكية بحماسة أمير من أمراء النهضة ، وحين أراد سليمان القانوني أن يحدد المكافأة التي يختارها جزاء خدمات معينة أداها للباب العالي ، لم يطلب سوى بعض المخطوطات اليونانية . وقد حظي بمكانة مرموقة خلال خدمته الدبلوماسية لشارل الخامس في البندقية وروما ومجمع ترنت ، ولما ونحه البابا بولس الثالث على حمالة رسالة جافة من شارل إلى البابا . أجاب بكل كبرياء النبل الأسباني : « إنني فارس . وكان أبي فارساً قبلي ، وبهذا الوصف أرى أن واجبي يقتضي أن أصدع بأوامر سيدي الملك ، دون أن يساورني أي خوف من قداستكم ، ما دمت أراعي واجب التبرجيل لنائب المسيح . إنني خادم للملك أسبانيا . وما دمت مثلاً له فأنا في مأمن حتى من سخط قداستكم » (٥٨) .

وتتشكك الأبحاث الحديثة في صحة نسبة أول رواية بطلها متشرد (Picaresque) في الأدب الأوربي لماندوزا . واسم الرواية « حياة ومغامرات لازاريللو دي تورميس » . ومع أنها لم تطبع إلا عام ١٥٥٣ فالراجح أنها كتبت قبل ذلك بأعوام كثيرة . ومما يثير الغرابة أن سليلاً للأسرة لا تفوقها في النبالة إلا الأسرة المالكة يختار لصاً ليكون بطلاً ناقصة ، وأشد غرابة أن رجلاً ربي في صباه ليكون قسيساً يهجو رجال الدين هجوا لاذعاً خمل محكمة التفتيش على حظر أي طبعات جديدة من الكتاب قبل تنقيته من جميع الشوائب المؤذية (٥٩) . ولazarillo (٦٠) هذا صبي متشرد يتعلم حيل السرقات الصغيرة أثناء اشتغاله قائداً لمتسول مكفوف ، ثم يرتقى إلى جرائم أكبر حين يعمل خادماً لكاهن ، ثم لراهب ، ثم لقسيس كنيسة خاصة ، ثم لناظر زراعة . ثم لبائع متجول لصكوك

(٦٠) ومعناها « لمازر الصغير » ، إشارة إلى اعزاز المسكين الوارد في الإنجيل لوقا ١٦ : « ثم أصبح متسولاً صغيراً » ثم صبياً يتقود شحاذاً أعمى .

الغفران . ولكن حتى هذا اللص الشاب . المتمرس بشئون هذه الدنيا .
تروعه بعض الغرائب التي لحا إليها بائع صكوك الغفران المتجول ترويحاً
لبضاعته . يقول « يجب أن أعترف أنني - ككثيرين غيري - كنت
مخدوعاً وقتها فحسبت سيدي آية في القداسة » (٦٠) . وقد أدخلت هذه
الرواية المرححة « أسلوب المتشرد » *gusto picaresco* في انتمصص .
وابتعثت عدداً لا يحصى من الروايات المقلدة لها . والتي بلغت الذروة
في أشهر قصص التشرد . ، وهي جيل بلا (١٧١٥ - ٣٥) لمؤلفينا
ألين لساج Lesage .

واعتكف مندوزا في غرناطة بعد أن نفي من بلاط فيليب الثاني لأنه
جرد سيفه في جدل بينه وبين غريم . وهناك نظم أشعاراً خفيفة فيها من
التحرر ما حال دون طبعها وهو حي . ثم روى قصة ثورة المغاربة في
١٥٦٨ - ٧٠ في « تاريخ حرب غرناطة » في نزاهة وإنصاف للمعاربة
حسباً هذا الكتاب أيضاً عن النشر . فلم يتيسر طبعه إلا في ١٦١٠ .
ولم يطبع منه وقتها غير جزء واحد . واتخذ مندوزا من صالوست مثلاً
يحتذيه ولكنه تفوق عليه ، وسرق من ناسيتوس موضوعاً أو اثنين .
ولكن يمكن القول على الحملة ان كتابه كان أول مؤلف أسباني تحاوز
مجرد السرد الإخباري أو الدعاية إلى التاريخ الواقعي المفسر بادراك فاسفي .
والمعروض بمهارة أدبية . ومات مندوزا عام ١٥٧٥ وهو في الثانية
والسبعين . وكان من أكثر الشخصيات تكاملاً في عصر حفل بالرجال
المتكاملين .

في هذه الصفحات العجلى يدخل الضمير دائماً في سياق مع الزمن .
وينبه القلم المستعجل إلى أنه . كالمسافر السريع . إنما يمس السطح فقط .
فكم من ناشرين ومعلمين وعلماء وأدباء ورعاة العلم وشعراء وروائيين
وثوار متهورين جاهدوا نصف قرن لينتجوا هذا الأدب الذي ضغفناه

في هذه الصفحات . كم من روائع أغفلنا اسمها ، وأمم ضربنا صفحاً
عن ذكرها . وأشخاص كانوا يوماً في عداد العباقره الخالدين أهملناهم
إلا من كلمات معدودات ! ولكن لا حيلة لنا في هذا . فالمداد ينضب ،
ويجب قبل نضوبه أن نقنع بما يسفر عنه رشاشه وخطوطه من صورة
غائمة لرجال ونساء يتخففون برهة من عناء اللاهوت والحرب . ويحبون
أشكال الجمال كما يحبون سراب الحقيقة والقوة ، يبنون الألفاظ وينحتونها
ويصورونها - إلى أن يجد الفكر فنا يكسوه ، وتمتزج الحكمة بالموسيقى .
وينهض الأدب ليتيح لأمة أن تتكلم ، ولعصر أن يصب روحه في قالب
شكّل في شغف كبير ليصونه الزمن نفسه وينقله خلال مئات السكوارث
تراثاً للبشرية :

الفصل السادس والثلاثون

الفن في عصر هولبين

١٥١٧ - ٦٤

١ - الفن ، والإصلاح البروتستانتي ، والنهضة

لقد فرض على الفن أن يقاسى من جراء حركة الإصلاح البروتستانتي ، ولو لمجرد إيمان البروتستانتية بالوصايا العشر . ألم يقل الرب الإله . « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض » (خروج ٢٠ - ٤) فإني للفن التصويري أن يعيش بعد هذا التحريم الشامل ؟ فاما اليهود فقد صدعوا بالأمر وأغفلوا الفن . وأما المسلمون فكادوا يغفلونه . واكتفوا بجعل فنهم فناً زخرفياً ، تجريدياً إلى حد كبير . يمثل في أغلبه الأشياء ، وقل أن يمثل الأشخاص . ولا يمثل الله أبداً . واتبعت البروتستانتية هذا الخط السامى بعد أن كشف العهد القديم من جديد ، وأما الكاثوليكية التي طغى ترانها اليوناني الروماني على أصلها اليهودي فقد تجاهلت هذا التحريم المرة بعد المرة . وشكل النحت القوطي القديسين والآلهة من الحجر ، وصور الرسم الإيطالي قصة الكتاب المقدس ، ونسيت النهضة كل النسيان هذه الوصية الثانية وسط ازدهار الفن التصويري ازدهاراً رائعاً : فلعل هذا الحظر القديم قصد به تحريم التصوير لأغراض السحر ، وكان لرعاة الفن في إيطاليا النهضة من الفطنة وسلامة الإدراك ما جعلهم يضربون صفحاً عن تحريم بدائي لم يعد له الآن معنى .

وكانت الكنيسة ، وهى أعظم رعاة الفن قاطبة ، قد استخدمت
الفنون لتنشئ غير المتعلمين على عقائد الإيمان وأساطيره . وبدا هذا
الاستخدام أمراً معقولاً فى نظر رجل الدولة الكنسى ، الذى شعر بأن
الأساطير ضرورة لا غنى عنها للأخلاق. ولكن حين احتالت الكنيسة
بأساطير - كأسطورة المطهر - لتجمع المال الذى تنفقه فى مختلف وجوه
الإسراف والفساد ، تمرد المصلحون - ولهم العذر - على التصوير والنحت
الذين يثبتان الأساطير فى عقول الناس . وفى هذا الأمر كان لوثر معتدلاً ،
حتى إذا اضطره الأمر لمراجعة الوصايا . «أنا لا أزعم أن على الإنجيل
أن يدمر كل الفنون كما يعتقد بعض المؤمنين بالخرافات . فانا على العكس أتمنى
أن أرى جميع الفنون . . . تخدمه تعالى وهو الذى خلقها ووهبنا إياها.
إن ناموس موسى لم يحرم سوى تمثال الله» (١) . وفى عام ١٥٢٦ دعا
أتباعه إلى «مهاجمة» . . . الوثنيين الذين يعبدون عدو المسيح (بابا روما)
بالتصوير» (٢) : وحتى كالفن ، الذى كان أتباعه أشد محطى الأصنام
حماسة ، وافق على التماثيل موافقة محدودة فقال : «لست شديد التزم
بحيث أحكم بتحريم كل التماثيل . . . ولكن بما أن فن التصوير والنحت
. . . آت من الخالق ، فأنى أريد أن تصان ممارسة الفن نقية مشروعة ؟
لذلك يجب ألا يرسم أو ينحت شيء إلا ما يرى بالعين» (٣) . ولكن
المصلحين الأقل إنسانية من لوثر ، والأقل حذراً من كالفن ، آثروا
تحريم التصوير والنحت الدينيين بتاتاً ، وتجريد كنائسهم من الزخارف
إطلاقاً . وأقصى «الصدق» الجمال لأنه كافر . أما فى إنجلترا واسكتلندة
وسويسرة وشمالى ألمانيا فكان التدمير بالحملة وبلا تمييز . وأما فى فرنسا
فقد صهر الهيجونوت أوعية الذخائر والنفائس الدينية وغيرها من الآنية
التي عثروا عليها فى الكنائس التي وقعت فى أيديهم : وعلينا أن نتصور
غيرة رجال خاطروا بحياتهم ليصلحوا الدين قبل أن نستطيع فهم سورة

الغضب التي دمرت في لحظات الانتصار تلك التماثيل التي عاوت على إخضاعهم . لقد كان التخريب وحشياً وهمجياً . ولكن الذنب فيه يجب أن يلقى على تلك المؤسسة التي ظلت قروناً تضع العقبات في طريق إصلاح ذاتها :

وانتهت حياة الفن القوطى في هذه الفترة . ولكن حركة الإصلاح البروتستنتى لم تكن سوى سبب واحد من أسباب موته . صحيح أن الانتقال على الكنيسة الوسيطة رافقه زهد في طرز العمارة والزخرفة التي طالما اقترنت بهذه الكنيسة . بيد أن الفن القوطى كان يختصر حتى قبل أن يتكلم لوثر . كان يشكو في فرنسا الكاثوليكية شكواه في ألمانيا وإنجلترا المتمردين . لقد احترق في وهج ناره . وكانت النهضة كما كانت حركة الإصلاح البروتستنتى كارثة عليه . ذلك أن النهضة أقبات من إيطاليا التي لم تحب الفن القوطى قط . والتي بنزت منه حتى وهي تقتبسه . وقد انتشرت النهضة أكثر ما انتشرت بين المتعلمين الذين لم يستطيع تشككهم المذهب أن يتفهم ذلك الإيمان المشبوب . إيمان الحروب الصليبية وعهد القوط . وإذ تقدمت حركة الإصلاح البروتستنتى . أصاب الكنيسة ذاتها ، التي وجدت في العمارة القوطية التعبير الفنى الأسى لها . فتمر شديد من جراء فقدها بريطانيا وألمانيا واسكندناوه ، ومن جراء الغارات التي شنها الملوك الكاثوليك على دخلها بحيث لم تقو على تمويل الفن بالسخاء الذى مولته به من قبل ، أو على تقرير الذوق والطرز الفنى . وراحت النهضة — تلك الحركة ذات التأثير الدينى والوثنى — تؤكد يوماً بعد يوم ميولها ونزعاتها الكلاسيكية التي تغلبت على التمايل المتأدسة : تتأيد الإيمان والشكل الوسيطين . وتخطى الناس — في غير تقوى — قروناً من التقوى والخوف ليستعيدوا من جديد مشاعر العمر القديم الشبوبة . مشاعر حب العالم وحب المدة . وأعلنت الحرب على الفن القوطى بوصفه

فن الهمج الذين دمروا الإمبراطورية ، وعاد إلى الحياة الرومان المغلوبون ، فبنوا معابدهم من جديد ، وأخرجوا من ظلام الإهمال تماثيل آلهتهم ، وأمروا إيطاليا أولا ، ثم فرنسا وانجلترا ، أن تستأنف ذلك الفن الذى تجسد فيه مجد اليونان وعظمة الرومان . وهكذا هزمت النهضة الفن القوطى ، أما فى فرنسا فقد هزمت الإصلاح البروتستانتى .

(٢) فن النهضة الفرنسية

١ — مرض البناء

خاض الفن القوطى معركة فى المعمار الكنسى الفرنسى ليمد فى أوجها حيناً ، ونجح فى معركته : فأضافت بعض الكاتدرائيات القديمة عناصر جديدة كانت بالضرورة قوطية ، وهكذا أكملت كنيسة القديس بطرس بمدينة كان خورسها الشهير ، وبنيت كنيسة بوفيه جناحها الجنوبي ، وبذل الفن القوطى جهداً مختصراً تقريباً حين شيد جان فاست فوق معبد هذا الجناح برجاً ارتفع ٥٠٠ قدم (١٥٥٣) . فلما انهارت هذه الجراة الشاهقة فى عيد الصعود عام ١٥٧٣ وسقط البرج فوق الخورس المتهدم ، كانت الكارثة رمزاً لخاتمة أنبل الطرز فى تاريخ العمارة .

وارتفعت فى هذه الفترة مفاخر قوطية أقل من هذه شأنها فى بونتواز وكوتانس وأكثر من عشر مدن فرنسية أخرى . وفى باريس التى تكشف كل نظرة إليها عن معجزة من معجزات ماض مؤمن ، بنيت كنيسة سان قوطيتان جميلتان : سانت إيتين دمون (١٤٩٢ — ١٦٢٦) ، وسانت أوستاش (١٥٣٢ — ١٦٥٤) . غير أن ملامح النهضة تسالت إليهما : كالحجاب الحجرى الفخم الذى يستدير فوق الخورس فى كنيسة سانت إيتين ، والعمد المركبة والتيجان شبه الكورنثية فى سانت أوستاش . كان حاول عمارة النهضة اللادينية محل العمارة القوطية الكنسية انعكاساً

لذوق فرانسوا الأول ، ولاتكاء النزعة الإنسانية على اللذة الدنيوية دون المرجاء السماوى . وانصرفت الآن كل ثمرات الازدهار الاقتصادى ، والرعاية الارستقراطية ، ونزعة اللذة الوثنية^(١) — هذه كلها التى غدت من قبل نيران الفن فى إيطاليا النهضة ، انصرفت إلى تغذية الجهود المخلصة التى بذلها المعماريون والرسامون والنحاتون والخزافون والصائغون فى فرنسا . واستقدم الفنانون الإيطاليون إلى فرنسا ليتمزجوا بين مهاراتهم وعناصرهم الزخرفية وبين ما تخلف من الأشكال القوطية . وتضافرت روعة التصميم الإيطالى ، وواقعية التصوير الفلمنكى ، وذوق الارستقراطية الفرنسية وجمالها الخنثوى ، لتنتج فى فرنسز فنداً تحدى تفوق الفن الإيطالى وورث هذا التفوق . ولم يقتصر هذا الفن على باريس وحدها ، بل جاوزها إلى فونتينبلو ، ومولان ، وتور ، وبورج ، وأنجييه ، وليون ، وديجون . وأفنيون ، وإكس أن بروفانس .

وكان على رأس الحركة ملك أحب الفن حب المقيم المتحمس ولكن فى فهم وتميز . وتركت روح فرانسوا الأول الخلية المشرقة طابعها على المعمار خلال حكمه . وكان يقول لفنانيه المرأة الجراة ! «^(٢)» ويتركهم لي تجربوا بطريقة لم تسمح بها حتى إيطاليا من قبل . وقد تبين براعة الفنانين الفلمنك فى تصوير الأشخاص . فاحتفظ نعان كلويه رساماً لبلاطه ، وطلب إلى جوس فان كليف أن يرسم صوراً له ولحاسيته . ولكن إيطاليا كانت ملهمته فى جميع فنون الصقل والزخرفة . فقد زار ميلان وبافيا وبولونيا وغيرها من المدن الإيطالية عقب انتصاره فى مارنيانو (١٥١٥) ، وراح يدرس فى حسد عمارة هذه المدن ورسومها وفنونها الصغيرة : وقد نقل تشليبنى عنه قوله : «أذكر جيداً أننى فحصت خيرة الأعمال الفنية التى أبدعها عظم الفنانين فى إيطاليا كلها»^(٣) . ولعل هذه المبالغة أن تكون من صنع تشليبنى المتحمس . على أن

فازارى يلاحظ فى مواضع كثيرة شراء فرانسوا الأول للآثار الفنية الإيطالية بواسطة سملاء له فى روما وفلورنسة والبندقية وميلان . وبفضل هذه الجهود استطاعت « موناليزا » ليوناردو ، و « ليدا » ميكيلانجلو ، و « فينوس برونزينو وكوبيده » ، و « مجدية » تيشان (تزيانو) ، ومئات الزهريات والمداليات والرسوم الصغيرة والصور الزيتية وقطع النسيج المرسومة استطاعت هذه كلها أن تعبر جبال الألب لتستقر آخر المطاف فى اللوفر .

ولو كان الأمر بيد هذا الملك المتحمس لاستقدم نوابغ الفنانين الإيطاليين جميعاً . وكان هذا يقضى إغراءهم باغداق المال عليهم : قال لتشالينى واعدأ « سأتحملك ذهباً » وجاءه بنفينوتو ومكث فترات متقطعة (١٥٤١ - ٤٥) ، كانت كافية لإرساء قدم الصياغة الفرنسية فى تقايد من التصميمات البديعة والأساليب الفنية الرائعة . وكان دومنيكو برنابى « بوكادورو » قد وفد على فرنسا أيام شارل الثامن ، فوكل إليه فرانسوا الأول رسم « أوتيل دفيل » جديد لباريس (١٥٣٢) . وقد استغرق إنجازه قرابة قرن ، وأحرقه كومون ١٨٧١ ، فبنى من جديد وفق التصميم الذى وضعه بوكادورو . وأقبل ليوناردو فى شيخوخته (١٥١٦) ، وقدمت إليه دنيا الفن والنبالة الفرنسية فروض العبادة ، ولكننا لا نعرف له أثراً أبدعته يده فى فرنسا . وجاء أندريا ديل سارتو (١٥١٨) ، ولكنه سرعان ما هرب . وأغرى جوفانى باتيستا « إلروسو » بالرحيل عن فلورنسة (١٥٣٠) فأقام بفرنسا حتى مات منتحراً . وتلقى جوليو رومانو دعوات عاجلة ، ولكن مانتوا كنات تفتنه بسحرها ؛ على أنه أوفد مساعده الثابغة فرانيسكو بريماتيشيو (١٥٣٢) ، وجاء فرانشسكو بلجرينو ، وكذلك جاكومو دا فنيولا ، ونيكولو دللاباتى . وسبستيانو سريلى ، وربما كثيرون غيرهم ، وشجع الفنانون الفرنسيون فى الوقت ذاته على الذهاب إلى إيطاليا ودراسة قصور فلورنسه وفرارا وميلان وكنيسة القديس

بطرس الجارى تشييدها فى روما . ولم يحدث مثل هذا النقل الفنى للدم الثقافى منذ أن غزا الفن والفكر اليونانيان روما القديمة .

وساء الفنانين الوطنيين والفلمنكيين هذا الإغواء الإيطالى . وسجل تاريخ العمارة الفرنسية احتدام معركة ملكية طوال نصف قرن (١٤٩٨ - ١٥٤٥) بين طراز قوطى تأصلت جذوره فى التربة الفرنسية وسط حب الناس له وتعلقهم به ، وبين البدع الإيطالية المتسللة إلى فرنسا فى أذبال الفاتحين المغلوبين . وتجلى الصراع فى الحجر فى قصور اللوار ، ففيها ظل الفن القوطى صاحب الكلمة العليا ، وسيطر مهرة البنائين الغالبين على تصميم البناء : قلعة إقطاعية يحيط بها خندق يحميها ، وأبراج أشبه بالحصون تعلو فى الأركان فى سمت عمودى جليل ، ونوافذ فسيحة ذات عمد لتغرى الشمس بالدخول ، وأسطح مائلة تنزلق من فوقها الثلوج ، ورواشن نائمة من السقوف كأنها المونوكلات . على أنه سمح للغزاة الإيطاليين بخفض الباكية المدببة لتعود إلى شكلها المستدير القديم ، وينتظم الواجحات فى صفوف من النوافذ المستطيلة المدعمة بالعمد والمتوجة بالقواصر . وزخرفة الداخل بزخارف كلاسيكية من الأعمدة والتيجان والأفاريز والقوالب والحليات المدورة والنقوش الغريبة والحليات القرنية المنحوتة المشثلة للنبات والزهر والفاكهة والحيوان وصدور الأباطرة والآلهة الأسطورية . كان الطرازان القوطى والكلاسيكى من الناحية النظرية متناقضين ، ولكن مزج الفرنسيين بينهما فى هذا الجمال المتسق بفضل التمييز والذوق الفرنسيين أعان على جعل فرنسا يونان العالم الحديث .

وتسلطت على فرنسا ، أو قل على فرانسوا « حى البناء » كما سماها قائد أخذ منه العجب كل مأخذ (٦) . فأضاف إلى قصر بلوا القديم (١٥١٥ - ١٩) للملكة كلود جناحاً شاملياً كان مهندس المعماري فرنسا يدعى جاك سوردو ، ولكن الطراز الذى بناه به كان طراز النهضة

بعينه . وإذ رأى سوردو من غير المناسب أن يبني سلماً داخل الجناح المضاف فقد صمم رائعة من روائع العصر المعمارية - وهي بيت للسلم حلزوني خارجي يرقى في برج مئمن ، بثلاثة طوابق ، إلى هو معمد أنيق يبرز من السطح ، وكل طابق يحليه زخرف فاخر من شرفة منحوتة .

وبعد أن ماتت مليكتة المهرقة ، وجه فرانسوا شغفه بالمعمار إلى شامبور ، وتقع على ثلاثة أميال جنوبي اللوار وعشرة أميال شمال شرقي بلوا . وكان أمراء أورليان قد بنوا هناك استراحة للصيد ، فبنى فرانسوا عوضاً عنها قصرأ غلب عليه الطراز القوطي ، وبلغ اتساعه حداً احتاج معه إلى جهد ١٠٨٠٠ عامل على مدى اثني عشر عاماً ، ولاغرو فقد احتوى على ٤٤٠ حجرة . ومرابط لخليل يصل عددها إلى ١٠٢٠٠ ؛ وأبدع مصمموه الفرنسيون رسم واجهته الشمالية ولكنها اختللت بمتاهة من الأبراج ، و « الفوانيس » . والقمم ، والزخارف المنحوتة . وميزوا داخل القصر بيت للسلم حلزوني فخيم جداً ، فريد بممره المزدوج الذي يفصل المصعد عن المهبط . وكان فرانسوا يؤثر شامبور ويراهها مكاناً ممتعاً للصيد . وفيها أحببت حاشيته أن تحتشد في كل زيتها ، وفيها قضى سني عمره الأخيرة . وقد دمر الثوار في ١٧٩٣ معظم الزخرف الداخلي للقصر بدافع الانتقام المتأخر من إسراف الملوك الفرنسيين ، وهناك قصر آخر شيد على عهد فرانسوا - وهو قصر مدريد في غابة بولون - وقد حلاه جيرولامو ديلا روبيا بواجهة من الخزف الإيطالي (الميوليك) . ولكنه دمر تدميراً تاماً أيام الثورة .

على أن الإسراف لم يقتصر على الملك وحده . ذلك أن كثيراً من مساعديه شادوا لأنفسهم قصوراً ما زالت تبدو وكأنها مجلوبة من أرض الحان . ومن أروعها آزيه - لو - ريدو ، على جزيرة في الآندر ، أما صاحبه

جيل برتيلو ، الذي بناه في ١٥٢١ ، فلم يكن خازناً لفرنسا عبثاً ، وبني
توما بوييه كبير مأموري الضرائب في نورماندية قصر شينونسو (١٥١٣
وما بعدها) ، وأعاد جان كوتو وزير المالية بناء قصر مانتنون ، وشيد
جيوم ديمونورنسي في شانتني (١٥٣٠) قصرأ فخماً كان ضحية أخرى
من ضحايا الثورة . وبني ابنه آن ديمونورنسي . أحد كبار موظفي الأمن
في فرنسا ، قصر إيكوان (١٥٣١ - ٤٠) على مقربة من سان دينيس .
ورم جان لبريتون ، وزير الدولة ، قصر فيلاندريه ، وأكمل شارل
دسبيني قصر أوسيه . أضف إلى هذه كلها « أوتيلات » أو قصور فالنسي ،
وسمبلانسي في تور ، واسكوفيل في كان ، وبرنوي في تولوز ، ولالمون
في بروج ، وبور - ترولد في روان ، وعشرات غيرها ، وكلها من
نتاج هذا العهد المسرف ، وفي وسعنا أن نحكم الآن على مدى ثراء النبلاء
وفقر الشعب في تلك الفترة .

وأحسن فرانسوا أن قصر فونتنبلو الذي يسكنه لايني بأغراضه . فقرر
أن يعيد بناء ما بناه لويس السابع ولويس التاسع من قبل ، لأن فونتنبلو
كانت كما قال تشليني « أحب بقاع المملكة إلى الملك » . لذلك رمم البرج
المحصن والكنيسة . أما باقي القصر فهدم ، وأقام جيل دبريتون وبير
شامبيج مكانه ، بطراز النهضة ، مجموعة من القصور ربط بينها « هو
فرانسوا الأول » الرشيقي . أما مظهر القصر فلم يكن جذاباً ، ولعل الملك
رأى - كما رأى أقطاب التجارة بفلورنسة - أن واجهة ضخمة لقصر
قريب جداً من المدينة قد تثير حسد الجماهير . فاحتفظ بميوله الجمالية
ليشبعها بزخرفة الداخل ، واعتمد في هذه المهمة على فنانين إيطاليين نشأوا
على التقاليد الزخرفية التي أرساها رفايل وجوليو رومانو .

وظل إل روسو - الذي اشتق لقبه هذا من تورد وجهه . عشر سنوات
(١٥٣١ - ٤١) عاكفاً على زخرفة هو فرانسوا الأول . ويصف فازاري

هذا الفنان الذى كان يومها فى عامه السابع والثلاثين بأنه رجل « ذو طلعة مشرقة ، وحديث رزين لطيف . موسيقار كفء ، وفيلسوف ضليع » و « معمارى ممتاز » ، وهو إلى ذلك نحات ومصور^(٧) . وكذلك كان الرجال المتكاملون من أهل عصر التوسع الذى نحن بصددده . وقسم روسو الجدران إلى خمس عشرة حشوة . كلها محلى بطراز النهضة المسرف : قاعدة من السنديان الحوزى المنقوش والمطعم ، ولوحة جصية جدارية ذات مناظر من الأساطير الكلاسيكية أو التاريخ ، ومحيط غنى من الزخارف الجصية فى التماثيل ، والودع ، والسلاح ، والمداليات ، وأشكال الحيوان أو الإنسان . وأكاليل الزهر أو الفاكهة ، ثم سقف من الخشب العميق الحفر يكمل تأثير اللون الدافئ ، والجمال الحسى ، والبهجة العابثة . وكان هذا كله ينسجم غاية الانسجام مع ذوق الملك ، فأنعم على روسو بيت فى باريس ، وبمعاش قدره ١٠٤٠٠ جنيه (٣٥٠٠٠٠ دولار ٢) فى العام . يقول قازارى « وعاش الفنان فى بذخ النبلاء ، يحف به خدمه وخبوله . ويولم الولاثم لأصدقائه »^(٨) . وقد جند لخدمته من المصورين والنحاتين ستة من الإيطاليين ، وعدة فرنسيين ، وهم الأصل والنواة لـ « مدرسة فونتنبلو » . وفى قمة نجاحه وعظمته قضى طبعه الإيطالى الحاد على نشاطه . ذلك أنه اتهم أحد مساعديه المدعو فرانسكرى بلجرينو بالسرقة . ولكن براءة بلجرينو تكشفت بعد أن عذب عذاباً شديداً . وشعر روسو بالخزى وتأنىب الضمير ، فتجرع السم ومات 'معدباً' ، ولما تجاوز السادسة والأربعين (١٥٤١) .

وحزن عليه فرانسوا ، ولكنه كان قد وجد فى بريماتشيو فناناً قادراً على مواصلة عمل روسو بالأسلوب ذاته ، أسلوب الخيال الشهوانى . كان بريماتشيو فتى وسيماً فى السابعة والعشرين يوم وطىء أرض فرنسا عام ١٥٣٢ . وسرعان ما تبين الملك كفاياته المتعددة معمارياً ومثالا ومصوراً .

فعين له عدداً من المساعدين ، وراتباً طيباً ، ثم اختصه بعد ذلك بموارد أحد الأديار ، وهكذا حولت عطايا المؤمنين إلى فن لعله كان يصدح مشاعر الرهبان لو شهدوه . وصمم بريما تشيو رسوماً للمصنع الملكي للنسيج المرسوم ، وحفر رفاً رائعاً لمدفأة حجرة الملكة إليونورا بقصر فونتنبلو ، ورد على رعاية الدوقة ديتامب وحمايتها إياه بتزيين حجرتها في القصر بصور وتماثيل جصية . وقد ماتت الصور مرات تحت ترميماتها العديدة ، ولكن التماثيل محتفظة بروعتها ، وبينها تماثيل من الحص لسيده ترفع يديها إلى طنف ، وهو من أبدع التماثيل في الفن الفرنسي . ترى كيف يسع ملكاً تعشق مثل هذا العرى المتظاهر بالاحتشام أن يرتضى الكالفنية بديلاً عن كنيسة تبسم في تسامح لتصوير هؤلاء العاريات الفائنات ؟ .

ولم تهتز مكانة بريما تشيو ولا هذب أسلوبه بعد موت هذا الملك « الساطير » وارتقاء هنرى الثانى العبوس للعرش ، فقد عكف الآن (١٥٥١ — ٥٦) بمساعدة فيليبز ديلورم ونيكولو ديللابانى على تصميم بهو هنرى الثانى فى فونتنبلو وتصويره ونقشه وتزيينه بشتى الزخارف . وقدد مرت اللوحات هى الأخرى ، ولكن جمال التماثيل الأثنوية ما زال يخلب الأبواب ، وفى الجدار النهائى من العناصر الكلاسيكية ما يجعله الروعة مجسمة والجلال متجسداً . وفاق بهو أوليس فى روعته حتى بهو هنرى الثانى على ما روى (لأن البهو دمر فى ١٧٣٨) . وقد زينه بريما تشيو ورفاقه بمواضيع مختارة من الأوديسا بلغ عددها ١٦١ .

ويعين قصر فونتنبلو انتصار الطراز الكلاسيكى فى فرنسا . وقد ملأ فرانسوا قاعاته بتماثيل وتحف اشترت له فى إيطاليا فدعت روعتها رسالة الفن الكلاسيكى . وفى هذه الأثناء نشر سياستيانو سيرليو ، الذى عمل فترة فى قصر فونتنبلو ، كتابه Opere di architettura (١٥٤٨) ، وفيه بشر بالكلاسيكية الفتروية التى دان بها أستاذه بالداसर

بتروتزى ، وقد قام بترجمته إلى الفرنسية لتوه جان مارتان ، الذى ترجم أيضاً فتروفىوس (١٥٤٧) . وراح الفنانون الفرنسيون الذين درجهم روسو أو بريماتتشيو ببثون من مدرسة فونتنبلو القواعد والمثل الكلاسيكية فى أرجاء فرنسا ، فظلت مسيطرة عليها قروناً هى وما يقابلها من أشكال الأدب الكلاسيكية التى بدأتها جماعة البلياد . وذهب الفنانون الفرنسيون أمثال جاك أ. درسو ، وجان بوللان ، وديلورم ، إلى إيطاليا منفعلين بسرليو وفتروفىوس ، لكى يدرسوا آثار العمارة الرومانية ، ونشروا بعد عودتهم أنحائاً صاغوا فيها الأفكار الكلاسيكية . ونددوا كما ندد رونسار ودبليه بالطرز الوسيطة لما فيها من همجية ، وصمموا على تهذيب المضمون وإحالة شكلا : وبفضل هؤلاء الرجال وكتبهم انبعث المعمارى فناً متميزاً عن البناء الماهر ، ذا مكان مرموق فى السلم الاجتماعى : ولم تعد بعد ذلك حاجة إلى الفنانين الإيطاليين فى حركة البناء الفرنسية ، لأن فرنسا تخطت الآن إيطاليا إلى روما القديمة ذاتها تستوحى فنون المعمار ، وجمعت بجمعاً رائعاً بين الأساليب الكلاسيكية وتقاليد فرنسا ومناخها .

فى هذا الجو - جو الفكر والفن - ارتفع أنبل بناء مدنى فى فرنسا : والمتأمل للوفر اليوم من شاطئ السين الأيسر ، والمتجول يوماً بعد يوم خلال متحف العالم هذا الحافل بالكنوز ، يتضاءل خشوعاً ورهبة أمام ضخامة هذا الأثر . ولو خيرنا أى بناء فرد نرى الإبقاء عليه فى كارثة عالمية مدمرة لاخترنا اللوفر : كان فليب أغسطس قد بدأ تشييده حوالى عام ١١٩١ قلعة محصنة تقى باريس شر الغزو على طول نهر السين . ثم أضاف شارل الخامس جناحين جديدين (١٥٣٧) وبيتاً للسلم من خارج ربما كان الموحى بتحفة قصر بلوا . ولما وجد فرانسوا أن هذا البناء الوسيط ، نصف القصر ونصف السجن . غير صالح لسكناه ولطوه ،

أمر بهدمه وعهد إلى بيير ليسكو (١٥٥٦) أن يقيم في مكانه قصرًا قصرًا يليق بملك يتربع على عرش فرنسا النهضة . ولما مات فرانسوا بعد عام أمر هنري الثاني بالمضى في المشروع .

كان ليسكو نبيلًا وقسيسًا ، فهو سيد كلاني الإقطاعي . ورئيس دير كليرمون ، وكاهن نوتردام ، ومصور ونحات ومعماري . وهو الذي صمم عليه الصليب في كنيسة سان جرمان لوكسروا (التي دمرت في ١٧٤٥) والقصر الذي أصبح الآن « أوتيل كارنافاليه » . وقد استعان في هذين العاملين بصديقه جان جوجون ليقوم بالنحت الزخرفي ، وحين تقدم العمل في اللوفر الحديد دعا جوجون ليزينه . وفي ١٥٤٨ شيد ليسكو الجناح الغربي للقصور التي تضم اليوم فناء اللوفر المربع (الكوركاريه) : أما الواجهة فهي من الأرض إلى السطح من إملاء طراز النهضة الإيطالية . على وجه الحصر (كما كان رابليه يقول لو رآها) : ثلاثة صفوف من النوافذ المستطيلة ، وتفصل بين الصفوف كرائيش من الرخام . أما النوافذ فتفصل بينها أعمدة كلاسيكية ، ثم ثلاثة أروقة تعتد على عمد كلاسيكية أنيقة ، ولم يكن فرنسيًا غير السقف المائل ، ولكن الحلقات المعمارية كانت هنا أيضاً ذات جمال كلاسيكي . ولولا أن جوجون أدخل تماثيل في كوى الأروقة وحفر نقوشاً بديعة في القواصر وتحت الكرائيش ، وتوج النتوء الأوسط بشعار هنري وديانا — لولا هذا لكان المنظر العام شديد الصرامة : وفي داخل جناح ليسكو هذا بنى جوجون قاعة تسمى Salle des Cariatides — أربع إناث رائعات يسندن شرفة للموسيقين ؛ وجوجون أيضاً هو الذي زخرف قبو السلم الكبير المؤدى إلى الحجرة الملكية التي نام فيها ملوك فرنسا ابتداء من هنري الرابع إلى لويس الرابع عشر : واستمر العمل في بناء اللوفر وزخرفته أيام شارل التاسع وهنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر

ونابليون الأول ونابليون الثالث . ملتزماً على الدوام الطراز الذى حدده ليسكو وجوجون بحيث أصبح هذا الصرح الفسيح هو العصارة المركزة لثلاثة قرون ونصف من حضارة طحنت كد الشعب لتخرج منه هذه الروائع الفنية . ترى . أكان ممكناً بناء اللوفر لو أنصفت الارستقراطية الشعب ؟ .

وأبدع فيليب ديلورم لهنرى الثانى وديان دبواتيه آيات فى العمارة كأنها فى سحرها جنات عدن . وقد درس فيليب فى شبابه آثار روما القديمة وفوقها . فأحبها . ولكنه أعلن عقب عودته إلى فرنسا أن لعمارة الفرنسية يجب منذ الآن أن تكون فرنسية . وكانت روحه . روح الوثنية الكلاسيكية والوطنية الفرنسية — هى بالضبط برنامج جماعة البلياد . وقد صمم سالم « الكورد يزاديه » Cour des Adieux بنفوتنبلو على شكل حدوة حصان . والمدفأة والسقف الغائر النقوش فى هو هنرى الثانى . وشيد لديان فى آنيه (١٥٤٨ — ٥٣) مدينة حقيقة من القصور والحدائق الرسمية . وهناك وضع تشلبنى تمثاله « حورية فوتنباو » فى قوصرة . وبز جوجون المثال الفلورنسى بمجموعته التى تمثل ديانا وأيلها . ومعظم هذا الفردوس النفيس حل به الدمار . ولم يبق منه سوى بوابة لا تثير إعجاباً بذكر فى فناء مدرسة الفنون الجميلة بباريس . ولأجل هذه الخلية المنتصرة نفسها أكل قصر شنونسو — هدية صغيرة من مايكها المقيم . وفيليب هو الذى فكر فى مد القصر عبر الشير . ولما أخذت كاترين مديتشى القصر من ديان . واصل ديلورم جهوده الشاقة فيه حتى اكتملت هذه الآلة الفنية . على أن أسلوبه الرياضى المسرف لم ينل الرضا حيناً ، فاعتكف ليولف بحثاً موسوعياً فى العمارة . ثم دعت كاترين ثانية فى شيخوخته ليستأنف العمل ، فصمم لها قصرأ جديداً هو التوبارى (١٥٦٤ — ٧٠) الذى دمره كومون

١٨٧١ . وقد تلقى الفنان من جميع رعاة فنه مكافآت سخية . فأصبح قسيساً . وشغل عدة وظائف كنسية مجزية . ثم مات في ١٥٧٠ كاهناً لنوتردام ، بعد أن دبر في وصيته مستقبل طفليه غير الشرعيين (٩) .

كان جان بولان ثالث المعمارين النوابغ الذين زينوا فرنسا في عهود زوج كاترين وأبنائها . وقد اكتسب شهرته في ثلاثيناته بمدينة اكوان إذ صمم قصر أريفيآ لآن دمو نورنسى بلغ الكمال في خطوطه الكلاسيكية . وفي ستيناته خلف ديورم في بناء التويلرى وواصل العمل إلى أن مات « من يوم إلى يوم ، أموت وأنا أتعلم » على حد قوله .

لقد درج الناس على أن يأسفوا لاستير ادمارة الفرنسية للطرز الإيطالية ، وعلى أن يقولوا إن الفن القوطى الوطنى لو ترك دون أن يحرفه هذا التأثير لتطور إلى عمارة مدنية أنسب للرشاقة الفرنسية . من الخطوط الصارمة نسبياً التى اتسمت بها الطرز الكلاسيكية . ولكن الفن القوطى كان فى طريقه إلى الموت من الشيخوخة . ربما من الإسراف الحرم والزوقة العتيقة ؛ لقد جرى شوطه وانتهى . وكان اتسكاء الفن اليونانى على ضبط النفس والاستقرار والخطوط البنائية الواضحة خير ما يصلح للتخفيف من الاندفاع الفرنسى والسيربه إلى نضج مهذب . وقد ضحى فى هذا السبيل ببعض طرافة العصر الوسيط . ولكن هذه أيضاً عاشت أيامها وانقضت . وهى لا تبدو جذابة إلا لأنها ماتت . ولما طور معمار النهضة الفرنسية طابعه القومى الخاص . مازجاً الرواشن والسطوح المائلة بالأعمدة والتيجان والقواصر ، منح فرنسا طوال ثلاثة قرون طرازاً فى البناء كان مثار حسد أوروبا الغربية . ونحن نحس الآن أن هذا الطراز كان حيلة لأنه هو الآخر فى طريقه إلى الزوال .

٢ — الفنون الملحقه

قام مثات من الصناع الفنانين بتزيين الحياة الفرنسية في هذا العصر المرح . عصر فرانسوا الأول وهنرى الثانى . ونقش النجارون مقاعد المرتلين في كنائس بوفيه . وآميان ، وأوخ ، وبرو ، وتجروا على زخرفة المباني القوطية بمنظر حية من النهضة تمثل آلهة الحقول ، والعرافات . وأتباع باخوس والسواتير ، بل تمثل بين الحين والحين فينوس أو كيوبيد أو جانيميد . أو قد تراهم — لكى نلاحظهم ملاحقة محبومة — يصنعون الموائد ، والكراسى ، والإطارات ، والمراكع ، والأسرة . والخزائن ، وينقشونها بزخارف ربما كانت مسرفة ، أو يكفونها بالمعادن أو يطعمونها بالعاج أو الأحجار الكريمة . أما صناع الأشغال المعدنية الذين بلغوا الآن ذروة الإتقان فقد خلعوا الجمال الرائع على الأواني والأسلحة بزخرفتها بالنقوش الدمشقية أو بحفرها ، ورسوموا النوافذ ذات المصبغات — بقصائد من الشعر في زخرف حديدى من الشجر — للكنائس والهياكل والحدائق والمقابر ، أو صنعوا مفصلات كذلك التى نراها على أبواب نوتردام الغربية ، وفيها من الجمال ما جعل الأتقياء ينسبون صنعها إلى أيدى الملائكة . وقد اعترف تشليني ، وهو الذى لم يبق لغيره مديحاً يذكر بعد أن أشيع حاجاته منه . بأن الصباغ الفرنسيين قد بلغوا فى صنعهم آنية الكنائس — أو آنية المنازل كذلك التى حفرها جان دوريه لهنرى الثانى — « درجة من الإتقان والكمال لا تجدها فى أى بلد آخر » (١٠) . أما الزجاج الملون (المعشق) فى كنيسة مرجريت النمساوية فى برو ، أو فى كنيسة سانت إتيان فى بوفيه . أو فى كنيسة سانت إتيان دمون فى باريس . فقد كشف عن عظمة لم تكن فارقت فرنسا بعد . وقد أنشأ فرانسوا فى فونتينبلو مصنعاً تنسج فيه قطع النسيج

المرسومة قطعة واحدة بدلاً من صنعها أجزاء منفصلة تخاط معاً كما كانت الحال من قبل ، وخطت الخيوط الذهبية والفضية في سداء بالحريير والصوف المصبوغين . وبعد عام ١٥٣٠ لم تعد نماذج قطع النسيج الفرنسي المرسوم ومواضيعه قوطية وفروسية ، بل اتبعت تصاميم النهضة وموضوعاتها المخلوبة من إيطالياً .

وغلبت رسوم النهضة الزخرفية على الحراريات في خزف ليون (المايوليك) ، وفي قاشاني جنوبي فرنسا ، وفي صناعة المينا بليموج . ورسم ليونار ليموزان وغيره بألوان المينا المصهورة البراقة أشكالاً أنيقة من النبات والحيوان والآلهة والبشر على الأواني النحاسية كالأحواض والزهرات والأباريق والكثوس والأطباق وغيرها من الأواني المتواضعة التي سموا بها إلى مرتبة التحف الفنية : وهنا أيضاً كان لفرانسوا فضل المشاركة ، فقد وضع ليونار على رأس مصنع المينا الملكي بليموج ، وخلع عليه لقب « الوصيف الخاص للملك » . وتخصص ليونار في رسم صور الأشخاص بالمينا على الأطباق النحاسية ، وفي متحف المتروبوليتان بنيويورك نموذج رائع منها يصور فرانسوا نفسه ، وغير هذا كثير في قاعة أبولو بالوفر مما يشهد في هدوء لهذا العهد الذهبي .

كان تصوير الأشخاص فناً مكتمل النضج في فرنسا قبل قدومه الإيطاليين . فمن من الفنانين الإيطاليين في فرنسا كان يوسع أن يرسم أروع من صورة جيوم ديمونورنسي التي رسمها فنان كبير لم يذكر عليها اسمه حوالي عام ١٥٢٠ ، والمحفظة اليوم بمتحف ليون ؟ - Voila un homme ! « هاكم رجل » - إنها ليست تحية مصورة . إنها رجل . لقد جلب روسو وبريماتشيو وديلاباتي وغيرهم من مدرسة فونتينبلو إلى فرنسا ما تعلموه من رفائيل أو برينو ديلفاجا أو جوفاني دا أوديني أو جوليو رومانو عن زخرفة العمود والكرانيش والأسقف

. بالـ « جروتسك » أو الأشكال العابثة — أشكال الملائكة (الكارويم)
والأطفال واللواكب والزخارف العربية والنبات . وقد رسم عضو مجهول
من أعضاء هذه المدرسة لوحة « ديان دبواتيه » المحفوظة الآن بمتحف
ورستر بولاية ماساشوستس — جالسة إلى خوان زينتها وعلى رأسها
تاج . وبعد عام ١٥٤٥ قدم إلى فرنسا كثير من المصورين الفلمنك ،
فيهم بروجل الأب ، ليدرسوا الأعمال الفنية في فونتينبلو . ولكن
أسلوبهم كان أعمق جذوراً من أن يستسلم للتأثير الإيطالي . وتغلّبت القوة
الواقعية التي اتسم بها فنهم على الجمال الأنثوي الذي تجلّى في فن ورثة
رفائيل .

وكادت أسرة فلمنكية واحدة في فرنسا أن تؤلف مدرسة قائمة
بذاتها . كان يوحنا كلويه Clouet ملحقاً ببلاط فرانسوا في تور وباريس ،
وكل الناس يعرفون الصورة التي رسمها للملك حوالي ١٥٢٥ والمحفوظة
الآن بالوفر ، وجسم فيها الملكية المستكبرة المغرورة السعيدة قبيل كبة
من كبواتها ، وخلف فرانسوا كلويه أباه يوحنا مصوراً للبلاط ،
وسجل بالطباشير أو الزيت صور كبار القوم خلال حكم أربعة من ملوك
فرنسا . واللوحة التي رسم فيها هنري الثاني أروع من تلك التي صور
فيها أبوه فرانسوا الأول . ويدهشنا أن نرى في اللوحة تلك الهوة
بين العاشق المرح والابن المكتئب المزاج ، وفي وسعنا أن نفهم منها
كيف استطاع هذا الرجل أن يصدق على تشكيل « الغرفة الغيور »
لاضهاد المهرطقين ، وإن لم نلمح في الوجه — الذي يكاد يكون
بورجياً — أى إلماع لوفائه المقيم لديان . ووجدت أسرة كلويه من
تخادها بعض الوقت في شخص كورني الليوني الذي نافسها برسم خاص
به . وظهر هذا التحدى في صور كصورة المرشال بونيفيه ، عشيق
مرجريت . ولكن أحداً من المعاصرين في فرنسا لم يستطع مجازاة فرانسوا

كلويه فى ذلك الحشد من الصور التى رسمها لكاترين مدتشى .
وفرانسوا الثانى : ومارى ملكة إسكتلندة . وإليزابيث فالوا .
وفيليب الثانى . ومرجريت زوجة هنرى الرابع المقبلة . وشارل التاسع
فى شبابه — وقد بدا ألطف من أن نتبين فيه ملك « المذبذبة » المرتاع .
فى هذه الصور نرى الواقعية والصدق الفلمنكيين وقد خففت من حدتهما
الركة والدقة والحيوية الفرنسية . فالنبرة خافتة . والخط دقيق مطمئن ،
وعناصر الشخصية المعقدة مقتنصة وموحدة . مثل هذا المؤرخ النابض
بالحياة لن تستمتع بفنه غير إنجلترا هوليين .

كان النحت خادماً للعمارة ، ومع ذلك فهو صاحب الفضل فى
تألقها . والواقع أن النحت الفرنسى راح يخرج سيلاً متدفقاً من الروائع
التى لم يفقها إلا تلك التى كان ميكلائجلو وغيره ينحتونها من كارارا .
مثال ذلك المقابر الفخمة ، كمقبرة لويس الثانى عشر ومقبرة آن البريتانية
اللتين نحتهما جوفانى دى جيوستوبى (فى سان دنيس) ، ومقبرتى
اثنين من كرادلة أمبواز نحتهما رولان لرو وجان جوجون (فى روان) .
ومقبرة لوى دبريزيه ، زوج ديان ، فى الكاتدرائية ذاتها . التى
نحتها مثال غير معروف على التحقيق . وتبدو مقبرتا روان وأوفر زينة
مما يليق بجلال الموت ، ولكن الكردينالين يكادان يبعثان من جديد
على صورة حكام أفوياء لا يحاول المثالان خلع الكمال عليهما . إنما
الدين عندهما أمر عارض وسط مهام الحكم . وقد دفن فرانسوا الأول .
وزجته كلود ، وابنته شارلوت ، بسان دنيس فى مقبرة من طراز النهضة
صممها ديلورم ، تزينها منحوتات فخمة نحتها بيير بونتم : وعلى
مقبرة منها رائعة صغيرة من صنع بونتم — هى وعاء جنازى لقلب الملك .
وهكذا لم يعد المثالون الفرنسيون فى حاجة إلى الوصاية الإيطالية ليرثوا
فن روما الكلاسيكى .

ولقد ورث جان جوجون الجمال الكلاسيكى على الأقل . ونحن نسمع به لأول مرة فى سنة ١٥٤٠ ، وقد ورد فى القائمة أنه « حجار وبناء » فى روان . وفى روان قطع الأعمدة التى يرتكز عليها الأرغن فى كنيسة سان ماكلو . ونحت تماثيل لمقبرتى الكردينالين ، وربما لمقبرة بريزيه . وقد زين حجاب الصليب فى كنيسة سان جرمان لوكسروا بمنحوتات محفوظة بعضها فى اللوفر . وهى تذكرنا بالنقوش الهلنستية البارزة فى الأناقة المتناغمة التى اتسمت بها خطوطها . وقد قاربت الكمال تلك الموهبة المميزة لفن جوجون ، وهى تجسيد الجمال الأثوى . فى تمثال « الحوريات » ، الذى شارك به فى « نافورة الأبرياء » التى صممها ليسكو (١٥٤٧) ، وفى رأى برنينى أن هذه التماثيل أجمل آثار الفن فى باريس . وقد ذكرنا من قبل تمثال جوجون « ديانا والأيل » فى آتیه . ومنحوتاته فى اللوفر . وتماثيله للآلهة الوثنية . ولجسد المرأة الممثل فى صورة كاملة ، توحى بأن فرنسا قد انتصرت فيها النهضة على حركة الإصلاح البروتستنتى ، والأفكار الكلاسيكية على الأفكار القوطية . والمرأة على منتقى قدرها فى العهد الوسيط . ومع ذلك وصف الرواة جوجون بأنه هيجونوتى . وعقاباً له على حضوره عظة لوثرية . حكم عليه حوالى عام ١٥٤٢ بأن يسير فى شوارع باريس بقميصه وبأن يشهد حرق واعظ بروتستنتى (١١) . وحوالى عام ١٥٦٢ رحل عن فرنسا قاصداً إيطاليا . ومات فى بولونيا قبل عام ١٥٦٨ . مغموراً مهملاً إهمالاً لا يستحقه رجل ارتبى بفن النهضة إلى ذروته فى فرنسا .

٣ - بليستر بروجل : ١٥٢٠ - ٦٩

كان هذا العصر مقفراً فى فن الأراضى المنخفضة إذا استثنينا بروجل والنسيج المرسوم . وتذبذب فن التصوير بين تقاليد الإيطاليين - فى

الأسلوب المهذب والألوان الغنية والأساطير الكلاسيكية والنساء العاريات والخلفيات المعمارية الرومانية — وبين الميل المتأصل إلى التصوير الواقعي لكبار الشخصيات وللأشياء العادية . ولم يحظ الفنانون بالرعاية من البلاط والكنيسة والنبلاء فحسب ، بل نالوها باطراد من أغنياء التجار الذين عرضوا أجسادهم البدينة وألغادهم المتهذلة ليعجب بها الخلف ، وأحبوا أن يروا في الصور المناظر المألوفة والمشاهد الطبيعية لحياتهم الفعلية . وحلت روح الفكاهة ، وحب « الجروتسك » أحياناً ، محل الإحساس بالتساقى في فن كبار الفنانين الإيطاليين : وقد انتقد ميكلانجلو ما رآه افتقاراً إلى التمييز والسمو في الفن الفلمنكى فقال : « لأنهم لا يرسمون في فلاندر إلا ليخدعوا العين الظاهرة ، أشياء تهجك . : حشائش الحقول ، وظلال الأشجار ، والكبارى والأنهار : : وأشياء صغيرة هنا وهناك » : : دون عناية بالاختيار أو الرفض « (١٢) » ولا غرو فالفن عند ميكلانجلو هو الاختيار ذو الدلالة لإبراز السمو ، لا التمثيل غير المميز للواقع ، وكانت طبيعته الوقور ، المحبوسة في حدائه الذى لا ينزع وعزلته الكارهة للناس ، محصنة ضد التأثير بحلال الحقول الخضراء وحرارة الحب العائلى .

أما نحن فلإننا ننحنى انحناءة العرفان ليواكيم باتينير ، ولو لما صورته لوحته « القديس جيروم » من منظر طبيعي يذكرنا بأسلوب ليورنادو دافنشى ، ولجوس فان كليف على لوحته بالحميلة التى رسم فيها اليانور للبرتغالية ، ولبرنيرت فان أورلى للوحة « العائلة المقدسة » فى البرادو ، ولتصميمياته للنسيج المرسوم ، ولزجاجه المعشق فى كنيسة سانت جودول ببروكسل ، وللوكاس فان ليدن لما حفلت به سنوه التسعة والثلاثون من حشد النقوش والكليشيات الخشبية ، ولجان فان سكوريل على صورة المجذلية وهى تعز بقارورة الطيب التى غسلت منها أرجل المسيح ،

ولأنقاونيس مور على صورته القوية لدوق ألفا ، وللكردينال جرانفيل ،
ولفيليب الثانى ، ولمارى تيودور ، ولصورة ليست أقل شأنًا من كل
أولئك . وهى صورته هو .

وليلاحظ القارئ كيف تركز فن التصوير بالأراضى المنخفضة فى
الأسر . من ذلك أن جوس فان كليف ورث بعض مهارته لابنه كورنيليس ،
الذى رسم صوراً ممتازة قبل أن يصاب بالجنون . كذلك نرى جان
ماسيس الذى ورث مرسوم أبيه كوينتين يوتر رسم العاريات أمثال
« يهوديت » . و« سوسنة والشيخوخ » ، وواصل ابنه كوينتين ماسيس
الثانى هذه الحرفة ، فى حين خمل أخوه كورنيليس فنه إلى إنجلترا ورسم
لوحة لهنرى الثامن فى شيخوخته وقد بدا منتفخ البدن بشع المنظر .
ورسم بيتر بوربوس وابنه فرانس لوحات للأشخاص وصوراً دينية
فى بروج ، ورسم فرانس بوربوس الثانى ، وهو ابن فرانس ، لوحات
فى باريس ومانتوا . وكان هناك إلى هؤلاء بيتر بروجل « المضحك »
وزوجته المصورة ، وحامته المصورة ، وأبناء بيتر بروجل « الجحيم »
وجان بروجل « الحمل » ، وحفدته المصورون ، وأبناء حفدته
المصورون . . .

أما بيتر بروجل الأب ، الذى أصبحت شهرته من موضوعات
عصرنا التى لا مهرب منها ، فلعله اشتق اسمه من إحدى قريتين فى برابانت
اسمهما بروجل . وكانت إحداها قريبة من هرتوجنبوش مسقط رأس
هيرونيموس بوش . وربما رأى بيتر فى كسناثس هذه القرية عدة
رسوم بريشة الرجل الذى أثر فى فنه تأثيراً لم يفقه غير تأثير الطبيعة ذاتها ،
وحين ناهز الخامسة والعشرين (حوالى عام ١٥٤٥) هاجر إلى أنتورب
وتعلم لبيتر كوك ، وربما أعانت محفورات كوك الخشبية للمناظر
الطبيعية على تكوين ميل المصور الشاب إلى الحقول والغابات والمياه

والجو والسماء . وكان بيتر كوك هذا قد أنجب فتاة تدعى ماريا . كان بيتر يهددها بين ذراعيه وهي طفلة . وقد أصبحت فيما بعد زوجاً له . وفي عام ١٥٥٢ اتبع التقليد الذي جرى عليه المصورون ، ورحل إلى إيطاليا ليدرس التصوير ، ثم عاد إلى أنتورب بكراسة تضخمت برسوم المناظر الإيطالية ، ولكن لم يبد على أسلوبه الفني تأثير إيطالي واضح . وقد ظل إلى النهاية يهمل من الناحية العملية تلك الدقة في التشكيل . وفي توزيع الضوء والظل (الكياروسكيورو) ، وفي التزييق (الكولورا تورا) التي أخذ بها الفنانون الجنوبيون . ولما عاد إلى أنتورب عاش مع امرأة كانت خلية ومديرة لبيته . وقد وعدها بأن يتزوجها إذا أمسكت عن الكذب . وكان يسجل أكاذيبها بثلمات يحدّثها في عصا . وإذ لم يكن محتفظاً بعصا لذنبه هو ، فقد هجرها حين فاضت العصا بالثلمات . وفي أواسط أربعيناته (١٥٦٠) تزوج ماريا كوك وقد بلغت السابعة عشرة ، واستمع إلى دعوتها إياه للرحيل إلى بروكسل ، ولم يكن باقياً له من العمر سوى ست سنوات .

ومع أن رسومه حامت الناس على تأقيبه بـ « بروجل الفلاح » فإنه كان إنساناً مثقفاً قرأ هومر وفرجل وهوراس وأوفيد ورابلية ، وفي الغالب إرزمس (١٢) وقد وصفه كاريل ماندر (فازاري هولنده) بأنه « هادئ ، منظم ، قليل الكلام ، ولكنه ممتع الحديث إذا كان في صحبة . يبتهج بافزع سامعيه . . . بقصص الأشباح والأرواح المنذرة (١١) . وربما كان هذا علة لقبه الثاني « بروجل المضحك » . وكانت فكاهته تميل إلى الهجاء ولكنه خففه بالعطف . وفي حفر معاصر يبدو في الحية كشة ووجه يحمل سمات التفكير الجاد (١٥) . وكان أحياناً يقتدى ببوش في نظرته إلى الحياة على أنها اندفاع معظم النفوس إلى الجحيم دون مبالاة . وفي لوحته المسماة « دوللي جريت » صور الجحيم تصويراً بشعاً مشوشاً كذا فعل

بوش نفسه ، وفي لوحته « انتصار الموت » لم يتخيل الموت يوماً طبيعياً لأجساد مكدودة ، بل تقطيعاً بشعاً للأطراف والحياة — هياكل عظمية تهاجم الملوك والكرادلة والفرسان والفلاحين بالسهام والبلط والأحجار والمناجل — ومجرمين تدق أعناقهم أو يشنقون أو يوثقون إلى عجلة التعذيب — وجاهم وجثثاً تركب عربة ؛ هنا مثل مغاير آخر له « رقصة الموت » التي تسرى وسط فن هذا العهد القاتم .

وتواصل صور بروجل الدينية هذا المزاج الجاد . فهى خلو من فخامة الصور الإيطالية ومن جمالها الرشيق على السواء . وليست سوى ترجمة جديدة لقصة الكتاب المقدس بلغة المناخ والملامح والثياب الفلمنكية . ونذر أن تكشف عن عاطفة دينية . وأكثرها معاذير لتصوير الجماهير . وحتى الوجوه فى هذه الصور خلو من العواطف . فترى الناس المتدافعين بالمناكب ليشهدوا المسيح وهو يحمل صليبه وكأنهم لا يبالون بالآلام ، إنما هم تواقون لاتخاذ موقف يشهدون منه المنظر بوضوح . وبعض هذه الصور أمثال من الإنجيل كصورة « الزارع » ، وبعضها يقلد بوش فيتخذ الأقوال المأثورة موضوعاً له . فصورة « عميان يقودون عمياناً » ترينا صفاء من الفلاحين لهم عيون ذابلة . وفيهم قبح شنيع ، يتلو بعضهم بعضاً فى طريقهم إلى مصرف للمياه . ولوحة « الأمثال الهولندية » ، توضح فى صورة مكتظة واحدة ، قرابة مائة من الأقوال المأثورة القديمة ، بعضها تشم فيه عبر الحكيم الرابلية .

كان هم بروجل الأكبر تصوير جماهير الفلاحين . والمناظر التى تنتظم بخيرها وشرها على السواء أنشطة البشر العقيمة المغتقرة . ولعله ظن أن فى تصوير الجماهير سلامة . فلا حاجة به عند تصويرها لأن يميز الوجوه أو يشكل الأجساد . وقد أبى أن يصور شخصاً يجلس أو يقف أمامه خدمة للفن أو للتاريخ . وآثر أن يظهر الرجال والنساء والأطفال يمشون

ويجرون ويقفزون ويرقصون ويلعبون بكل ما فى الحياة من ألوان الحركة والفترة . وقد رجع إلى مشاهد طفولته . وأمتعته أن يتأمل ويشارك فى مباحج الفلاحين وولائمهم وموسيقاهم وأعراسهم . وكان فى عدة مناسبات يصطحب صديقاً ويتنكران فى زى مزارعين ليحضرا أسواق القرية وأفراحها . ثم يقدمان الهدايا للعروسين متظاهرين بأنها من أقربائهما (١٧) . ولا شك أن بيتر كان فى هذه النزعات يحمل كراسته لأن بين رسومه الباقية كثيراً مما تظهر فيه وجوه الفلاحين وأحداث الريف . ولم يكن ذوقه يسيغ النبلاء الذين وجد مور وتيشان فى تصويرهم مجلبة للربح الوفير . ولا كلف بتصويرهم . ولم يرسم سوى بسطاء الناس . بل إن الكلاب التى رسمها كانت كلاباً حقيرة مهجنة كمثل التى تلقاها فى أى زقاق بالمدينة أو كوخ بالقرية . لقد خبر الجانب المرفى فى حياة الفلاح . وصور هذا الجانب أحياناً خليطاً محتشداً من الحمقى . ولكنه أحب رسم ألعاب الأطفال القرويين . ورقصات كبارهم . وصحبة أفراحهم . وفى لوحته « أرض كوكين » ترى الفلاحين الذين أرهقهم الكد أو الحب أو الشراب منبطحين على العشب فى الخلاء وهم يعلمون بعالم سعيد . وكأن بروجل يقول لنا إن الفلاح دون سواه هو الذى يعرف كيف يلعب وكيف ينام . كما يعرف كيف يشتغل وكيف يتزوج وكيف يموت .

ولم ير أمام الموت غير عزاء واحد - هو أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة . تلك الطبيعة التى تقبلها فى جميع صورها من جمال وقبح . ومن نمو وانحلال وتجدد . والمنظر الطبيعى عنده يفتدى الإنسان . وصحف الجزء يغتفر فى جلال الكل . لقد كان دأب المصورين من قبله - باستثناء ألتدورفر - أن يرسموا المناظر الطبيعية خلفيات وملحقات للناس والأحداث . أما بروجل فقد جعل المنظر الطبيعى ذاته هو اللوحة ، وليس الإنسان فيها سوى عرض من الأعراض . فى لوحته « سقوط إيكاروس » ترى السماء والمحيط والجبال والشمس وقد استغرقت انتباه

المصور والمشاركين في اللوحة ، أما إيكاروس فليس سوى ساقين غيراً ملحوظتين تغوصان في البحر بشكل مضحك . وفي لוחته « العاصفة » لا تكاد ترى الإنسان ، فهو ضائع عاجز بين حرب العناصر وبطشها .

ويبلغ فن بروجل وفلسفته قمتهما في اللوحات الخمس الباقية من مجموعة خططها لبيان تقلبات العام . ففي لوحة « حصاد القمح » يصور تخطيطياً قطع حزم القمح وتكديسها ، وترى فيها العمال يتناولون غذاءهم أو يرقدون في إغفاءة في قيظ الصيف وسكون هوائه الواضحين . وفي لوحة « حصاد الدريس » يحمل الصبيان والبناات فاكهة الحقول الخريفية في سلال على رؤوسهم ، ويشخذ فلاح منجله ، وتقلب الدريس نسوة أشداء ، ويرفعه الرجال إلى أعلى حمل العربة ، وتمضغ الخيل طعامها في فترة راحة . ولوحة « عودة القطيع » نذير بقدم الشتاء — فالسما تكفهر والماشية تساق عائدة إلى مرابطها . وأجمل لوحات المجموعة هي « الصيادون في الثلوج » ، وفيها ترى الأسطح والأرض بيضاء ناصعة ، والمساكن تنتظم في منظور مدهش على طول السهول والتلال ، والرجال يتزلقون ويلعبون الهوكي ويسقطون على الجليد ، والصيادين وكلابهم ينطلقون لاقتناص الطعام ، والأشجار عارية ولكن زقزقة العصافير في الأغصان تبشر بمقدم الربيع . أما لوحة « اليوم الكئيب » فهي الشتاء مكفهرأ اكفهرارة الوداع . في هذه اللوحات بلغ بروجل قصاره ، ووضع سابقة لرسم مناظر الثلوج ليحتذ بها فن الأراضي المنخفضة المقبل .

ولا يستطيع الحكم على هذه الصور في مرتبتها وأسلوبها الفنيين سوى رسام أو خبير . ويبدو بروجل قانعاً بأن يعطى أشكاله بعدين ، ولا يكثر ثلخلط الظل بمادتها ، وهو يترك لخيالنا أن يضيف لبعديه

بعداً ثالثاً إن لم يكن من هذا بد . واهتمامه بالحشود أكبر من أن يتيح له الاهتمام بالأفراد ، وهو يجعل كل فلاحيه تقريباً متماثلين ، كتلا غليظة من اللحم . وهو لا يزعم أنه واقعى إلا فى المجموع ، وهو يضع الكثير من الناس أو الأحداث فى لوحة واحدة بحيث يبدو أنه يضحي بالوحدة . ولكنه يقتنص الوحدة اللاشعورية — وحدة قرية ، أو حشد ، أو موجه من موجات الحياة .

فما الذى يريد أن يقوله ؟ أهو ساخر فقط . ضاحك من الإنسان لأنه « فجلة مشعبة » غريبة الشكل . ومن الحياة لأنها اختيال غيبي نحو الفناء ؟ لقد كان يستمتع بما فى رقص الفلاحين من هز عنيف . ويتعاطف مع كدهم ، وينظر فى مرح متسامح إلى نومهم المخمور . ولكنه لم يفق قط من تأثير بوش . فقد كان يجد لذة ساخرة كتلك التى وجدها ذلك الـ « جيروم » المجرد من التقوى فى تصوير الجانب المر من الكوميديا البشرية — المقعدين والمجرمين . المهزومين أو الداعرين . انتصار الموت الذى لا رحمة فيه . ويبدو أنه كان يبحث عن الفلاحين الدميمى الحلقة . يرسمهم رسوماً ساخرة . ولا يسمح لهم أبداً بالابتسامة أو الضحك . فإذا أضفى على جلالة وجوههم أى تعبير فهو تعبير اللامبالاه الغبية ، والحساسية التى تحتها لطمات الحياة^(١٧) . وكان يثيره ويؤلمه ذلك الجحود الذى يحتمل به المخطوظون شقاء الأشقياء . وتلك السرعة والراحه التى ينسى بها الأحياء الأموات . وكان يحزنه منظور الطبيعة الشاسع تلك السماء الهائلة التى تبدو تحتها كل الأحداث البشرية غارقة فى الضلالة . وتلوح الفضيلة والرذيلة ، والنمو والانحلال ، والشرف والخسة . مضبغة فى عبث مترام لا يفرق ولا يميز ، والإنسان وقد ابتلعه منظر العالم .

ولا ندرى أهذه فلسفة بروجل الحقيقية أم أنها دعاية فنه لا أكثر .

كذلك لا ندرى لم كف عن المعركة بهذه السرعة وقضى وهو بعد في التاسعة والأربعين (١٥٦٩) . ولعله لو مد في أجله لخففت السنون من غضبه . وقد أوصى لزوجته بلوحة غامضة هي « الطريق المرح إلى المشنقة » . وهي تشكيل رائع في ألوان خضراء نضرة وزرقاء نائية ، والفلاحون يرقصون قرب مشنقة القرية ومن فوقها حط طائر العقعق ، ويرمز به للسان الثرثار .

٤ - كراناخ والألمان

توارى المعمار الكتسى الألماني خلال حركة الإصلاح البروتستنتي : فلم تشيد للفن ولا للدين كنائس جديدة ، وترك كثير من الكنائس دون أن يكمل ، وهدم الكثير منها وبنيت بأحجاره قلاع الأمراء : أما الكنائس البروتستنتية فقد انصرفت إلى البساطة الصارمة ، وأما الكنائس الكاثوليكية فقد أسرفت في زينتها كأنها تتحدى البروتستنتية ، وذلك أثناء انتقال النهضة إلى طراز الباروك .

وحلت العمارة المدنية وعمارة القصور محل بناء الكاتدرائيات في الوقت الذي حل فيه الأدواق محل الأساقفة واحتوت الدولة الكنيسة . وبعض المباني المدنية الجميلة في هذه الفترة كان من ضحايا الحرب العالمية الثانية : مثل الألتاوس في برنزويك ، ومقر طائفة الجزائرين في هيلدسهايم ، والراتهاوس أو قاعة مدينة نيميجين المبنية بطراز النهضة . واتخذ أكثر معمار هذا العهد والعهد الذي تلاه طموحاً شكل القلاع الضخمة المشيدة للأمراء الأقاليم : كقلعة درسدن التي كلفت الشعب ١٠٠,٠٠٠ فلورين (٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) ، وقصر دون كرستوفر في شتوتجارت الذي أسرف الدوق في تأثيثه وفرشه حتى أن قضاة المدينة حذروه من أن [بلدخ بلاطه يتناقض تناقضاً مخزياً مع فقر شعبه ، وقلعة هيدلبرج المترامية

التي بدئ تشييدها في القرن الثالث عشر وأعيد بناؤها بطراز النهضة في ١٥٥٦ - ٦٣ ودمر جزء منها في الحرب العالمية الثانية .

أما الحرف الفنية فقد احتفظت بتفوقها في خدمة الأمراء والنبلاء والتجار ورجال المال . فتجارو الأثاث . ونقاشو الخشب والعاج ، والحفارون ، وصناع المنمنمات ، والنساجون ، وخراطو الحديد ، والخزافون ، والصائغون ، وصناع السلاح ، والجواهرية - كل أولئك احتفظوا بالمهارات القديمة التي كانت لأهل العصور الوسطى وإن نحووا إلى توضحية الذوق والشكل في سبيل الزخرف المعقد . ورسم كثير من المصورين تصميمات للكلشيات الخشبية بعناية فائقة كأنهم يرسمون صور الملوك . وعكف رسامو الكلشيات من أمثال هانز لوتزبورجر البازل على أعمالهم بتفان يليق بمصور كدورر . وبلغ صائغو نورمبرج وميونخ وفيينا القمة بين أهل الحرفة ، وكان في وسع صائغ كفنترل يامنزر أن يتحدى رجلا كتشليين . وحوالي عام ١٥٤٧ بدأ الفنانون الألمان يرسمون الزجاج بألوان المينا ، وهكذا اتخذت الألوان والنوافذ أشكالاً وتصميمات غنية رغم فجاحتها ، واستطاع البورجوازي السري أن يرى صورته وقد مزجت بألواح الزجاج في بيته .

واحتفظ المثلون الألمان بحبهم للتماثيل والنقوش البارزة المعدنية . فواصل أبناء بيتر فشر فنه . أما بيتر الإبن فصب لوحة برونزية لـ « أورفيوس ويوربديس » . وأما هانز فصمم تماثلاً جحلياً يسمى « نبع أبولو » لفناء قاعة مدينة نورمبرج ، وأما بول فينسب له عادة تماثيل لطيف من الخشب يعرف بعذراء نورمبرج : وصب بيتر فلوتنز الثورمبرجي نقوشاً بارزة رائعة مثلت الحسد ، والعدالة ، وساتورن ، وربة الرقص . ومن أمتع محتويات اللوفر تماثيل نصفي صنعه يواكيم ديشلر لأوتو هينريش ،

كونت بالأتين ، يبلغ ارتفاعه ست بوصات ونصفاً ، وعرضه مثل هذا لبدانته ، وله وجه هو وليد أعوام من النهم . هنا ترى الفكاهة الألمانية أكثر ما تكون انطلاقاً .

أما فخر الفن الألماني فقد ظل في التصوير . فقد أدرك هولبين دور ، ثم لحق بهما كراناخ ، وألف بالدونج جرين ، وألتدورفر ، وأمبرجر ، صفاً ثانياً مشرفاً . فأما هانز بالدونج جرين فقد اكتسب شهرته برسم لوحة للمذبح كاتدرائية فرايبورج ليم - برايسجاو ، ولكن لوحة العذارى ذات البغاء « أكثر جاذبية ، وتبدو فيها فتاة تيوتونية ممثلة لوجه ذات شعر ذهبي . وببغاء تنقر خديها . وأما كرستوفر أمبرجر فرسم صوراً أنيقة . ويحتفظ متحف ليل بلوحة « شارل الخامس » التي يبدو فيها ملخصاً . ذكياً . وفي أول عهده بالتعصب . وفي « صورة رجل » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو وجه مهذب دقيق القسمات . وأما ألبرشت ألتدورفر فيتميز بين هذه المجموعة الصغيرة بغنى مناظره الطبيعية . ففي لوحته « النديس جورج » يكاد الفارس والثنين يختفيان وسط محيط من الشجر المتراحم . وحتى لوحته « معركة أرابيلا » يتوه فيها الجيشان المقتتلان وسط الكثير من الأبراج والجبال والمياه والسحاب والضياء . وتعد هاتان اللوحتان . مضافاً إليهما لوحته « وقفة خلال الهروب إلى مصر » . من طلائع التصوير الصادق للمناظر الطبيعية في عصرنا الحديث .

اتخذ لوكاس كراناخ الأب اسمه من مسقط رأسه كروناخ في فرانكونيا العليا . ولا نكاد نعرف عنه أكثر من هذا إلى أن عين في الثانية والثلاثين من عمره مصوراً للبلاط لدى الناحب فردريك الحكيم في فتنبرج (١٥٠٤) . وقد احتفظ بوظيفته في البلاط السكسوني . سواء في فتنبرج أو في فايمار . زهاء خمسين عاماً . وقابل لوثر ، وأعجب به ،

وصوره المرة بعد المرة ، ورسم لبعض كتابات المصلح صوراً كاريكاتورية للبابوات ، على أنه رسم أيضاً صوراً لبعض أقطاب الكاثوليك أمثال دوق ألفا وألبرشت رئيس أساقفة ماينز . وقد أوتى عقلية تجارية عملية . فحول مرسومه إلى مصنع لتصوير الأشخاص ورسم الصور الدينية . وإلى جوار الرسم باع الكتب والعقائر ، وأصبح عمدة لفتنبرج في عام ١٥٦٥ ، ثم مات شعبان مالا وأياماً .

كان التأثير الإيطالي خلال ذلك قد وصل إلى فتنبرج . وهو واضح في جمال الصور الدينية التي رسمها كراناخ ، وأوضح في صورته الأسطورية ، وأكثر وضوحاً من هذه وتلك في صورته العارية . وقد أصبح يجمع الآلهة الوثنية ينافس الآن مريم والمسيح والقديسين كما نافسهم في إيطاليا . بيد أن روح الفكاهة الألمانية يضيء الحيوية على التقليدي المتوارث ، وذلك بالسخرية من آلهة ماتوا ولم يعد هناك ما يخشى منهم . من ذلك أن لوحة كراناخ «حكم باريز» رسمت العاشق الطروادى (الذى أغوى هيلانه) بمضى إلى فراشه للنوم بينما الحسان المنتفضات من البرد ينتظرن حتى يستيقظ ويقضى بينهن . وفي لوحته «فينوس وكيوبيد» تبدو إلهة الحب في جسدها العارى كالعادة ، إلا من قبعة ضخمة - وكأن كراناخ يلمع في خبث إلى أن الرغبة وليدة العادة ، بحيث يمكن تهديتها بإضافة غير مألوفة . ومع ذلك فقد أقبل الناس على لوحة فينوس ، وأخرج كراناخ منها - بمساعدة غيره - أكثر من عشرة أشكال لتضيء في فرانكفورت ، ولتنجراد ، والقاعة البورجية ، والمتحف المتروبوليتانى للفن . . . وفي فرانكفورت تخفى فينوس مفاتيها ليستشفها الناظر من خلف خيوط رقيقة كنسيج العنكبوت ، وهذه أيضاً تستخدم في لوحة «لوكريشيا» بربلين ، إذ تتأهب في ابتهاج لافتداء شرفها بطعنة من خنجر صغير . وفي لوحة «حورية الربيع» (نيويورك) رسم كراناخ

هذه السيدة ذاتها راقدة على فراش من الأوراق الخضراء إلى جوار بركة . وفي متحف جنيف تصيح « يهوديت » ، التي لم تعد عارية ، بل مرتدية ثيابها لتقتل ، رافعة سيفها فوق رأس هولوفيرن المقطوع ، الذي يغمز بعينه في سخرية من سوء طالعها . وأخيراً تعود السيدة إلى عريها فتصيح حواء في لوحة « الفردوس » بفينا . ولوحة « آدم وحواء » بدرسدن ، ولوحة « حواء والحية » بشيكاغو التي ترى فيها أيلًا بخيلاً ينضم إلى جماعتها ويسميا باسمها . وكل هؤلاء العرايا تقريباً يتميزن بخلة تنقلهن من تهمة الإثارة الجنسية — هي فكاهة خبيثة . أو دفء في اللون ، أو رهاقة إيطالية في الخط ، أو نحافة في قوام الأنثى تخرج على المألوف الوطني ، فها هنا محاولة جريئة لاخترال بدانة المرأة الألمانية (الفراو) .

وصور الأشخاص التي تدفقت من أيدي كراناخ ومساعديه أكثر طرافة من نساءه العاريات المكررات ، وبعضها يضارع صور هولبين . فلوحة « أنا كسبنيان » هي الواقعية تخففها الرقة والأثواب الفاخرة وقبعة في شكل البالون . وقد جلس زوجها يوحنا كسبنيان إلى صورة أبدو حتى من صورة زوجته — فكل مثالية الأديب الإنساني الشاب انعكست في عينيه المفكرتين ورمز لها بكتاب يمسك به في شغف . وقد خلد عشرات من كبار القوم في الألوان الزيتية أو الطباشيرية في هذا الرسم الشعبي ، ولكن أحداً منهم لا يستحق الخلود كما يستحقه الطفل « أمير سكسونيا » (واشنطن) الذي يفيض براءة ورقة وعقائص ذهبية . وفي الطرف الآخر من الحياة صورة الدكتور يوحنا شونر وقد بدا رهيب الملامح ولكن في صورته صنعة رفيعة . ثم نلتقي هنا وهناك في صور كراناخ بحيوانات رائعة الشكل ، كلها عريق النسب ، وظباء تبدو طبيعية جداً حتى أن صديقاً للمصور زعم أن « الكلاب تنبح حين تراها » (١٨)

ولولا أن كراناخ وفق هذا التوفيق السريع الكبير لحاز أن يكون
فناناً أعظم . فكثرة رعاته وزعت عبقريته فلم يكن في وقته متسع
لينصرف بكل هذه العبقرية إلى عمل واحد فقط . لذلك لم يكن بدا حين
جاوز الحادية والثمانين أن يعتريه الكلال والتراخي . وأصبح رسمه الذي
كان في الماضي دقيقاً كرسم دورر مشوباً بالإهمال . وراح يتجنب رسم
التفاصيل ويكرر نفس الوجوه والعرايا والأشجار تكراراً أفقدها الحياة .
ولا مفر لنا في النهاية من أن نتفق مع السكهل دورر في هذا الحكم الذي
أصدره على كراناخ الشاب - « إن لوكاس يستطيع رسم الملامح
لا الروح » (١٩) .

وحين بلغ الثامنة والسبعين في ١٥٥٠ رسم لنفسه صورة بدا فيها
عضو مجلس المدينة والتاجر البدين أكثر منه المصور والحفار . في
رأس مربع قوى ، ولحية بيضاء مهيبية ، وأنف عريض وعينين ممتلئتين
كبريات وقوة شخصية . وبعد ثلاثة أعوام أسلم جسده للزمن . خلفاً
لثلاثة أبناء كلهم فنانون ، يوحنا لوكاس ، وهانز ، ولوكاس الابن
الذي نقلت لوحته « هر قول النائم » موضوعاً من رابليه إلى سويفت .
لإذ أظهرت المارد وهو يتجاهل في هدوء تلك السهام التي أصابته بالجهد
في طبقة المضغة الظاهرة من الأقزام المحيطين به . ولعل لوكاس الأب
كان يتجاهل بمثل هذا الهدوء نقد الناقد الذين نددوا به لمثله البورجوازية
وعجلته التي لا يراعى فيها الذمة ، وهو اليوم راقد تحت نصب قبره
الذي كتبت عليه عبارة مديح تحتل معنيين : « أسرع المصورين » ،
وبموته انقضى العصر الذهبي للتصوير الألماني . ولعل السبب الأساسي
في هذا الانحطاط هو حدة النزاع الديني أكثر من رفض البروتستنت
للتصوير الديني . ومن الجائز أن موجة من الفساد الخلقي كانت سبباً
في تبذل التصوير الألماني بعد ١٥٢٠ . فبدأت أجساد العرايا تلعب دوراً

قيادياً ، وانصرفت الصور - حتى المأخوذ منها من الكتاب المقدس - إلى موضوعات مثل سوسنة والشيوخ ، أو زوجة فوطيفار تراود يوسف ، أو بشيع في حمامها : وتراجع التصوير الألماني بعد موت كراناخ فترة قرنين من الزمان وارتد وراء قوى اللاهوت والحرب :

٥ - الطراز التيودورى ١٥١٧ - ٥٨

بدأ حكم هنرى الثامن برائعة من روائع الفن القوطى فى كنيسة هنرى السابع ، وانتهى بعمار النهضة المتمثل فى القصور الملكية ، وكان تغير الطراز انعكاساً صحيحاً لانتصار الدولة على الكنيسة . وتعطلت العمارة الكنسية زهاء مائة عام نتيجة لهجوم الحكومة على الأساقفة والأديار والموارد الكنسية .

كان هنرى السابع وهو يتوقع موته قد خصص ١٤٠٠٠٠ جنيه (١٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) لبناء كنيسة صغيرة للسيدة العذراء فى دير وستمنستر لتحتوى قبره . وهى رائعة فنية ، لا فى بنائها بل فى زخرفها ، ابتداء من المقبرة ذاتها إلى الحصاة الحجرية المتشابكة فى القبو المروحي ، التى وصفته بأنها « أعجب ما صنعت يد الإنسان فى فنون البناء » : ولما كان نصميم الكنيسة قوطياً وزخرفها ينتمى إلى طراز النهضة ، فإن فيها تتجلى بداية الطراز التيودورى أو المنمق . ولم يلبث هنرى الثامن ، الإنسانى الشاب ، أن افتتن بالأشكال المعمارية الكلاسيكية ، فاستقدم هو وولزى عدة فنانين إيطاليين إلى إنجلترا . وكلف أحدهم وهو بييترو توريجميانو بتصميم مقبرة والديه . ومن ثم أفاض المثال الفلورنسى على الثابوت المصنوع من الرخام الأبيض والحجر الأسود زخارف مسرفة سواء بالحفر أو البرونز المذهب : أشخاص ممتلئو الأبدان ، وأكاليل زهر غاية فى الرشاقة ، ونقوش بارزة للعذراء وشتى القديسين ، وملائكة جالسين على قمة المقبرة مادين أرجلهم الحميلة فى الفضاء ،

وفوق هذا كله تمثالان مضطجعان هنرى السابع وزوجته إليزابيث . وكان هذا نحتاً لا عهد لإنجلترا به قط ، ولم يزه في إنجلترا نحت من بعد . « هنا — كما قال فرانسس بيكون — ينزل الملك انشحيح الذى يحرص على البنسات لينفق الجنيئات في موته منزلاً أبهى مما كان ينزل حياً في أى من قصوره » (٢٠) .

لم يكن هنرى الثامن بالرجل الذى يسمح لأى إنسان بأن يدفن في أبهة تفوق أبهة دفنه . ففي عام ١٥١٨ تعاقد على أن يدفع لتوريجيانو ٢,٠٠٠ جنيه نظير تصميمه مقبرة « أعظم بالربع » من مقبرة أبيه (٢١) . ولكن لم يكتب لهذه المقبرة أن تتم ، ذلك أن الفنان أوتى كما أوتى الملك طبعاً ملكياً حاداً ، وغادر توريجيانو إنجلترا في سورة غضب (١٥١٩) . ولما عاد إليها لم يصف مزيداً إلى المقبرة الثانية . وبدلاً من ذلك صمم لكنيسة هنرى السابع مذبحاً عالياً ، وحاجزاً خلفه ، ومظلة فوقه ، تدمرها رجال كرومويل في عام ١٦٤٣ . وفي عام ١٥٢١ رحل توريجيانو إلى أسبانيا .

واستوفيت مهزلة الموت هذه حين كلف ولزى فلورنسيا آخر يدعى بنديتو دا روفتسانو بأن يبنى له مقبرة في كنيسة القديس جورج بوندزور . كتب هربرت لورد تشوربرى يقول : « إن تصميمها أفخم جداً من تصميم مقبرة هنرى السابع » (٢٢) . ولما سقط الكردينال توسل إلى الملك أن يسمح له على الأقل بالاحتفاظ بتمثاله ليوضع على مقبرة أكثر تواضعاً في ^{بورج} بورك . فأبى هنرى ، وصادر المقبرة كلها لتكون مثوى له ، وأمر الفنانين أن يحلوا تمثاله محل تمثال ولزى ، ولكنه شغل بمشكلات الدين والزواج ، ولم يتم قط بناء هذا الأثر الجنائزى . ثم أراد تشارلز الأول أن يدفن فيه . ولكن برلمان الذى ناصبه العداء باع الزخارف قطعة قطعة . فلم يبق منها سوى تابوت

الرخام الأسود ليؤلف آخر المطاف جزءاً من ضريح نلسن في كنيسة القديس بولس (١٨١٠) .

ونحن إذا استثنينا هذه الجهود الفنية ، وما زينت به كنيسة الكلية الملكية بكمبريدج من حجاب خشبي ومقاعد وزجاج معشق وقبو . وكلها رائع فاخر ، وجدنا أن المعمار البارز في هذا العصر كرس لإضفاء العظمة على بيوت النبلاء الريفية حتى تصبح قصوراً أشبه بقصور الحان قائمة وسط حقول إنجلترا وغاباتها ؛ وكان المعماريون هنا لإنجليزاً ، ولكن اثني عشر إيطالياً جندوا لأشغال الزخرفة . هنا ترى واجهة عريضة عرضاً مهيباً امتزج فيها الفن القوطي بفن النهضة ، وبوابة ذات أبراج تفضى إلى فناء ، وقاعة فسيحة للاحتفالات المكتظة بالناس ، وببيت سلم ضخم يصنع عادة من الخشب المنقوش ، وحجرات تزينها الصور الجدارية أو قطع النسيج المرسومة وتضيئها نوافذ شبكية أو ناتئة ، وحول المباني حديقة ومسرح للغزلان ومن خلفها أرض للصيد - تلك هي فكرة الشريف الإنجليزى المسبقة ، الشكاكة . عن النعيم .

وأشهر قصور النبلاء التيودورية هذه هو هامبتن كورت ، الذى بناه ولزى لنفسه (١٥١٥) وأوصى به للمليكة وهو في رهبة منه (١٥٢٥) . ولا يختص بفضله بنائه معمارى واحد ، بل لفيث من كبار البنائين الإنجليز الذين شيدوه أساساً على الطراز القوطى العمودى ووفق تصميم وسيط فيه الخندق والأبراج والأسوار ذوات الفوهات ؛ وأضاف جوفانى دا مايانو لمسة من لمسات فن النهضة تمثلت في حلى مستديرة من التراكوتا على الواجهة . وقد وصف دوق فورتمبرج الذى زار إنجلترا في ١٥٩٢ هامبتن كورت هذا بأنه أفخم قصور الدنيا قاطبة (٢١) . وهناك قصور أخرى لا تقل عنه كثيراً في الفخامة ، مثل صاتون بليس في صرى ، الذى بنى للسر رتشارد وستون (١٥٢١ - ٢٧) ؛ وقصر

نوستشن الذى بدىء بتشيدده هنرى الثامن فى ١٥٣٨ على نطاق إمبراطورى .
تقول رواية قديمة إنه « جلب له أمهر الصناع والمعماريين والنحاتين
والمثالين من شتى الأمم ، إيطاليين وفرنسيين وهولنديين وإنجليزاً من
وطنه ، فأثروا كلهم بمثال معجز من فنهـم فى زخرفة القصر . وزينوه
من الداخل والخارج بمائيل تذكرنا بآثار الرومان القديمة من حيث المحاكاة
الدقيقة لها . ولكنها فيما عدا ذلك تفوقها إتقاناً » . (٢٥) واستخدم مائتان
وثلاثون رجلاً بصفة مستمرة فى بناء هذا القصر الذى قصد به أن يفوق
بهاؤه بهاء قصرى فرانسوا الأول فى شامبور وفونتبليو . ونادراً ما بلغ
الملوك الإنجليز هذا الثراء ، أو الشعب الإنجليزى هذا الفقر . ومات
هنرى قبل الفراغ من قصر نوستشن . وقد جعلته اليزابث مقرها المحبوب .
ووهبه تشارلز الثانى لخليلته اللىدى كاسلمين (١٦٧٠) فأمرت بهدمه .
وباعت أجزاءه قطعاً ، لأنها رأت فى هذا الوسيلة الوحيدة لتحويل هذا
العبء المالى إلى ثروة .

٦ — هولبين الابن : ١٤٩٧ — ١٥٤٣

ما أشد عجز الألفاظ أمام عمل من أعمال الفن ! فكل فن يقاوم
بنجاح ترجمته إلى أى وسيط آخر . ذلك أن له سمة لا صفة به إما أن
تتكلم عن نفسها أولاً تتكلم على الإطلاق . وليس فى طاقة التاريخ
إلا أن يسجل كبار الفنانين وآياتهم الفنية . أما توصيل هذه الآيات
فذلك ما يعجز عنه . والجلوس فى صمت أمام لوحة هولبين التى تمثل
زوجته وأبناءه خير من ترجمة لحياة الفنان . ومع ذلك . . .

كان هولبين محظوظاً فى نسبه عنه فى زمانه . فقد كان أبوه من
كبار المصورين فى أوجزبورج . ومنه تعلم هانز مبادئ التصوير . ومن
هانز بوركمير شيئاً من الجمال والتشكيل الإيطاليين . وفى عام ١٥١٢

رسم أربع حشوات للمذبح محفوظة الآن بمتحف أوجزبورج — متوسطة الجودة حقاً ، ولكنها جيدة إلى حد مدهش بالنسبة لغالام في الخامسة عشرة . وبعد عامين ارتحل هو وأخوه أمبروز ، وهو رسام أيضاً ، إلى بال . ولعل أباهما كان قد غالى في التشبث بأسلوبه الذى مازال قوطياً ، أو لعله لم يتوافر فى أوجزبورج من مال الطبقة المتعلمة ما يكفى للإعالة لقلة من الفنانين ، على أى حال قليلا ما يتعلق الشباب والعصرية بالبقاء فى الوطن . وفى بال اكتشف الغلامان أن الحرية امتحان . ورسم هانز صوراً لعدة كتب من بينها كتاب لـ « فى مدح الحمامة » ، وقام ببعض أشغال الطلاب البسيطة ، وصنع لافتة لأحد المدرسين ، وزخرف رأس مائدة بمشاهد حية من قصة القديس المجهول الاسم — ذلك النكرة الذى يسهل تناوله ، والذى اتهم بكل الجباث المجهولة ولم ينبس بكلمة دفاعاً عن نفسه . وكان جزاء هانز على هذا العمل مهمة مثمرة وكلت إليه — هى رسم لوحات للعمدة يعقوب ماير وزوجته (١٥١٧) . وذاع صيت هذه اللوحات ، وما لبث يعقوب هرتنشتين أن استقدم هانز إلى لوسرن ، وهناك رسم صوراً جصية على واجهة دار رب البيت وجدرانها ، ورسم لوحة بنسخت هرتنشتين المحفوظة الآن بمتحف المتروبوليتان بنيويورك . ولعله انتقل من لوسرن إلى إيطاليا ، فقد أفصح عنه منذ الآن عن تأثير إيطالى من حيث دقة التشريح والحلقيات المعمارية وتكييف الضوء . فلما عاد إلى بال وقد بلغ الثانية والعشرين أقام لنفسه مرسماً وتزوج من أرملة (١٥١٩) . وفى هذه السنة مات أخوه ، وفى ١٥٢٤ مات أبوهما .

وامتزجت الواقعية الألمانية بالعمارة الرومانسكية والزخارف الكلاسيكية فى الصور الدينية التى راح هولبين يرسمها الآن . وأنها لواقعية يجفل لها الناظر — وتذكر بمانتينيا — تلك التى تطالعنا فى لوحة « المسيح فى القبر » ،

الجسد ليس سوى عظم وجلد ، والعينان مفتوحتان بصورة رهيبة ، والشعر أشعث ، والفم فاغر في جهد أخير للتنفس ، كل هذا يبدو موتاً لا رجعة فيه ، فلا عجب أن قال دستوفسكى عن الصورة أنها قد تدمر إيمان المرء (٢٦) . وحوالى هذه الفترة رسم هولبين صوراً جدارية لقاعة المجلس الكبير فى بال . فسر بها أعضاء المجلس ، وكلفه أحدهم بأن يرسم لوحة مذبح لدير كارتوزى . وهذه اللوحة ، واسمها «آلام المسيح» أوديت فى حوادث الشغب التى قامت فى ١٥٢٩ لتحطيم الصور ، ولكن أنقذ منها مصراعان ، وأهديا لكاتدرائية فرايبورج - إيم - برايسجاو . وهما يستعيران الكثير من بالدونج جرين ، ولكنهما يتفردان بقوة تتجلى فى تلك الحركة العجيبة للضوء المنبعث من «الطفل» . وفى عام ١٥٢٢ طلب كاهن مدينة بال لوحة مذبح أخرى . وقد استخدم هولبين فى رسم هذه «المادونا» ذات الجمال الهادى - والمحفوظة بمتحف الفن بسولوتورن - زوجته وابنه نموذجين ، وكانت الزوجة يومها امرأة ذات حسن متواضع لم تمسه المأساة بعد . ولعله حوالى هذه الفترة (٢٧) أخرج رائحته الدينية «العذراء والطفل مع أسرة العمدة ماير» - وهى فريدة تكويناً وخطاً ولوناً ، حارة عاطفة . وفى وسعنا أن نفهم فى تعاطف أكثر صلاة العمدة للعذراء إذا علمنا أن ولديه المرسومين عند قدميه ، وإحدى الزوجتين الجاثيتين إلى اليمين ، كانوا قد فارقوا الحياة ٥

ولكن أجز هذه الصور الدينية كان ضئيلاً بالقياس إلى ما تطلبت من عناية وجهد . وأما صور الأشخاص فأربح للمصور ، الذى اقتضاه ازدياد أفراد أسرته مزيداً من نفقات إعاشتهم . ففى عام ١٥١٩ رسم هولبين صورة للعالم الشاب بونيفاكوس أمرباخ - وجه نبيل ما زال محتفظاً بالمثالية رغم النظرة الثاقبة إلى العالم . وحوالى عام ١٥٢٢ رسم لوحة للطباع الكبير فروبن - رجل متفان فى عمله ، قلق ، برته

الحياة نتيجة جهوده الخلاقة . وعن طريق فروين عرف هولبين إرزمس .
ففى عام ١٥٢٣ رسم صورتين من صوره الكثيرة للأديب الإنسانى
الذى غشيه الحزن ، وفى لوحته التى بدا فيها إرزمس فى ثلاثة أرباع
قامته ، وفق الفنان ، وقد بلغت قدراته غايتها ، فى تفهم روح رجل
عمر أكثر مما ينبغى ، فالمرض ولوثر عمقا تجاعيد وجهه واكتئاب عينيه .
أما الصورة الجانبية المحفوظة بمجمع الفن ببال فيبدو فيها أكثر هدوءاً
وحياة ، فالأنف ينبرى للنزال كأنه سيف مجالد روماني . ولعل
المخطوط الذى يرى تحت قلمه مسودة لكتابه *De libero arbitrio*
(١٥٢٤) الذى بدأ يدخل به صفوف المعارضين للوثر . وأكبر الظن
أن هولبين صور إرزمس مرة أخرى فى عام ١٥٢٤ صورته المحفوظة
بمتحف اللوفر ، وهى أفضل صورة قاطبة ، ونظرة إلى هذا الوجه
العميق الذى طهره الألم تذكر المرء بتعقيب لينزار فيه لإدراك وتفهم
« لقد كان إرزمس أحد أولئك الذين كان فخرهم فى أن يفهموا الكثير
وينجزوا بالقليل » (٢٨) .

وحوالى ١٥٢٣ صور هولبين نفسه وقد بلغ السادسة والعشرين وبدأت
عليه آثار النعمة ، ولكن النظرة الباردة توحى ببعض الامتناع المناضل
مما منى به فى الحياة من صدمات . وترميه الرواية بادمان غير مفرط على
الخمر والنساء ، وتصوره رجلاً غير سعيد مع زوجته . ويبدو أنه كان
يشارك لوثر بعض آرائه . فلوحاته الخشبية المحفورة « رقصة الموت »
(حوالى ١٥٢٥) تهجو الاكليروس - ولكن هذا فعله حتى الاكليروس
أنفسهم فى ذلك العهد . وتصور هذه المجموعة الموت يتعقب خطوات
كل رجل أو امرأة أو طبقة - آدم ، وحواء ، والإمبراطور ، ونيبلا ،
وطبيباً ، وراهباً ، وكاهناً ، وبابا ، ومليونيراً ، ومنجماً ، ودوقة ،
ومهرجاً ، ومقامراً ، ولصاً - كلهم فى طريقهم إلى الدينونة الأخيرة ،

واللوحة عمل فنى يضارع فى قوته أى عمل لدورر استخدم فيه هذا الوسيط . وإذا استثنينا هذه الرائعة من روائع الرسم ، وعذراء ماير ، لم نكتبن فى هولبين أى عاطفة دينية واضحة . ولعله تشرب بعض التشكك من إرزمس وإنساني بال(٢٩). لقد كان اهتمامه بالتشريح أشد من اهتمامه بالدين .

ولقد عصفت حركة الإصلاح البروتستنتى بسوق صوره فى بال على الرغم من رضائه المرجح عنها . فلم تعد تطلب منه صور دينية . وتوقف دفع أجور اللوحات التى رسمها لقاعة المجلس . أما سرقة القوم فقد لاذوا بالعزلة والشح إذ روعتهم حرب الفلاحين ، ورأوا أن الوقت غير مناسب للتصوير . كتب إرزمس من بال فى ١٥٢٦ يقول : « إن الفنون تتجمد هنا » (٣٠) . وقد زود هولبين بخطابات قدمه فيها لأصدقائه فى أنتورب ولندن ، وانطلق هولبين إلى بلاد الشمال سعياً وراء المال بعد أن ترك أسرته فى البيت . وزار كوينتين ماسيس ، وما من شك فى أنهما تبادلا الرأى فى إرزمس . ومن أنتورب عبر البحر إلى إنجلترا . وضمن له خطاب إرزمس لقاء حاراً من تومس مور الذى هباً له مسكناً فى بيته بتشلسى ، وهناك رسم صورته (١٥٢٦) المحفوظة الآن بصالة فريك فى بنويورك . ويرى المؤرخ ، بادراكه المؤخر . فى العينين المتوترتين اللتين يغشاها بعض الاكتئاب إيداناً بورع الشهيد وصلابته . أما أعجب ما فى اللوحة كما تراها بصيرة الفنان فهو فراء السكم وتلافيفه . وفى عام ١٥٢٧ رسم هولبين « تومس مور وأسرته » - وهى أقدم لوحة جماعية معروفة فى الفن غير الدينى عبر الألب .

وفى أواخر عام ١٥٢٨ عاد هولبين إلى بال بعد أن كسب بضعة جنيهات وشلنات ، وأعطى إرزمس نسخة من لوحة « مور وأسرته » ثم لحق بزوجته من جديد . وعكف الآن على رسم صورة من أعظم

صوره وأصدقها ، ترينا أسرته بواقعية لم يضمن بها على نفسه . فكل وجه من الوجوه الثلاثة قد غشيه الحزن ، الفتاة مستسلمة بل تكاد تكون يائسة ، والصبي يتطلع إلى أمه مكتئباً ، أما هي فتمرّقهما بأسى وحب انعكسا انعكاساً عميقاً في عينيها — أسى زوجة فقدت حب زوجها ، وحب أم لا يربطها بالحياة سوى ولديها . وترك هولبين أسرته ثانية بعد ثلاثة أعوام من رسمه هذا الاتهام الرائع لشخصه .

ورسم خلال إقامته هذه في بال لوحة أخرى لفروين ، وست صور لإرزمس يعوزها ما تميزت به صور ١٥٢٣ - ٢٤ من عمق شديد . وجدد مجلس المدينة طلب رسوم جصية لحجراته ، ولكنه شجب الصور الدينية كافة مستسلماً لمخطمي الصور المنتصرين ، وأقوى بأن « الله لعن جميع من يصنعونها » (٣١) . وهبط الطلب على الصور ، وفي عام ١٥٣٢ عاد هولبين إلى إنجلترا .

وهناك رسم صوراً بلغت من الكثرة حداً ظهر معه معظم الأشخاص ، الذين سيطروا على مسرح الأحداث في إنجلترا خلال تلك السنوات الصاخبة ، وقد دبت فيهم الحياة بفضل ريشة هولبين الساحرة . ففي مكتبة الملكة بقصر وندزورسبه وثمانون رسماً تخطيطياً بالفحم أو الطباشير ، بعضها أعد لرسوم هزلية ، وأكثرها للوحات ، والظاهر أن الفنان لم يحتاج لأكثر من جلسة أو جلستين من أصحاب رسومه ، ثم صورهم على لوحاته نقلاً عن هذه الرسوم . وسعى التجار الهانسيون في لندن إلى فنه ، ولكنهم لم يوحوا إليه بأفضل ما عنده . وقد رسم لقاعة نقابة الهانسين صورتين جداريتين ، محفوظتين في نسخ أو رسوم لها فقط ، مثلت إحداهما « انتصار الفقر » ، والأخرى : « انتصار الغنى » . وكلتاها معجزة في الشخصية الممبزة ، والحركة الحية ، والتصميم المتناسك ، وهما توضحان شعار النقابة — « إن الذهب أبو الفرج وابن الهم ، المفتقر إليه حزين ، والمالك له قلق » (٣٢) .

وفي عام ١٥٣٤ أسلم تومس كرمويل وجهه الجامد وجسده الهش
لريشة هولبين ، وكان مزماً أن يكون بشخصه مصداق هذه الحكمة •
وعن طريقه اتصل الفنان بأرفع الشخصيات في البلاط . ورسم لوحة
« السفراء الفرنسيين » ووفق توفيقاً غير عادي في تصوير واحد مهم
يدعى شارل دسواييه ، إذ كشف عن الرجل المتوارى خلف رداء
المنصب وشارته . وهناك أربعة آخرون - هم السر هنرى جلفورد (مراقب
البيت الملكي) ، والسر نيكولاس كاريو (قيم الاسطبلات الملكية) .
وروبرت تشيسمان (بازدار الملك) والدكتور جون تشيمبرز (طبيب
الملك) - هؤلاء الأربعة تستشف في صورهم صفاقة في الجلد لولاها
لاستحال عليهم العيش في مأمن مع هذا الملك الناري الطبع . وقد أصبح
هولبين واحداً منهم حوالي ١٥٣٧ بوصفه المصور الرسمي للبلاط . وأفرد
له مرسماً خاص في قصر هوايتبول ، ونزل مسكناً مريحاً . وكان له
كغيره عشيقات وأبناء غير شرعيين ، وغدا يرفل في الخبز والأثواب
البهية (٣٣) . وطلب إليه أن يزخرف الحجرات ، ويصمم الأثواب
الرسمية ، وأغلفة الكتب ، والأسلحة ، ومفارش المائدة ، والأختام .
والأزرار والمشابك الملكية ، والأحجار الكريمة التي كان هنرى يهديها
إلى زوجاته ، وفي عام ١٥٣٨ أوفده الملك إلى بروكسل ليصور الأميرة
كرستين الدنمركية ، وقد تبين أن فيها كثيراً من الفتنة ، وود هنرى
لو اتخذها زوجة ، لولا أنها اختارت الدوق فرانسوا اللوريني بدلاً منه ،
ولعلها آثرت أن تعلق في قاعة للصور عن أن يقطع رأسها . وانتهر
هولبين الفرصة لزيارة بال زيارة قصيرة . وهناك عين راتباً سنوياً
لزوجته قدره أربعون جلدراً (١,٠٠٠ دولار ؟) ثم أسرع بالعودة
إلى لندن . وبعد عودته بقليل كلف بأن يصور آن كليفر ، وكاد
هولبين أن يتنبأ بمصيرها في العينين الحزينتين اللتين تطالعانك من
صورتها المحفوظة الآن بالوفر .

أما الملك فقد رسم له عدة لوحات كبيرة فقدت كلها تقريباً .
وبقيت منها واحدة في قاعة « باربر سيرجنز » بلندن : « هنرى الثامن
يمنح مرسوم شركة تضامنية لشركة باربر سيرجنز » ويرى فيها هنرى
وقد طغى على المشهد في أثوابه الرسمية : ورسم الفنان صوراً جذابة
لزوجة هنرى الثالثة جين سيمور ، ولزوجته الخامسة كاترين هواردي.
وكان إذا جلس أو وقف له هنرى نفسه يرتفع إلى مستوى التحدى ويخرج
لوحات لا يفوقها من إنتاجه سوى صور لإرمس المحفوظة باللوغروبال .
ولوحة عام ١٥٢٦ تظهر الملك بدينا بدانة الثيوتون ، مزهواً زهوهم .
وأعجب بها هنرى على الرغم منه ، وكلف هوليين بتصوير الأسرة المالكة صورة
جصية ملونة بقصر وايت هول . وقد دمرت النيران هذه الصورة الإدارية
عام ١٦٩٨ . ولكن نسخة أخرجت منها عام ١٦٦٧ لتشارلز الثاني تشف
عن براعة التصميم : ففي أعلى اليسار يرى هنرى السابع ، تقياً متواضعاً ،
وفي أسفل ولده يلوح بشعارات السلطة ويمد ساقيه كأنه العملاق . وإلى
اليمن أمه وزوجته الثالثة ، وفي الوسط أثر من الرخام يفصل باللاتينية
فضائل الملوك . وقد فصل وجه هنرى الثامن بواقعيه ترددت بسببها أسطورة
تحكى أن أشخاصاً دخلوا الحجرة وحسبوا أن الصورة هى الملك الحى
ذاته . وفي عام ١٥٤٠ رسم هوليين صورة أشد وقعاً في النفس حتى من
هذه . وهى « هنرى الثامن في ثياب العرس . » (١٥٤٢)
أظهروا لنا الرسام هنرى في انحلال عقله وجسده . وكان عمل ربة الانتقام
هنا بطيئاً متأنياً : فمدت في ثأر الآلهة ، وبدلاً من الميتة الهادئة أو المبالغته
قضت عليه بانحلال طويل مذل .

وهناك صورتان جميلتان تكفران عن سيئات قاعة الصور الملكية ،
إحدهما للأمير إدوارد في الثانية من عمره وهو يفيض براءة ، والأخرى
لإدوارد في السادسة (بمتحف المتروبوليتان للفنون) . وهذه اللوحة الثمانية

بهجة للناظرين . وفى وسعنا أن نحكم على فن هولبين حين نراه خلال سنة أو سنتين يصور فى غير إحجام كبرياء الأب البدين ، ثم يلتقط بمثل هذه البراعة المحيرة وداعة الابن البريئة .

وصور الفنان نفسه مرة أخرى حين بلغ الخامسة والأربعين (١٥٤٢) ، وبذات الموضوعية التى رسم بها الملك : رجلاً مرتاباً مشاكساً ذا شعر ولحية وخطهما الشيب وبدا عليهما الإهمال ؛ ثم مرة أخرى عام ١٥٤٣ فى صورة مستديرة تظهره فى حالة أرق وألطف . فى ذلك العام اجتاح الطاعون لندن واختاره واحداً من ضحايا .

كان من الناحية التقنية واحداً من عظماء المصورين . فهو يرى فى تدقيق بالغ ، ويرسم كما يرى ، وهو يمسك بكل خط ، أو لون ، أو موقف ، بكل زاوية أو تغير فى الضوء ، يمكن أن يكشف عن دلالة أو مغزى ، ويثبته على الورق أو القماش أو الخشب أو الجدار وأى دقة فى الخطوط ، وعمق ونعومة ودفء فى الألوان ، وبراعة فى ترتيب التفاصيل ليؤلف بينها تأليفاً موحداً ! ولكننا فى كثير من اللوحات ، التى لم يكن الهدف منها تصوير الشخص بل تقاضى الأجر ، نفتقد ذلك التعاطف القادر على رؤية نفس الإنسان الحفية وعلى مشاركتها شعورها . هذا التعاطف نجده فى صور إرزمس المحفوظة باللوهر وبال ، وفى صورة أسرته ، وإذا استثنينا عذراء ماير ، فإننا نفتقد المثالية التى سمت بالواقعية فى لوحة فان إيك « عبادة الحتمل » . وقد قصر به عدم مبالاته بالدين عن بلوغ السمو الذى بلغه جرونفالد ، وأبعده عن دور الذى ظل على الدوام محتفظاً بإحدى قدميه فى العصور الوسطى . ولم يكن هولبين فنان النهضة الخالص كتيشان ، ولا فنان الإصلاح البروتستنتى الخالص ككراناخ ، لقد كان ألمانياً - هولندياً - فلمنكياً - إنجليزياً فى واقعيته وإحساسه العملى . ولعل نجاحه حال دون دخول مبادئ التصوير الإيطالية وورقته

دخولا قوياً إلى إنجلترا . وبعد موته انتصرت البيورتانية على العاطفة الإليزابيثية ، وراح فن التصوير الإنجليزي يتعثر حتى جاء هوجارث . وفي الوقت ذاته فارق المجد التصوير الألماني . ولم يكن بد من أن يتدفق فوق أوروبا الوسطى سيل من الهمجية قبل أن يعود الإحساس بالجمال إلى التعبير عن نفسه هناك مرة أخرى .

٧ - الفن في أسبانيا والبرتغال : ١٥١٥ - ٥٥

لم تعرف أسبانيا قط النهضة بالمعنى الإيطالي الغنى على الرغم من ظهور الحريكو وفيلاسكيز ، وسرفانتيس وكالديرون . فثروتها التي جاءت من أقطار نائية أضفت على ثقافتها المسيحية زخارف جديدة ، وأتاحت لها إجمال العطاء للوطنيين النابغين في الأدب والفن ، ولكنها لم تتدفق كما تدفقت الثروة في إيطاليا وفرنسا إلى أى جهود مثيرة لاستعادة تلك الحضارة الوثنية التي ازدان بها عالم البحر المتوسط قبل المسيح وبعده . والتي أنجبت سنيكا ولوكان ومارتيال وكونتيليان وتراجان وهادريان على أرض أسبانيا ذاتها . لقد طغى على ذكرى العهد الكلاسيكي طول الصراع بين المسيحية الإسبانية والمغاربة ، وكل الذكريات المحيطة كانت ذكريات ذلك الانتصار المتطاوّل ، وغدا الإيمان الذي حققه مقترناً بتلك الذكرى الفخور لا ينفصل عنها . وبينما كانت الدولة تذلل الكنيسة في كل أرجاء أوروبا الأخرى ، كان النظام الكنسي في أسبانيا يزداد قوة على الزمن . فتحدى البابوية وتجاهلها ، حتى حين كان الأسبان يحكمون الفاتيكان ، وعاش رغم الاستبداد الورع الذي فرضه فرديناند وشارل الخامس وفيليب الثاني ، ثم سيطر على كل نواحي الحياة الأسبانية . وكانت الكنيسة في أسبانيا الراعي الوحيد تقريباً للفنون ، ومن ثم فقد قررت اللحن الذي تريده ، وحددت الموضوعات . وجعلت الفن كالفلسفة خادماً للاهوت . وعينت محاكم التفتيش الإسبانية مفتشين

لتحريم العرى أو البذاءة أو الوثنية أو الهرطقة في الفن ، ولتحديد طريقة تناول المواضيع المقدسة في النحت والتصوير ، ولتوجيه الفن الأسباني وجهة التبصير بالإيمان وتثيئته .

ومع ذلك فقد كان التأثير الإيطالي يتدفق إلى أسبانيا . فارتقاء الأسبان عرش البابوية وفتح ملوك الأسبان نابلي وميلان ، وحملات الجيوش الأسبانية وبعثات رجال الدولة والكنيسة إلى إيطاليا ، والتجارة الرائجة بين أسبانيا والثغور الإيطالية ، وزيارة الفنانين الأسبان أمثال فورمنت وبيروجوتى وابنه لإيطاليا ، والفنانين الإيطاليين أمثال توريغيانو وليوني ليوني لأسبانيا — هذه العوامل كلها أثرت في الفن الأسباني من حيث طرائقه وزخرفته وأسلوبه ، ولم تؤثر تأثيراً يذكر في روحه أو موضوعه ؛ أثرت في التصوير أكثر مما أثرت في النحت ، وكانت أقل ما تكون تأثيراً في العمارة .

وسيطرت الكاتدرائيات على مشاهد الريف والمدن سيطرة الدين على الحياة . فالرحلة في أسبانيا أشبه بالحج من هيكل إلى آخر من هذه الهياكل الجبارة . وضخامتها المهيبة ، وغنى زخارفها الداخلية ، وصمت أبنائها الذى يلفه ضوء خافت ، وأشغال الحجر المكرسة التى تبني بها أروقتها ، كلها تبرز البساطة والفقر الوضحيين في مساكن الآجر الحميلة المتزاخمة في أسفلها وهى تتطلع إليها كأنها الوعد بعالم أفضل . وظل الطراز القوطى هو السائد في الكاتدرائيات الشائعة التى ارتفعت في سماء سلمنقة (١٥١٣) وسقوية (١٤٢٢) ، ولكن المعماري ديجو دى سيلوى ، وكان ابن نحات قوطى الفن ، صمم الأجزاء الداخلية من كاتدرائية غرناطة بأعمدة وتيجان كلاسيكية ، وتوج التصميم القوطى بقبة كلاسيكية (١٥٢٥) . وأزاح طراز النهضة الإيطالية الطراز القوطى إزاحة تامة في قصر شارل الخامس بغرناطة . وكان شارل قد وبخ أسقف قرطبة

على إتلافه المسجد الكبير ببناء كنيسة مسيحية داخل أعمدته البالغ عددها ٨٥٠ (٣٤) ، ولكنه ارتكب ذنباً لا يكاد يقل فداحة حين هدم بعض قاعات قصر الحمراء وأبنيته ليفسح مكاناً لبناء كان من الجائز أن يتقبل المرء ضخامته الصارمة وتماثله السخيف دون تأذلو أنه قام وسط أبنية مماثلة له في روما ، ولكنه ظهر نابياً أشد النبوة وسط القلعة المغربية برشاقتها الهشة وتنوعها البهيج .

وظهر شيء من ميل المغاربة للزخارف المعمارية في طراز « الأطباق » الذى طبع أكثر ما طبع المعمار المدنى في ذلك العهد . وقد اشتق اسمه من الشبه بينه وبين الحلى المعقدة الرقيقة التى كان صائغو الفضة (البلاطير) أو الذهب يحلون بها آنية المائدة وغيرها من تحف فنهم . وقد ملأ هذا الطراز قمم وجوانب البوابات والنوافذ بأحجار ملتفة عربية الطراز ، وحفر الأعمدة أو لولها أو زهرها بخيال إسلامى غريب ، وثقب النوافذ المصتبة والدرابزينات بورق شجر وبوشى من الرخام . وكان هذا الطراز طابع كنيسة أوبيسبو في مدريد ، وكنيسة سانتو توماس في أفيسلا ، وخورس كاتدرائية قرطبة . وقد أطلق لنفسه العنان في قاعة مدينة إشبيلية (١٥٢٦) . واقتبست البرتغال هذا الطراز على بوابة حفلت بالحلى وأعمدة نقشت بالزخارف في دير سانتا ماريا الفخم في بيليم (١٥١٧) ، وحمله شارل الخامس إلى الأراضى المنخفضة وألمانيا حيث نشر طابعه على قاعات مدينتى أنتورب ولبدن وقلعة هيدلبرج . ولكن فيليب الثانى وجد في هذا الطراز إسرافاً في الزخرف لا يطيقه ذوقه ، فمات موتاً مبكراً تحت عبسائه .

أما النحت الأسبانى فقد خضع للمد الإيطالى المتعاضم بأيسر مما خضع المعمار . فبعد أن كسر بيترى توريجيانو أنف ميكلائجلو في فلورنسة ، وتحدى هنرى الثامن في لندن ، استقر في إشبيلية (١٥٢١) وصنع من

الطين المحروق تمثالا غليظاً للقديس جيروم ، ارتأى فيه جويار رأياً خاطئاً ، هو أنه أعظم أعمال النحت الحديث (٣٥). وأحس توريجيانو أنه نقد أجراً حقيراً لقاء صنعه تمثالا للعدراء ، فحطمه شذر مذر ، وقبضت عليه محكمة التفتيش فمات في سجونها (٣٦). أما داميان فورمنت فقد حمل روح النهضة على إزميله وفي عباراته الطنانة بعد عودته إلى أراجون من إيطاليا . كان يصف نفسه بأنه « قريع فيدياس وبراكسيتيليس » . وتقبله الناس بالقدر الذى قدر به نفسه ، فسمحت له السلطات الكنسية بحفر صور له ولزوجته على قاعدة حاجز المذبح الخلفى الذى صنعه لدير مونتي أراجون . ثم صنع من الممرر لكنيسة نويسترا سينورا ديل بيلار فى سرقسطة رافدة مذبح كبيرة بالنقوش ضئيلة البروز ، مزج فيها العناصر القوطية بعناصر النهضة ، والتصوير بالنحت ، واللون بالشكل . وكرس فورمنت لرافدة مذبح أخرى فى كاتدرائية وشقة فى السنوات الثلاث عشرة الباقية من حياته (١٥٢٠ - ١٥٣٣) .

وكما أن بدرو بروجويتي هيمن على التصوير الأسبانى فى نصف القرن السابق على شارل الخامس ، فكذلك أصبح ابنه أكبر النحاتين الأسبان فى العهد الذى نحن بصددده . وقد تعلم ألونسو فن اللون من أبيه ، وذهب إلى إيطاليا واشتغل مع رفايل مصوراً ، ومع برامانتى وميكلانجيلو مثالا . فلما عاد إلى أسبانيا (١٥٢٠) جلب معه ولع ميكلانجيلو بالوجوه تلتقط فى حدة الانفعال أو عنف المواقف . وعينه شارل مثالا ومصوراً للبلاط . وظل ست سنوات فى بلد الوليد ينحت من الخشب حجائباً للمذبح كنيسة سان بنيتو إل ريال ، طوله اثنان وأربعون قدماً وعرضه ثلاثون ، ولم يبق منه إلا قطع متناثرة ، أهمها صورة للقديس سباستيان ذات ألوان حية ، والدم يتدفق من جروحه . وفى ١٥٣٥ اشترك مع أهم منافسيه . فيليبي دبورجون ، فى نقش مقاعد للمرتلين فى كاتدرائية طليطلة ، وهنا

أيضاً كان أسلوب ميكلائنجلو هو الموجه ليدته ، والمنجي بطراز الباروك في أسبانيا . ولما قارب الثمانين كلف أن يقيم في مستشفى القديس يوحنا بطليطلة أثراً تذكاريّاً لمؤسسة الكردينال جوان دى تافيرا . وأخذ معه ابنه ألونسو مساعداً ، وأبدع إحدى الروائع الكبرى في النحت الأسباني . ثم مات خلال هذه المحاولة وقد بلغ الخامسة والسبعين (١٥٦١) .

أما التصوير الأسباني الذي كان لا يزال آتئذ تحت وصاية إيطاليا وفلاندر فلم يجد بفنان بارز في عهد شارل الخامس . وكان الإمبراطور يؤثر المصورين الأجانب ، فاستقدم أنطونيس مور ليصور أعيان الأسبان ، أما عن نفسه فقد صرح بأنه لن يسمح لأحد أن يصوره غير تيشان العظيم . والمصور الأسباني الوحيد الذي عبرت سمعته جبال البرانس هو لويس دى موراليس . وقد قضى السنين الخمسين الأولى من حياته فقيراً مغموراً في بلدته بطليوس . يرسم الصور للكائنات كبرها وصغيرها في إقليم استريمادورا . وكان يناهز الرابعة والخمسين حين أمره فيليب الثاني بالحضور والتصوير في الاسكوريال (١٥٦٤) . فقدم نفسه للملك في ثياب بهية رأى فيليب أنها لا تليق بفنان ، ولكنه لان حين علم أن لويس أنفق مدخرات العمر ليعد لنفسه ثياباً تليق بالمثل بين يدي جلالته . ولم تستهو الملك لوحته « المسيح حاملاً الصليب » ، فعاد إلى بطليوس وحياة الضنك . وتعرض عدة لوحات بريشته في الجمعية الأسبانية بنيويورك ، وكلها جميلة . غير أن أفضل مثال لفنه هو لوحة « العذراء والطفل » في البرادو - وهي تذكرنا من بعض وجوهها برفائيل تذكيراً شديداً . ولما اجتاز فيليب ببلدة بطليوس في عام ١٥٨١ خصص معاشاً متأخراً للفنان الذي أعجزه الفالج وضعف البصر ، فيسر له بذلك القوت المنتظم في السنوات الخمس الباقية له من عمره .

أما صناع أسبانيا المهرة فكثيراً ما كانوا فنانين في كل شيء ولا ينقصهم غير الاسم ؛ فقد ظلت أشغال التخريم والجلد تحظى بأرفع مكانة في أوروبا ؛ كذلك كان النجارون لا ضريب لهم ، وعند تيوفيل جوتييه أن الفن القوطي لم يدن قط من الكمال دنوه في مقاعد المرتلين بكاتدرائية طليطلة . أما المشتغلون بالمصنوعات المعدنية فقد جعلوا من حجب الهياكل ، ومصبغات النوافذ ، ودرابزينات الشرفات ، ومفصلات الأبواب ، بل من المسامير ؛ تحفاً فنية . وأحال صاغة الذهب والفضة بعض المعدن النفيس المتدفق من أمريكا حلياً للأمرء وآنية للكنيسة ، واشتهر من أشغالهم الآنية التي صاغوها بتخريم الفضة أو الذهب لاحتواء القربان المكرس . ولم يمتنع جل فيثشتي بمكانته زعيماً لكتاب المسرحية في البرتغال وأسبانيا في هذه الفترة ، بل صنع وعاء للقربان المقدس — يخرج به الكاهن على جمهور المصلين — قيل في تقديره « انه أروع أشغال الصياغة في البرتغال » (٢٧) ؛ وواصل فرانثيسكو دى هولاندا ، البرتغالي برغم اسمه ، زخرفة المخطوطات بهراة ، وهي فن كان بسبيله إلى الزوال .

ويمكن القول على الجملة إن هذه الفترة التي تقل عن نصف قرن قد وفقت توفيقاً مشرفاً في مجال الفن على الرغم من استنفاد الطاقات وتمزقها في الثورة الدينية . لم يكن كبار المعماريين والنحاتين والمصورين ممن يثبتون للمقارنة بالعمالقة الذين زلزلوا باللاهوت أوروبا ، وكان الدين لحن العهد ، وقصارى ما كان يستطيعه الفن أن يكون مصاحباً له . بيد أن إل روسو ، وبريماتشيو ، وليسكو ، وديلورم ، وجوجون ، وآل كلويه في فرنسا ، وبروجيتي وابنه في أسبانيا ، وبروجل في فلاندر ، وكراناخ في ألمانيا ، وهولبين في كل بلد — كل أولئك كانوا قائمة نبيلة من الفنانين لعهد شديد الاضطراب بالغ القصر . إن

الفن نظام ، ولكن كل شيء كان فوضى - لا الدين فحسب ، بل الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والفن نفسه . وكان الفن القوطى يخوض معركته الخاسرة مع الطرز والأساليب الكلاسيكية ، واضطر الفنان بعد أن اقتلع من ماضيه أن يجرب بمحاولات اجتهدية لم تستطع أن تمنحه جلال الاستقرار المتأصل فى زمان واثق من نفسه . كذلك كان الإيمان متردداً وسط هذا الاضطراب الشامل ، فلم يعد يعطى الفن أوامر وتوجيهات واضحة ، وهوجت الصور الدينية وحطمت ، وأخذت الموضوعات المقدسة تفقد قدرتها على استثارة العبقرية أو الإعجاب أو التقوى بعد أن كانت مبعث إلهام لمبدع الجمال ولمشاهده على السواء . أما فى مجال العلم فقد راحت أعظم الثورات قاطبة تخلع الأرض عن عرشها اللاهوتى ، وتضيّع فى الفراغ اللانهائى تلك الكرة الصغيرة التى كان الافتقاد الإلهى لها سبباً فى تكوين العقل الوسيط وخلق الفن الوسيط ، ترى ، متى يعود الاستقرار ثانية ؟

الفصل السابع والثلاثون

العلم في عصر كوبرنيك

(١٥١٧ - ١٥٤٣) (١)

١ - الإيمان بالمستور (السحر والتنجيم وما إليهما)

من الحقائق الجديدة بالملاحظة أن هذا العهد الذي استغرقه اللاهوت والثقافة المدرسية قد أنجب رجلين لهما أرفع مقام في تاريخ العلم - كوبرنيك وفيزاليوس ، ومن العجيب أن الكتب التي احتوت عصارة حياتهما قد ظهرت في سنة واحدة ، هي « سنة العجائب » ١٥٤٣ . لقد وكان بعض الظروف مواتياً للعلم . فاكتشاف أمريكا وارتداد آسيا ، ومطالب الصناعة واتساع التجارة - كل هذا أثمر معرفة كثيراً ما ناقضت المعتقدات المتوارثة وشجعت التفكير الأصيل . وكان للترجمات من اليونانية والعربية ، ولطبع كتاب أبولونيوس « الأشكال المخروطية » (١٥٣٧) والنص اليوناني لأرخميدس (١٥٤٤) ، الفضل في حفز العلوم الرياضية والفيزيائية . غير أن كثيراً من الرحالة كانوا كاذبين أو مهملين ، ونشرت الطباعة الهراء على نطاق أوسع من نشرها للمعرفة ، وكانت الأدوات العلمية بدائية برغم تعددها . فالمكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر والمكرومتر وكلها كانت في ضمير الغيب . أما النهضة فقد ولعت بالأدب والأسلوب ، واهتمت بالفلسفة اهتماماً وادبياً ، ولم تكد تكثرث للعلم . حقيقة أن

(١) انظر الفصل ٣٠ في العلم الإسلامي ، والفصل ٣٢ في العلم اليهودي ، والتعامل ١٩

من فصول النهضة في العلم الإيطالي .

بابوات النهضة لم يقفوا موقف العداء من العلم . فقد استمع ليو العاشر وكلمنت السابع إلى أفكار كوبرنيق بذهنين مفتوحين ، وتقبل بولس الثالث في غير خوف إهداء كوبرنيق كتابه له ، « كتاب الدورات » الذى زلزل العالم . ولكن رد الفعل الذى جاء فى عهد بولس الرابع ، وتطور عكمة التفتيش فى إيطاليا ، وقرارات مجمع ترنت القطعية ، كل هذا جعل الدراسات العلمية شاقة خطيرة بصورة متزايدة بعد عام ١٥٥٥ .

ولم تستطع البروتستنتية أن تؤيد العلم ، لأنها أسست صرحها على كتاب مقدس معصوم . ورفض لوثر فلك كوبرنيق لأن التوراة ذكرت أن يشوع أمر الشمس - لا الأرض - أن تقف . أما ملانكتون فكان ميالا للعلم ، فدرس الرياضيات ، والفيزياء ، والفلك ، والطب ، وحاضر فى تاريخ الرياضيات فى العصور القديمة ، ولكن روحه السمحة غلبتها طبيعة أستاذه القوية وطغيان لوثرية ضيقة الأفق بعد موت لوثر . أما كالفن فلم يكن به كبير تقدير للعلم ، وأما نوكس فلا تقدير على الإطلاق .

وظل مناخ مثبط من الإيمان بالمستور يحرق بعلماء الغد ويشوش أذهانهم بل يهدد سلامة عقولهم أحياناً كما حدث لكاردن وباراسيلسوس : فالسحر والكيمياء القديمة من مصر ، والفيثاغورية والأفلاطونية الحديدية الصوفيتان من اليونان ، والقبلانية من اليهودية ، كلها حيرت مئات العقول المتلمسة طريقها . وغزت القصص الأسطورية وقصص المعجزات كتابة التاريخ الرسمى ، وروى الرحالة حكايات عن تنانين تنفث اللهب وفقراء يتسلقون الجبال . وكاد يفسر كل حدث شاذ فى الحياة العامة أو الخاصة بأنه ليس إلا تدبيراً من الله أو الشيطان لإنذار الإنسان أو تهذيبه ، لفتنته أو تدميره . وآمن الكثيرون بأن

المذنبات والنيازك إن هي إلا كرات من النار يقذف بها إله غاضب^(١) ، ودخلت الكتب الرخيصة كل بيت قارئ ، مؤكدة إمكان تحويل المعادن الحسيسة ذهباً . وكما ذكرت رواية معاصرة . كان « كل الخياطين والحذائين والخدم والخادمت الذين يسمعون ويقرأون عن هذه الأشياء يعطون كل ما يوفرون من نقود . . . للجائلين والمحتملين » من المشتغلين بهذه الخدع^(٢) . وقد ذكر مشعوذ يدعى وليم وتشلى فى محاكمته بالإنجلترا عام ١٥٤٩ أن فى الجزيرة خمسمائة مشعوذ مثله^(٣) . وكان الطلاب المتجولون فى ألمانيا يبيعون الأحجبة الواقية من الساحرات والشياطين . وأقبل الجند على التعاويذ والطلاسم التى تكفل تحويل رصاص البنادق عن هدفه^(٤) . وكثيراً ما كان القداش نفسه يستعمل رقية لجلب المطر أو ضوء الشمس أو النصر فى الحرب . وشاعت إقامة الصلوات استدراكاً للمطر ، وكانت أحياناً تبدو موفقة فوق ما يطلب ، فتقرع أجراس الكنائس لتنبيه السماء إلى الكثر عن المطر^(٥) . وفى ١٥٢٦ - ٣١ كان رهبان تروا يوقعون حرماً رسمياً على الديدان التى ابتليت بها المحاصيل ، ولكنهم يضيفون إلى هذا أن الحرم لا يجدى إلا فى الأطنان التى يدفع زراعتها عشورهم للكنيسة^(٦) .

ولعل الأحداث التى نسبت إلى الشيطان كانت أكثر من تلك التى نسبت إلى الله . يقول كاتب بروتستنتى فى عام ١٥٦٣ متفجعاً : « ندر أن تمر سنة دون أن نسمع بأبشع الأنباء من الإمارات والمدن والقرى عن الأساليب الفاجرة الرهيبة التى يحاول بها ملك الجحيم ، بظهوره جسدياً أو فى شتى الصور والأشكال ، أن يطفىء النور الحديد الساطع . نور الإنجيل المقدس »^(٧) . وشارك لوثر عامة الناس فى نسبة معظم الأمراض إلى الأرواح الشريرة التى تدخل الجسد - وهى فكرة لا تتناقض على أية حال تناقضاً تاماً مع نظريتنا الشائعة الآن . وكان

الكثيرون يؤمنون بأن الأمراض تنجم عن العين الشريرة أو غيرها من أعمال السحر ، وأن في الإمكان شفاءها بالجرعات السحرية — وهذا أيضاً لا يبعد كثيراً عن عاداتنا في هذه الأيام . وكان أكثر العلاج يعطى حسب موقع الكواكب ، ومن هنا دراسة طلبة الطب للتنجيم .

وقد اقترب التنجيم من العلم لأنه افترض حكم القانون في الكون ولأنه اعتمد إلى حد كبير على التجربة . صحيح أن الاعتقاد بأن حركات النجوم ومواقعها هي التي تقرر الأحداث البشرية لم يكن شاملاً كما كان من قبل ، ومع ذلك فقد كان في باريس ٣٠,٠٠٠ منجم في القرن السادس عشر ،^(٨) كلهم على استعداد لكشف الطالع لقاء قطعة من النقود . وراجت التقاويم الحاوية لتنبؤات المنجمين رواجاً كبيراً . وقد قلدها زابليه ساخرأ في « التنبؤات البنتاجرويلية » للسيد الكوفريباس . ووافق في هذه النقطة لوثر والسوربون ، فنددا بالتنجيم في جميع صوره . واستنكرت الكنيسة رسمياً تنبؤات المنجمين لأنها تتضمن معنى الحتمية وخضوع الكنيسة للنجوم ؛ ومع ذلك فإن البابا بولس الثالث ، وهو من أعظم مفكرى ذلك العصر ، كان على حد قول سفير في القصر البابوي ، « يأبى أن يدعو لأى اجتماع هام لمجمع الكرادلة ، وأن يخرج في أى رحلة ، دون تأخير للأيام الملائمة ورصد لحركات الأبراج » .^(٩) وكان فرانسوا الأول ، وكاترين دمديتشى ، وشارل التاسع ، ويوليوس الثاني ، وليو العاشر ، وأدريان السادس — كانوا كلهم يستشيرون المنجمين .^(١٠) وقد غير ملانكتون تاريخ مولد لوثر ليهيء له طالعاً أسعد ،^(١١) وتوسل إليه ألا يسافر والقمر هلال بعد .^(١٢)

وما زال أحد منجمى هذه الفترة مشهوراً ، فالمنجم نوستراداموس كان بالفرنسية ميشيل دنوتردام . وقد زعم أنه طبيب وفيلسوف ،

وارتضته كاترين دمديتشى منجماً شبه رسمى . وبنت له مرصداً فى ليزال . وفى عام ١٥٦٤ تنبأ لشارل التاسع بأنه سيعمر إلى التسعين (١٣)، ولكنه مات بعد عشر سنوات فى الرابعة والعشرين . وقد ترك هذا المنجم عند موته (١٥٦٦) كتاب تنبؤات صاغها بحكمة بحيث تحتمل معنيين . وبحيث يمكن أن تصدق بعض سطور الكتاب على أى حدث تقريباً فى التاريخ اللاحق .

كان مسيحيو القرن السادس عشر يؤمنون بإمكان قوى خارقة من الشياطين ، وكان الخوف من الشياطين يغرس فيهم منذ نعومة أظفارهم . لذلك شعروا بأنهم ملتزمون بحرق الساحرات . وأيد لوثر وكالفن البابا إنوسنت الثامن فى الحث على محاكمتهم . يقول لوثر « إنى لأرفض العطف على هؤلاء الساحرات ، وبودى لو أحرقتهم على بكرة أبيهن » (١٤) . وقد أحرق أربعة منهن فى فتنبرج فى ١٩ يونيو ١٥٤٠ . وأربعة وثلاثون فى جنيف عام ١٥٤٥ (١٥) . وكان لدى دعاة الإصلاح البروتستنتى بطبيعة الحال مبرر من الكتاب المقدس لهذا الحرق . وأضاف استناد البروتستنتية إلى الكتاب إلحاحاً جديداً على اتباع ما ورد فى الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج . وشجعت عادة إخراج الشياطين الكاثوليكية الإيمان بالسحر . لأنها افترضت أن قوة الشياطين تسكن فى البشر . وزعم لوثر أن خصمه الليزر جى يوهان إيك قد وقع ميثاقاً مع الشيطان . ورد يوهان كوخلايوس . بأن لوثر نتاج جانبي لعبث الشيطان مع مارجریت لوثر (١٦) .

وكان الناس يلجأون أحياناً إلى اتهام أعدائهم بالسحر للتخلص منهم . وكان للتمهمة الخيار فى أن يوقع بها تعذيب طويل الأمد لاستخلاص اعتراف منها . أو أن تموت نتيجة للاعتراف . وقد نظم تعذيب المتهمين بالسحر فى أوربة القرن السادس عشر « بوحشية

هادثة لم تعهد . . . في الأمم الوثنية» (١٧) . ويبدو أن كثيراً من الضحايا آمن بذنبنهم - بأن لهم مع الشياطين معاملات وصلات ، جنسية أحياناً (١٨) . وكان بعض المتهمات ينتحرن ، وقد دون قاض فرنسي خمس عشرة حالة انتحار في سنة واحدة (١٩) . وكثيراً ما بز القضية العلمانيون رجال الكنيسة في التحمس لهذا الاضطهاد . وقد نصت قوانين هنري الثامن (١٥٤١) على عقوبة الإعدام لأى من عدة أفعال نسبت إلى الساحرات (٢٠) . ولكن محكمة التفتيش الأسبانية دمغت قصص السحر والاعترافات بالسحر بأنهم أوهام العقول الضعيفة ، ونهت مندوبها (١٥٣٨) إلى تجاهل طلب الجماهير لحرق الساحرات (٢١) .

كانت الأصوات التي ارتفعت لحماية الساحرات أقل من تلك التي ارتفعت للدفاع عن المهرطقين . وكان المهرطقون أنفسهم يؤمنون بالساحرات . ولكن حدث في عام ١٥٦٣ أن أصدر طبيب في كليفر يدعى يوهان فير بحثاً سماه « في الخدع الشيطانية » جروء في استحياء وتردد على التخفيف من هذا الجنون . ولم يتشكك الطبيب في وجود الشياطين ، ولكنه ألمع إلى أن الساحرات هن الضحايا الأبرياء لمس الشياطين ، وأن الشيطان يخدعهن ليصدقن السخافات التي يعترفن بها . وفي رأيه أن النساء والأشخاص المصابين بعلّة في البدن أو العقل يتعرضون أكثر من غيرهم لمس الشياطين . وخلص من هذا إلى أن السحر ليس جريمة بل هو مرض ، ثم ناشد ملوك وأمراء أوروبا أن يقفوا لإعدام هؤلاء النسوة العاجزات . وبعد بضع سنوات عدل فير وضعه ليتلاءم مع جيله . فكتب وصفاً مفصلاً للجحيم وزبانيته ، ونظامها ، وعملها .

وعبرت روح العصر عن ذاتها في قصة فاوست . وأول سماعنا بجيورج فاوست كان في خطاب كتبه يوهان تريميميوس عام ١٥٠٧ ،

وهو يصفه بالمشعوذ ، ثم في ١٥١٣ إذ يذكره موتيانوس روفوس بوصف ليس بأرق من هذا . وقد كتب فيليب بيجاردى ، أحد أطباء فورمز في ١٥٣٩ يقول : « في السنوات الأخيرة كان رجل عجيب يجوب كل إقليم وإمارة ومملكة تقريباً . . . ويفاخر ببراعته الفائقة لا في الطب فحسب بل في قراءة الكف ، والفراسة ، والعرافة بالتحديق في الكرة البلورية ، وما شابه ذلك من فنون . . . ولم ينكر أن اسمه فاوستوس » (٢٢) (ومعناه المخطوط) . ويبدو أن فاوست التاريخي مات في ١٥٣٩ - ويقول ملانكتون إن الشيطان لوى عنقه . وبعد موته بأربع سنوات ظهرت أسطورة فاوست حليف الشيطان في كتاب « عظات مرحة » بقلم قسيس بروتستنتي في بال يدعى يوهان جاست . وقد تضافرت فكرتان قديمتان على تحويل الدجال التاريخي إلى شخصية بارزة أو علم سواء في الأسطورة والمسرحية والفن : أولاهما أن الإنسان قد يكتسب قدرات سحرية بتحالفه الوثيق مع الشيطان ، والأخرى أن العلم اللاديني إنما هو غرور وقع قد يودى بصاحبه إلى الجحيم . وفي فترة ظن الناس أن الأسطورة كاريكاتوركاثوليكي يسخر من لوثر ، ولكن نظرة أعمق للأسطورة رأت أنها تعبير عن استنكار الدين للعلم « الدنيوي » الذي يناقض تقبل الكتاب المقدس في تواضع ، لأن فيه الكفاية من العلم والحقيقة . أما جوته فقد استنكر هذا الاستنكار ، وسمح لتعطش الإنسان للعلم بأن يظهر ذاته باستخدامه للصالح العام .

ونجسدت أسطورة فاوست تجسداً مرأ في شخص هنرى كورنيليوس أجريبا : وقد ولد من أسرة طيبة بـكولونيا (١٥٤٧) ثم شق طريقه إلى باريس ، وهناك التقى مصادفة بنفر من المتصوفة أو الدجاجلة الذين ادعوا الحكمة الخفية . وإذا كان متعطشاً للمعرفة والشهرة ، فقد احترف الكيمياء القديمة ، ودرس القبلانية ، واقتنع بأن هناك

عالمًا من الاستنارة بعيد المنال على الإدراك أو التفكير العادى . وأرسل إلى الناشر تريتموس مخطوطاً فى فلسفة السحر . *De occulta philosophia* مشفوعاً بالخطاب الشخصى التالى :-

« لقد أخذنى العجب الشديد ، لابل السخط ، لأن أحداً لم ينبر إلى اليوم ليبرئ دراسة فى مثل هذا السمو والقدسية من تهمة الضلال . وهكذا استثيرت روحى . . . وشعرت أنا أيضاً بالرغبة فى التفلسف ، معتقداً أننى سأخرج كتاباً يستحق الثناء . . . إذا استطعت أن أدافع عن . . . ذلك السحر القديم ، الذى درسه جميع الحكماء ، مطهراً ومنقى من عيوب الضلال ، ومزوداً بنسقه المعقول » (٢٣).

ورد عليه تربتموس مسدياً إليه هذا النصيح الحميل . « تكلم على الأشياء العامة للعامة ، ولا تتكلم على الأشياء السامية والخفية إلا لأسمى وأخص أصحابك . إن الثور يطعم الدريس ، والبيغاء يطعم السكر . ففسر هذا القول تفسيراً صحيحاً وإلا أصابك ما أصاب غيرك وداستك الثيران » (٢٤) .

وسواء أكان الدافع لأجربيا هو الحذر أم الافتقار إلى ناشر ، فانه أمسك عشرين عاماً عن دفع كتابه إلى المطبعة . ودعاه الإمبراطور مكسمليان للقتال فى إيطاليا ، فأبلى فى المعركة بلاء حسناً ، ولكنه انتهز الفرصة ليحاضر عن أفلاطون فى جامعة بيزا ، ولينال درجات فى القانون والطب من بافيا . ثم عين محامى مدينة فى ميمز (١٥١٨) ، ولكن سرعان ما فقد ذلك المنصب نتيجة تدخله فى محاكمة شابة متهمه بالسحر ، وقد حصل على أمر باطلاق سراحها من محكمة التفتيش ، ولكنه رأى من الحكمة بعد ذلك أن يغير موطنه (١٥١٩) . وأنفق عامين طبيباً لاويز أميرة سافوا ، غير أنه تورط فى خلافات كثيرة حملتها على قطع راتبه . فانتقل إلى أنتورب مع زوجته الثانية

وأبنائه ، وعيّن مؤرخاً رسمياً وأمين مكتبة لبلاط مرجريت الوصية على عرش النمسا ، ووفق في كسب قوته بطريقة منتظمة . وعكف الآن على تأليف أهم كتبه « في عدم يقينية العلوم وغرورها » . وقد نشره عام ١٥٣٠ ، ثم نشر كتاب « فلسفة السحر » الذي ألفه في شبابه - ونشره الآن مما يثير العجب ، وصدره بمقدمة تنصّل فيها من استمرار إيمانه بالتعاونيد والمعميات الصوفية المفصلة فيه . وتأذى الراسخون في العلم من الكتابين جميعاً .

أما كتابه « فلسفة السحر » فقد أكد أن « روح الكون » تسود العالم وتحكمه كما أن روح الإنسان تسود الجسد وتحكمه ، وأن هذا المستودع العظيم لقوة الروح يمكن أن يستمد منه العقل إذا طهر خلقياً ودرب في صبر على الأساليب المحوسية . ومتى اكتسب العقل هذه القوة ، استطاع أن يكشف الخصاص الخفية للأشياء والأعداد والحروف والكلمات ، وأن ينفذ إلى أسرار النجوم ، وأن يسيطر على قوى الأرض وشياطين الهواء . وراج الكتاب رواجاً كبيراً ، وأفضى تعدد طبعاته بعد موت أجريبا إلى قصص أسطورية حول تحالفه الوثيق مع شيطان كان يرافقه متنكراً في صورة كلبه (٢٥) ، ويتكهن من الطيران فوق الكرة الأرضية والنوم في القمر (٢٦) .

وقد خففت صروف الدهر من مزاعم أجريبا عن التجربة التي ترقى فوق الحس ، فتعلم أنه ليس في مقدور أى سحر أو كيمياء (قديمية) إطعام أسرته أو حمايته من السجن بسبب الدين . وانقلب في خيبة أمل غاضبة على البحث عن المعرفة ، فكتب في عامه التاسع والثلاثين أكثر كتب القرن السادس عشر تشككاً قبل مونتيني « في عدم يقينية العلوم وغرورها » . وقال في تصديره للكتاب « إننى أدرك جيداً أى معركة دامية على أن أخوضها . . . أولاً سيثير النحويون القلدرون

ضجة ، وكذلك . . . الشعراء المتبرمون ، والمؤرخون الكاسدة بضاعتهم ، والخطباء المتفهبون ، والمناطق العيود . . . والمنجمون المنحوسون ، والسحرة البشعون . . . والفلاسفة المجادلون . فالمعرفة كلها غير يقينية ، والعلم كله عبث ، و « أسعد الناس من لا يعرف شيئاً » . المعرفة هي التي قضت على سعادة آدم وحواء ، واعترافت سقراط بالجهل هو الذي أكسبه القناعة والشهرة : « ليست العلوم كلها إلا قوازين الناس وآراءهم ، وهي تستوى ضرراً ونفعاً ، وأذى وفائدة ، وشرّاً وخيراً . هي بعيدة كل البعد عن الكمال : مشكوك فيها . حافلة بالخطأ والخلل » (٢٧) .

ويبدأ أجريبا هجومه المدمر بالأبجدية ، فيأخذ عليها تناقضات النطق الخيرة . ويسخر من النحويين الذين تفوق شواذهم قواعدهم ، والذين تغلب عليهم أصوات الشعب المرة بعد المرة . أما الشعراء فيجانبين ، فما من إنسان « مالك لصوابه » يستطيع أن يكتب شعراً . والتاريخ أكثره حديث خرافة . لا « خرافة متواضع عليها » ، كما سيصفه فولتير خطأ . بل خرافة دائمة التبديل ، يغيرها كل مؤرخ وجيل من جديد . أما الخطابة فهي إفساد البلاغة للعقول . وأما السحر فخدعة : وينبه أجريبا قراءه الآن إلى أن كتابه في السحر كان « زائفاً ، أو كاذباً إن شئتم » . وإذا كان قد مارس في ماضيه التنجيم والسحر والعرافة والكيمياء القديمة وغيرها من « الجهالات » فانما كان أكثر ذلك استجابة لفرط إلحاح مشجعيه القادرين على إجزال العطاء له في طلب المعرفة السرية . أما القبلانية فما هي إلا « عقيدة خرافية وبيلة » . وأما الفلاسفة فإن اختلاف آرائهم اختلافاً يبطلها كفيلاً بآرائهم خارج هذه الحكمة : فلنتركهم إذن يدحضون آراء بعضهم بعضاً . وما دامت الفلسفة تسعى إلى استنباط الفضيلة من العقل : فسيحبطها

التناقض اللاعقلى للأخلاق فى الزمان والمكان ، « إذ يحدث من جراء هذا التناقض أن ما كان فى زمن ما رذيلة ، يعد فى زمن آخر فضيلة ، وما هو فى مكان ما فضيلة ، هو رذيلة فى مكان آخر » . أما الفنون والمهن فقد أفسدها كما أفسد العلوم الكذب والغرور . وكل بلاط « مدرسة للعادات الفاسدة ، ومأوى للشر الكريه » . والتجارة غدر وخيانة . والأمناء على الأموال لصوص لصقت بأيديهم الفخاخ وفى أناملهم الخطاطيف . والحرب مذبحه للكثرة تلهو بها القلة . والطب « فن من فنون القتل الخطأ » وكثيراً ما يكون « فى الطبيب والدواء من الخطر ما يفوق خطر المرض نفسه » .

فما نتيجة هذا كله ؟ وإذا كان العلم هو رأى العابر السريع الزوال ، والفلسفة هى التأمل المغرور فى طبيعة اللانهاى من عقول حقيرة كالديدان ، فبمَ يحيا الإنسان ؟ بكلمة الله وحدها معلنة فى الكتاب المقدس . وفى هذا رأى رنين تبشيرى ، والواقع أننا نلتقى بتأكيدات عديدة لآراء أجريبا « الإنجيلية » مبعثرة وسط شكوكه . فهو يرفض سلطان البابوات الزمنى ، بل سلطانهم الروحى إذا خالف الكتاب المقدس . وهو يرمى محكمة التفتيش بأنها لا تقنع الناس بالمنطق والكتب المقدسة بل « بالنار والخطب » ، وهو يود لو قل إنفاق الكنيسة على الكاتبدرايات وزاد على أعمال البر ، ولكنه يتجاوز رجال الإصلاح الدينى حين يعترف بأن كتاب العهدين القديم والجديد كانوا عرضة للخطأ . فالمسيح وحده هو المصيب والصادق دائماً ، وهو وحده الذى يجب أن نثق به ، وفيه الملاذ الأخير للعقل والروح :

وقد استمتع أجريبا بما أحدثته ثورته هذه من غضب ، ولكنه دفع ثمن هذه المتعة غالياً خلال ما بقى له من عمر . طالبه شارل الخامس

بسحب نقده للكنيسة ، فلما رفض قطع راتبه . ولما سجن بسبب دينه ألقى التبعة على الإمبراطور لتخلفه في دفع راتب مؤرخ بلاطه الرسمي . وأطلق سراحه بشفاعة الكاردينال كامبيجيو وأسقف لياج . ولكن شارل نفاه من إمبراطوريته (١٥٣١) . وانتقل أجربيا إلى ليون حيث سجن ثانية بسبب الدين كما تقول رواية غير مؤكدة : ولما أفرج عنه انتقل إلى جرينوبل . وهناك مات بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً . ولعل له بعض الفضل في تكوين نزعة مونتينى الشكاكة . ولكن كتابه الرائع الوحيد كان في السحر الذى تنكر له . وظلت الأفكار والعادات المتصلة بالسحر مزدهرة إلى نهاية القرن :

٢ - الثورة الكوبرنيقية

كان للخطوات التى خطتها العلوم الرياضية ، والتى تبدو لنا اليوم تافهة ، الفضل في شحذ أدوات الحساب في العصر الذى نحن بصددده . فأدخل كتاب مايكل ستيفل *Arithmetica integra* (١٥٤٤) علامات الزائد والناقص ، وكان كتاب روبرت ريكورد *Whetstone of Wit* (١٥٥٧) أول الكتب المطبوعة التى استعملت علامة « يساوى » . أما كتب الحساب التى ألفها آدم ريزى ، والتى كانت في زمانها ذائعة الصيت ، فقد أقنعت ألمانيا بالانتقال من الحساب بالفيشات إلى الحساب التحريرى : ونشر يوهان فرنر (١٥٢٢) أول بحث حديث عن المخاريط ، وواصل جيورج ريتيكوس عمل ريجيومونتانوس في حساب المثلثات ، فضلاً عن أنه ساعد كوبرنيق على نشر نظريته .

أما الفلك فقد أتيح له من الحسابات خير مما أتيح من الآلات . وعلى أساس هذه الحسابات تنبأ بعض المنجمين بطوفان ثان يقع في

« فبراير ١٥٢٤ » حين يلتقى المشتري وزحل في برج الحوت ، مما حمل مدينة تولوز على بناء فلك للاحتفاء به ، والأسر الشديدة الحبيطة على خزن الطعام في قسم الجبال (٢٨) . وكان أكثر الآلات الفلكية من مخلفات العصر الوسيط : كرات سماوية وأرضية ، وعصا يعقوب ، واسطرلاب ، وكرة ذات حلق ، وربيعات واسطوانات ، وساعات كبيرة ، وبوصلات ، وعدة أدوات أخرى ليس من بينها التلسكوب ولا الفوتوغرافيا : بهذا الجهاز استطاع كوبرنيق أن يزلزل الدنيا .

وميكولاى كوبرنيك هذا كما تدعوه بولنده ، أو نيكلاس كوبرنيج كما تدعوه ألمانيا ، أو نيكولاولس كوبرنيكوس كما يدعوه العلماء ، ولد في ١٤٧٣ بمدينة تورن على نهر فستولا في بروسيا الغربية ، وكان الفرسان التيوتون قد نزلوا عنها لبولنده قبل ذلك بسبع سنوات : وأمّه من أسرة بروسية غنية ، أما أبوه فقدم من كراكاو وأقام في تورن واشتغل بتجارة التحاس : ولما مات الأب (١٤٨٣) كفل أبناءه شقيق الأم ، لوكاس فاتزيلرودى ، أسقف إيرملاند وأميرها ، وأرسل نيكولاس إلى جامعة كراكاو حين بلغ الثامنة عشرة ليعبد نفسه للقسوسية . على أنه اقنع خاله بأن يسمح له بالدراسة في إيطاليا لأنه لم يحب الفلسفة الكلامية التي حظرت الدراسات الإنسانية . فعين بنفوذ خاله كاهنا (*) في كاتدرائية فراونبورج ببروسيا الشرقية البولندية ، ثم منحه أجازة ثلاث سنوات .

وفى جامعة بولونيا (١٤٩٧ - ١٥٠٠) درس كوبرنيق الرياضيات . والفزياء ، والفلك . وكان من بين معلميه أستاذ اسمه دومنيكو دى

(*) « canon » من هبة كهان الكاتدرائية . وليس من الضروري أن يكون قسيسا . وليس لدينا دليل واضح على أن كوبرنيق ارتقى من الرتب الدينية الصغرى إلى التسوسية قبل دى عمره الأخيرة . وفى ١٥٢٧ زكى لشغل وظيفة الأستاذية ، مما يشير إلى أنه كان وثيقا قسيسا . (٢٩)

نوفارا ، تتلمذ من قبل على ريجيو مونتانوس ، وانتقد ما فى نظرية
الفلكى بطلميوس من تعقيد سخيف ، وعرف تلاميذه بقدامى الفلكيين
اليونان الذين تشككوا فى ثبات الأرض ووضعها المركزى . فقد كان
من رأى فيلولائوس البيثاجورى ، الذى عاش فى القرن الخامس قبل
الميلاد ، أن الأرض وسائر الكواكب تدور حول هستيا ، وهى
نار مركزية لا نراها لأن كل أجزاء الأرض المعروفة تحول بعيداً
عنها . وقد روى شيشرون أن هيكتاس السيراكيوزى ، وهو من
فلكي القرن الخامس ق.م. أيضاً ، كان يعتقد أن الشمس والقمر
والنجوم ثابتة ، وأن حركتها الظاهرية مرجعها دوران الأرض حول
محورها . وذكر أرخميدس وبلوتارخ أن أريستارخوس الساموسى
(٣١٠ - ٢٣٠ ق.م.) رأى أن الأرض تدور حول الشمس ، وأنه
اتهم بالضلال ، وأنه عدل عن رأيه . ويقول بلوتارخ أن سلوقس
البابلى أحيا الفكرة فى القرن الثانى قبل الميلاد . وكان من الجائز أن
ينتصر هذا القول بوضع الشمس المركزى فى العصور القديمة ، لولا أن
كلوديوس بطلميوس الإسكندرى أكد من جديد ، فى القرن الثانى
بعد الميلاد ، نظرية وضع الأرض المركزى ، وأكدها بقوة وعلم
كبيرين بحيث قلّ من جرؤ بعده على تحديها . وكان بطلميوس نفسه
قد قرر أن على العلم وهو يحاول شرح الظواهر الطبيعية أن يتبنى
أبسط ما يمكن من فروض متفقة مع المشاهدات المسلم بها . ومع ذلك
فإن بطلميوس ، كهيبارخوس من قبله ، حين أراد تفسير حركة
الكواكب الظاهرية ، اضطرت له نظرية وضع الأرض المركزى إلى
افتراض مجموعات معقدة تعقيداً شديداً من الدوائر الصغيرة (epicycles)

والدوائر مختلفة المركز (eccentrics) (*) : فهل من سبيل إلى فرض أبسط ؟ وجاء نيكولي أوريسمي (١٣٣٠ - ٨٢) ونيكولاس الكوزاوى (١٤٠١ - ٦٤) فجدا فكرة دوران الأرض ، وكتب ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) قبيل ذلك يقول : « إن الشمس لا تتحرك . . . وليست الأرض في مركز دائرة الشمس ، ولا هي في مركز الكون » (٣٠) .

وأحسن كوبرنيق أن نظرية مركزية الشمس تستطيع أن « تنقذ المظاهر » — بشرحها الظواهر الطبيعية المشاهدة — بإحكام أشد من الرأى البطلمي . ففي سنة ١٥٠٠ ذهب إلى روما وقد بلغ السابعة والعشرين ، ربما لحضور اليوبيل ، وألقى هناك محاضرات تقول رواية إنه شرح فيها نظرية دوران الأرض على سبيل التجربة . وكانت أجازته قد انتهت ، فعاد للقيام بواجباته الدينية كاهناً في فراونبورج . ولكن رياضيات مركزية الأرض كانت تشوش صلواته . فطلب الإذن باستئناف دراساته في إيطاليا ، مقترحاً الآن أن يدرس الطب والقانون الكنسى — وهو ما بدا لروسانه أدخل في مهنته من الفلك . وقبل ختام القرن الخامس عشر كان قد عاد إلى إيطاليا . ونال درجة القانون في فراارا (١٥٠٣) ، ولم ينل درجة في الطب فيما يبدو ، ثم ارتضى الرجوع ثانية إلى فراونبورج : وما لبث خاله أن عينه سكرتيراً وطبيباً (١٥٠٦) ، ربما ليتيح له متسعاً من الوقت للاستزادة من الدرس . وعاش كوبرنيق ست سنوات في قلعة الأسقفية بهيلسبرج وهناك وضع الرياضيات الأساسية لنظريته ، ثم دونها في مخطوط . فلما مات الأسقف الكريم عاد كوبرنيق إلى مكانه في فراونبورج . وواصل ممارسة الطب ، وكان يعالج الفقراء مجاناً (٣١) . وقد مثل كهنة

(*) الـ **epicycle** دائرة مركزها محمول على محيط دائرة أكبر منها ، أما الـ **eccentric** فدائرة ليس لها نفس المركز الذى لدائرة أخرى يحتمل أن يكون داخلها .

الكاتدرائية في مهام دبلوماسية وأعد لسجسموند الأول ملك بولنده خطة لإصلاح العملة البولندية. وفي مقال من مقالاته الكثيرة عن المالية ذكر هذه العبارة التي عرفت فيما بعد بقانون جريشام : العملة الرديئة . . . تطرد العملة القديمة الأحسن منها (٢٢). وهو يعنى أنه إذا أصدرت حكومة ما عملة منحطة اختزنت العملة الجيدة أو أصدرت وامتنع تداولها، ودفعت الضرائب بالعملة الرديئة ، و « نقد الملك من عملته » . بيد أن كوبرنيك واصل أبحاثه الفلكية وسط هذه الشواغل المتنوعة. ولم يكن وضعه الجغرافى موافقاً لأبحاثه هذه . ففراونبورج قريبة من البلطى . يلفها الضباب أو السحاب نصف الوقت . وكان يحسد كلوديوس بطلميوس ، الذى كانت « سواه أبهج ، حيث لا ينفث النيل الضباب الذى ينفثه نهر نافستولا . لقد حرمتنا الطبيعة تلك الراحة وذلك الهواء الهادئ » (٢٣) . لاعجب إذن أن يعبد كوبرنيك الشمس أويكاد . ولم تكن أرصاده الفلكية كثيرة ولا دقيقة ، ولكنها لم تكن ذات أهمية حيوية لهدفه . وكان فى أغلب أحيانه ينتفع بالبيانات الفلكية التى خلفها له بطلميوس . واعتزم أن يثبت أن كل ما وصل إليه من مشاهدات يتفق خير اتفاق مع نظرية مركزية الشمس .

وحوالى عام ١٥١٤ ألخص ما انتهى إليه من استنتاجات فى « تعقيب موجز » . ولم يطبع الكتاب فى حياته . ولكنه وزع بعض نسخ مخطوطة على سبيل جس النبض . وقد قرر فيه استنتاجاته ببساطة واقعية ، وكأنها لم تكن أعظم ثورة فى التاريخ المسيحى . قال :

١ - ليس هناك مركز واحد لجميع الكرات السماوية .

٢ - إن مركز الأرض ليس مركز الكون ، بل هو نقطة مركز الحاذبية والكره القمرية .

٣ - كل الكرات (الكواكب) تدور حول الشمس بوصفها نقطتها الوسطى ، وإذن فالشمس مركز الكون .

٤ — نسبة المسافة بين الأرض والشمس إلى ارتفاع قبة السماء أصغر بكثير من نسبة نصف قطر الأرض إلى بعدها عن الشمس بحيث أن المسافة من الأرض إلى الشمس لا تدرك لضآلتها بالقياس إلى ارتفاع قبة السماء ٥

٥ — إن الحركة التي تظهر في قبة السماء لا تنشأ عن أى حركة في قبة السماء بل عن تحرك الأرض . والأرض هي وعناصرها المحيطة بها تدور دورة كاملة حول قطبيها الثابتين في حركة يومية ، في حين تظل القبة الزرقاء والسموات العليا ثابتة لا تتغير .

٦ — إن ما يبدو لنا حركات للشمس لا ينشأ عن تحركها بل عن تحرك كوكبنا الأرضي ، الذي يجعلنا ندور حول الشمس كأى كوكب آخر .

٧ — أن ما يبدو من تراجع الكواكب وحركتها المباشرة لا ينشأ عن حركتها بل عن حركة الأرض . إذن فحركة الأرض وحدها تكفي لتفسير الكثير من المفارقات البادية في السماوات (٣٤) ٥

ولم يلق الفلكيون القلائل الذين قرأوا كتاب التعقيب كبير بال إليه . وأيدى البابا ليو العاشر اهتماماً لا تحيز فيه بالنظرية حين أحيط بها عاماً وطلب إلى أحد الكرادلة أن يكتب إلى كوبرنيق طالباً إيضاح فكرته . وحظى الفرض برضى كبير في البلاط البابوي المستنير دام بعض الوقت (٣٥) . أما لوثر فقد رفض النظرية حوالى عام ١٥٣٠ قائلاً : « إن الناس يستمعون إلى منجم محدث حاول التدليل على أن الأرض تدور ، لا السماوات ولا القبة الزرقاء ، ولا الشمس ولا القمر . . . فهذا الأحق يريد أن يقلب نظام الفلك كله رأساً على عقب . ولكن الكتاب المقدس ينبئنا بأن يشوع أمر الشمس لا الأرض أن تقف » (٣٦) . وأما كالفن فقد أجاب كوبرنيق بآية من المزمور الثالث والتسعين « أيضاً تثبتت المسكونة . لا تنزعزع » ثم تساءل : « فن يجرؤ على ترجيح شهادة

كوبرنيق على شهادة الروح القدس؟^(٣٧) . هذه الاستجابة لكتاب « التعقيب » فتت في عضد كوبرنيق حتى أنه بعد أن أكمل كتابه الكبير حوالى عام ١٥٣٠ قرر أن يحبس عنه النشر . وواصل القيام بواجباته فى هدوء ، وحاول الاشتغال قليلا بالسياسة ، وفى ستيناته اتهم بأن له خلية^(٣٨) :

ولكن فى عام ١٥٣٩ اندفع إلى قلب هذه الشيخوخة المستسلمة رياضى شاب متحمس يدعى جيورج ريتيكوس . كان فقي فى الخامسة والعشرين . بروتستانتياً ، يحظى برعاية ملانكتون ، ويعمل أستاذاً فى جامعة فتنبرج . وكان قد قرأ « التعقيب » واقتنع بصدقه وتاقت نفسه لمساعدة الفلكى العجوز الذى كان يعيش بعيداً فى بلدة مغمورة على البلطى كأنها مخفر أمامى على حدود الحضارة ، منتظراً فى صبر أن يرى الآخرون معه دورة الأرض غير المريئة حول نفسها وحول الشمس . وأحب الفقى كوبرنيق حباً جماً ، ووصفه بأنه «خير الرجال وأعظمهم» وتأثر تأثراً عميقاً باخلاصه للعلم . وظل ريتيكوس عشرة أسابيع مكباً على دراسة المخطوط الكبير . ثم حث كوبرنيق على نشره ، ولكنه أبى ، غير أنه وافق على أن يقوم ريتيكوس بنشر تحليل مبسط لفصوله الأربعة الأولى . وعليه فقد أصدر العالم الشاب فى عام ١٥٤٠ ، فى مدينة دانتزج ، كتابه « أول تقرير عن كتاب دورات الأجرام السماوية » . وأرسل نسخة منه إلى ملانكتون والأمل يراوده ، ولكن اللاهوتى الكريم لم يقتنع . ولما عاد ريتيكوس إلى فتنبرج (فى مطلع ١٥٤٠) وأثنى على نظرية كوبرنيق فى فصله ، « أمر » - كما روى - أن يخاضر بدلا من ذلك عن كتاب يوهان دى ساكروبوسكو Sphaera^(٣٩) . وفى ١٦ أكتوبر ١٥٤١ كتب ملانكتون إلى صديق له يقول : « يظن البعض أن من الإنجازات البارزة أن يؤلف

إنسان نظرية مجنونة كذلك الفيلسوف البروسي الذي يحرك الأرض ويثبت الشمس . حقاً إن واجب الحكام العقلاء أن يروضوا من جموح العقول» (٤٠).

وفي صيف عام ١٥٤٠ عاد ريتيكوس إلى فراونبورج ومكث بها حتى سبتمبر ١٥٤١ . ورجا أستاذه المرة بعد المرة أن ينشر على العالم مخطوطه . فلما انضم إليه في هذا الرجاء رجلان بارزان من رجال الدين ، استجاب كوبرنيك ، ربما لا طمثنانه إلى أنه يضع الآن إحدى قدميه في القبر . وأدخل على المخطوط إضافات نهائية ، ثم أذن لريتيكوس أن يبعث به إلى ناشر في نورمبرج تكفل بجميع النفقات والتبعات (١٥٤٢) . ولإذ كان ريتيكوس قد رحل عن فتنبرج ليدرس في ليبزج فقد وكل إلى صديقه أندرياس أوزياندر ، وكان قسيساً لوثيرياً في نورمبرج ، مهمة الإشراف على طبع الكتاب .

كان أوزياندر قد كتب إلى كوبرنيك (٢٠ أكتوبر ١٥٤١) مقترحاً تقديم الرأي الجديد على أنه فرض لا حقيقة ثابتة ، وذكر في خطاب بنفس التاريخ أرسله إلى ريتيكوس أنه بهذه الطريقة «سيهدى» الأرسطاطاليون واللاهوتيون من روعهم في غير مشقة» (١١) . وكان كوبرنيك نفسه قد وصف نظرياته غير مرة بأنها فروض . لا في تعقيبه الموجز فحسب ، بل في كتابه المطول (١٢) ، وفي الوقت ذاته زعم في الاهداء أنه دعم آراءه « بأعظم الأدلة وضوحاً » . ولأعلم لنا بم ردّ على أوزياندر . على أية حال قدم أوزياندر للكتاب على النحو التالي دون أن يوقع باسمه :

« إلى القارئ ، حول فروض هذا الكتاب .

نظراً إلى ما ذاع من سمعة هذه الفروض الجديدة ، فإن علماء كثيرين ستصدمهم ولا ريب نظريات هذا الكتاب صدمة قوية . . . على أن . . . فروض الأستاذ ليست بالضرورة صحيحة ، ولا حتى

مرجحة . ويكفى جداً أن تؤدي إلى حساب يتفق والملاحظات الفلكية . . .
وسيبادر الفلكي باتباع أسهل الفروض فهماً . أما الفيلسوف فربما
طالب بترجيح أكثر ، ولكن لا هذا ولا ذاك سيستطيع اكتشاف
أى شيء يقينى . . . ما لم يكشف له عنه بالوحى الإلهى . فلنسلم إذن
بأن الفروض الجديدة التالية ستتخذ لها مكاناً إلى جوار الفروض القديمة
التي ليست أكثر منها رجحاناً . وعلاوة على ذلك فإن هذه الفروض
جديرة بالإعجاب وسهلة الفهم حقاً ، وفضلاً عن هذا فإننا واجدون
هنا كنزاً من الملاحظات الدالة على علم واسع . أما فيما عدا هذا
فلا يتوقعن أحد من الفلك اليقينية فيما يتصل بالفروض . فهو لا يستطيع
أن يعطى هذه اليقينية . ومن يأخذ كل شيء وضع لأغراض أخرى
مأخذ الحقيقة سيترك هذا العلم في أغلب الظن أجهل مما كان حين
بدأ فيه « (١٣) » .

وكثيراً ما ندد الناس بهذه المقدمة باعتبارها عنصراً مقحماً وقحاً (١٤) .
ولعل كوبرنيق قد استنكرها ، ذلك أن هذا الشيخ بعد أن عايش
نظريته ثلاثين عاماً أصبح يشعر بأنها بضعة من حياته ودمه ، وبأنها
وصف لحقائق الكون الفعلية . ولكن مقدمة أوزياندر كان فيها
حصافة وإنصاف ، فقد خففت من المقاومة الطبيعية التي تقاوم بها
عقول كثيرة فكرة مقلقة وثورية . وهى ما زالت مذكراً طيباً لنا
بأن أوصافنا للكون إن هى إلا آراء عرضة للخطأ صادرة من قطرات
ماء عن البحر ، وأنها تحتل هى الأخرى الرفض أو التصحيح .
وظهر الكتاب أخيراً في ربيع ١٥٤٣ يحمل هذا العنوان :
« الجزء الأول من كتاب نيكولاى كوبرنيكى عن الدورات » .
وعرف الكتاب بعد ذلك بهذا الاسم : « في دورات الأجرام
السموية » ، ووصلت إحدى نسخ الكتاب الأولى إلى يد كوبرنيق

فى ٢٤ مايو ١٥٤٣ . وكان على فراش الموت ، فقرأ صفحة العنوان ،
وابتسم ، ثم مات فى نفس الساعة .

وكان لإهداء الكتاب إلى البابا بولس الثالث فى ذاته جهداً لنزع
السلاح من يد المقاومة لنظرية تناقض حرفية الكتاب المقدس ، كما أيقن
كوبرنيك ، مناقضة صريحة . وقد بدأ بتأكيدات ورعة فقال : « ما زلت
أؤمن أن علينا أن نتجنب النظريات البعيدة كل البعد عن سلامة
العقيدة » . وذكر أنه تردد طويلاً فى نشر الكتاب متسائلاً « أليس
الأفضل أن أحذو حذو الفيثاغوريين . . . الذين درجوا على توصيل
أسرار الفلسفة بالفهم لا بالكتابة ، ولأقربائهم وأصدقائهم دون
سواهم » . ولكن رجلين من رجال الكنيسة المثقفين وهما نيقولا
شونبرج كردينال كبوا ، وتيدمان جيزى أسقف كولم — كانا
قد ألحا فى توصيته بنشر كشفه . (وقد وجد كوبرنيك أن من
الحكمة عدم ذكر اللوثرى ريتيكوس) . ثم اعترف بفضل الفلكيين
اليونان عليه ، ولكنه فى زلة قلم أغفل اسم أرسطارخوس . وقال
إنه يعتقد أن الفلكيين فى حاجة إلى نظرية أفضل من النظرية البطلمية .
لأنهم يجدون الآن صعوبات كثيرة فى رأى القائل بمركزية الأرض .
ولا يستطيعون على هذا الأساس أن يحسبوا طول السنة حساباً دقيقاً .
ثم إنه لجأ إلى البابا بوصفه رجلاً « عظيماً » . . . فى محبته للعلوم
جميعها حتى الرياضيات : « لكى يحميه من « لدغ المفترين » الذين
سيدعون لأنفسهم الحق فى الحكم على هذه الأشياء . أو « سيهاجمون
نظريتي محتجين بفقرة من الكتاب المقدس » (٥٠) ، وذلك دون إلمام
كاف بالرياضيات .

ويبدأ العرض بهذه المسلمات . أولاً أن الكون كروى . ثانياً ،
أن الأرض كروية — لأن المادة إذا تركت وشأنها تنجذب نحو مركز :

ومن ثم تكيف نفسها في شكل كروى . ثالثاً ، أن حركات الأجرام السماوية حركات دائرية متماثلة ، أو مكونة من هذه الحركات — لأن الدائرة هي « أكثر الأشكال كمالاً » ولأن « العقل يقشعر رعباً » من الفرض القائل بأن الحركات السماوية ليست متماثلة . (والصواب في التفكير محال ما لم يكن هناك صواب في سلوك موضوعات التفكير) .

ويلاحظ كوبرنيق نسبة الحركة : « كل تغيير يرى في الوضع مرجعه الحركة سواء حركة المشاهد أو حركة الشيء الذى يشاهده ، أو مرجعه التغيرات الطارئة على وضع الاثنين بشرط أن يكونا مختلفين . لأنه إذا حركت الأشياء بنسبة متساوية إلى نفس الأشياء ، لم تلاحظ أية حركة بين الشيء المرئى وبين المشاهد » (٤٦) . إذن فدوران الكواكب اليومى الظاهرى حول الأرض يمكن تعليله بدوران الأرض يومياً حول محورها ، وحركة الشمس السنوية الظاهرية حول الأرض يمكن تعليلها إذا افترضنا أن الأرض تدور سنوياً حول الشمس :

ويتوقع كوبرنيق الاعتراضات على نظريته . فقد زعم بطليموس أن السحب والأجسام الموجودة على سطح أرض دائرة تنطير بعيداً عنها وتترك وراءها . ويرد كوبرنيق بأن هذا الاعتراض أخرى أن يعترض به على دوران الكواكب الكبرى حول الأرض ، لأن مسافاتها الشاسعة تعنى أن لها أجراماً هائلة وسرعات عظيمة . كذلك زعم بطليموس أن الجسم المدفوع مباشرة إلى أعلى من أرض دائرة لا يعود في سقوطه إلى نقطته الأصلية . ويرد كوبرنيق بأن هذه الأجسام . شأنها شأن السحب ، هي « أجزاء من الأرض » وأنها تحمل معها في سيرها . أما الاعتراض بأن دوران الأرض سنوياً حول الشمس لو صحح « لتجلى في تحرك النجوم » الثابتة » (وهى النجوم الواقعة وراء مجموعتنا الكوكبية) كما تشاهد في طرفين

متقابلين لمدار الأرض ، فيرد عليه كوبرنيق بأن هذا التحرك موجود فعلا ، ولكن البعد الشاسع للنجوم (« القبة السماوية ») لا يتيح لنا رؤيته . (ويمكن اليوم رصد درجة معتدلة من هذه الحركة) .

ثم يحمل نظريته في فقرة جامعة مانعة :

« أولا وقبل كل شيء هناك مجال النجوم الثابتة ، الذى يحتوى ذاته وكل الأشياء ، وهو لهذا السبب عينه ثابت : : أما الأجسام المتحركة (الكواكب) فأولها زحل الذى يتم دورته فى ثلاثين سنة . ثم يأتى المشترى الذى يتمها فى اثنتى عشرة سنة ، ثم المريخ الذى يدور كل عامين . ويلى هذا فى الترتيب دورة رابعة تقع كل سنة وهى تحتوى الأرض ومعها مدار القمر كدائرة صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة أكبر . أما الكوكب الخامس فهو الزهرة التى تدور حول الشمس فى تسعة شهور . ثم يشغل عطارد المكان السادس ، وهو يدور دورته فى ثمانين يوماً . وفى وسط هذه الكواكب جميعها تقوم الشمس ولم يخطئ البعض إذ وصفوها بمصباح الكون ، ووصفها غيرهم بعقل الكون ، وغيرهم بسيده الحاكم والقول صواب لأن الشمس وهى مربعة على عرشها الملكى تحكم أسرة النجوم المحيطة بها وهكذا نجد بفضل هذا التنسيق تماثلاً عجبياً فى الكون ، وعلاقة انسجام محددة فى حركة الأجرام السماوية وضخامتها وهى علاقة من نوع يستحيل تحقيقه بأى طريقة أخرى » (١٧) .

ويمكن القول بوجه عام إن أى تقدم يحرزه الإنسان فى نظرية ما يحمل معه الكثير من مخلفات النظرية القديمة المتروكة ، فقد أقام

(*) بفترض الفلك الحديث وجود تسعة كواكب وفترات درران : عطارد (٨٨ يوماً) ، والزهرة (٢٢٥) ، والأرض (٣٦٥ - ٦٦) ، والمريخ (٦٨٧) ، والمشتري (١١,٨٦ سنة) ، وزحل (٢٦,٤٦ سنة) وأورانوس (٨٤,٠٢ سنة) ، ونبتون (١٦٤,٧٩ سنة) ، وبلوتو (٢٤٨ سنة) .

كوبرنيق تصوراته على مشاهدات موروثه من بطلميوس ، واحتفظ بالكثير من تفاصيل الجهاز السماوى البطلمى ، كالدوائر ، والدوائر الصغيرة التى تدور مراكزها على محيط دائرة أكبر ، والدوائر المنحرفة عن المسار الدائرى ، أما رفض هذه التفاصيل فسوف يتم على يد كبار . وكان أغرب الأشياء حساب كوبرنيق أن الشمس ليست بالضبط فى وسط مدار الأرض . فقد حسب أن مركز الكون « يبعد عن الشمس بمقدار ثلاثة أمثال قطر الشمس » ، وأن مراكز أفلاك السيارات هى كذلك خارج الشمس ، وأنها ليست واحدة على الإطلاق . وقد نقل كوبرنيق من الأرض إلى الشمس فكرتين يرفضهما العلم اليوم ، أولاهما : أن الشمس هى المركز التقريبى للكون ، والأخرى أنها ساكنة . وحسب أن الأرض ليست لها دورة حول محورها وأخرى حول فلكتها فحسب ، بل حركة ثالثة ظنها ضرورية لتفسير ميل محور الأرض ومبادرة الاعتدالين .

وعلى ذلك يجب ألا نبتسم — ونحن ندرك الموقف بعد هذه القرون — سخرية من أولئك الذين تأخروا طويلا فى اعتناق نظرية كوبرنيق . ذلك أنه لم يطلب إليهم مجرد تصور الأرض وهى تدور وتندفع فى الفضاء بسرعة رهيبة على عكس ما تشهد به حواسهم شهادة مباشرة . بل أكثر من ذلك أن يسلّموا بعمليات حسابية تتوه فيها العقول ولا تقل فى تحييرها للأفهام عن حسابات بطلميوس إلا بقدر طفيف . ولم تبد النظرية الجديدة متفوقة على القديمة بصورة واضحة إلا بعد أن صاغ كبار وجاليليو ونيوتن جهازها ليحقق بساطة ودقة أعظم ، وحتى بعد هذا يجب أن نقول عن الشمس تلك الكلمات التى ربما قالها جاليليو عن الأرض « ومع ذلك فهى تدور » . هذا وقد رفض تيكو براهى فرض مركزية الشمس بحجة أن كوبرنيق لم يرد على اعتراضات بطلميوس

رداً مقنعاً : وأعجب من هذا الرفض تلك السرعة النسبية التي قبل بها النظرية الجديدة فلكيون كريتيكوس ، وأوزياندر ، وجون فيلد ، وتومس ديجيز ، وإرزمس رينهولد - الذي بنى «جداوله البروتنية» (١٥٥١) للحركات السماوية على نظرية كوبرنيق إلى حد كبير . ولم تبد الكنيسة الكاثوليكية اعتراضاً على النظرية الجديدة ما دامت تعرض ذاتها على أنها فرض . ولكن محكمة التفتيش لم تعرف رحمة في العقاب حين اعتبر جوردانو برونو الفرض حقيقة مؤكدة ، وبينت في وضوح نتائجها على الدين . وفي ١٦١٦ حرمت «لجنة الفهرس» قراءة كتاب «الدورات» إلى أن يصحح ، وفي ١٦٢٠ أذن للكاثوليك أن يقرءوا طبعات حذفت منها تسع عبارات تمثل النظرية على أنها حقيقة . ثم اختفى الكتاب من فهرس ١٧٥٨ المراجع ، ولكن الحظر لم يبلغ صراحة إلا في ١٨٢٨ .

كانت نظرية مركزية الأرض تلائم بصورة معقولة لاهوتاً يفرض أن كل الأشياء خلقت لمنفعة البشر . أما الآن فقد شعر هؤلاء البشر أنهم يترنحون فوق كوكب صغير اختزل تاريخه إلى «مجرد فقرة محلية في أخبار الكون» . (١٨) فإذا يمكن أن تعنيه كلمة «السما» إذا كانت كلمتا «فوق» و «تحت» قد فقدتا كل معنى لهما . وإذا كانت إحداهما تنقلب فتصبح الأخرى في نصف يوم ؟ كتب جيمس وولف إلى تيكو براهي في ١٥٧٥ يقول : « ما من هجوم على المسيحية أشد خطراً من القول بضخامة السماوات وعمقها اللانهائيين » - مع أن كوبرنيق لم يقل بلانهاية الكون . فلا بد أن الناس حين توقفوا للتأمل في المعاني التي تتضمنها النظرية الجديدة راحوا يتساءلون عن صواب القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل لإبنه يموت على هذا كوكب المتوسط الحجم . وبدأ أن كل شعر المسيحية الجميل ،

« يتصاعد دخاناً » (كما قال جوته فيما بعد) تحت لمسة هذا الكاهن البولندى . وأجبر الفلك القائل بمركزية الشمس الناس على أن يتصوروا الخالق من جديد فى صورة أقل ضيقاً فى الأفق وأقل تجسداً . وواجه اللاهوت أقوى تحد فى تاريخ الدين . ومن ثم كانت الثورة الكوبرنيقية أشد عمقاً من حركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد جعلت الفروق بين العقائد الكاثوليكية والبروتستنتية تبدو تافهة : وتخطت حركة الإصلاح البروتستنتى إلى حركة التنوير ، من أرزمس ولوثر إلى فولتير : وحتى إلى ما بعد فولتير ، إلى لأأدرية القرن التاسع عشر المتشائمة . هذا القرن الذى سيضيف الكارثة الداروينية إلى الكارثة الكوبرنيقية . ولم يكن هناك سوى واق واحد من أمثال هؤلاء الرجال ، وهو أن قلة قليلة فقط فى أى جيل هى التى ستدرك ما ينطوى عليه فكرهم من معان . فسوف « تشرق » الشمس و« تغرب » حين يكون كوبرنيق قد طوى فى زوايا النسيان .

فى عام ١٥٨١ أقام الأسقف كرومر نصباً تذكاريّاً لكوبرنيق على السور الداخلى الكاتدرائية فراونبورج بجوار قبر الكاهن . وفى عام ١٧٤٦ أزيل النصب ليتمسح مكاناً لتمثال للأسقف زمبك . فمن هو هذا الأسقف ؟ من يدرى ؟ .

٣ — ماجلان وكشف الأرض

تقدم ارتياد الأرض بخطى أسرع من رسم خريطة السماء ، وكان لهذا التقدم تقريباً نفس التأثيرات المزعجة على الدين والفلسفة . أما الجيولوجيا فكانت أقل من غيرها تقدماً . لأن نظرية الخلق كما وردت فى الكتاب المقدس أصبحت فى مأمن من الشك بفضل الإيمان بمصدرها الإلهى . قال المصلح الإيطالى — الإنجليزى بيتر مارتير فرميلي « لو شاع

بين الناس رأى خاطيء عن الخليفة كما وردت في سفر التكوين لبطلت كل وعود المسيح وفقد ديننا حياته كلها » . (٤٩) وأهم كتب الجيولوجيا التي صدرت في النصف الأول من القرن السادس عشر كتاب ألفه جورج أجريكولا (هذا فضلا عن آراء ليوناردو المبعثرة هنا وهناك) .

تأمل هذه الفقرة من كتابه *De ortu et causis subterraneorum* (بال ١٥٤٦) عن منشأ الجبال : « تتكون التلال والجبال بفعل قوتين ، إحداهما قوة المياه ، والأخرى قوة الرياح ، ويجب أن نضيف إليهما النار التي في باطن الأرض . . . ذلك أن السيول تجرف أولا التربة اللينة ، ثم تحمل التربة الأكثر صلابة ، ثم تدحرج الصخور ، وهكذا تحفر السهول أو السفوح في بضع سنوات . . . ونتيجة لهذا الحفر في عصور كثيرة يتكون مرتفع ضخم . . . هو الأنهار . . . والأنهار تحدث نفس النتيجة باندفاعها وجرفها ، ولذا كثيراً ما ترى جارية بين جبال شاذجة كونتها هذه الأنهار ، أو بقرب الساحل الذي يحفها . . . وتكون الرياح تلالا وجبالا بطريقتين . . . إما بتحريك الرمال وإثارتها بعنف ، وإما بكفاحها للخروج بقوة . . . بعد أن تكون قد دفعت الى شقوق الأرض الخفية » (٥٠) .

أما كتاب أجريكولا *De natura fossilium* (١٥٤٦) فأول بحث منسق عن علم المعادن ، ويحتوى مقاله *De metallica* على أول بحث نسقى عن علم الطبقات ، وفيه كما رأينا أول تحليل للرواسب المعدنية .

أما الأثنوغرافيا (علم نشوء الأعراق) فقد أتخفتنا بكتابين كبيرين : أولهما *Cosmographia universalis* (١٥٤٤) ، لسياستيان مونستر ، وثانيهما *Descriptio Africa* (١٥٥٠) لليو الأفريقى *Leo Africanus* . كان الحسن بن محمد الوزان مسلماً من غرناطة ، وقد تنقل في أرجاء أفريقيا ووصل جنوباً إلى السودان

يحدوه ولع شديد بالأسفار كولع ابن بطوطة. وقد أسره القراصنة المسيحيون وبعثوا به إلى روما هدية للبابا ليو العاشر الذى أعتقه ورتب له معاشاً بعد أن أعجب بما حصله من علم وثقافة. واستجاب لهذا العطف باعتناقه المسيحية واتخاذ « ليو » اسماً له . ثم أنفق الثلاثين السنة التالية فى تأليف كتابه هذا بالعربية أولاً ثم بالإيطالية . وقبل الفراغ من طبعه الكتاب عاد إلى تونس . وهناك مات عام ١٥٥٢ على دين آبائه فيما يبدو . (٥١)

وكان العصر مثيراً بالنسبة للجغرافيا. فقد جاءت الأنباء والتقارير تترى ، من المبشرين والفاتحين الأسبان والملاحين والرحالة ، مضيئة بإضافات هائلة إلى معرفة أوروبا بالكرة الأرضية. وكان الأسبان الذين فتحوا المكسيك وكاليفورنيا وأمريكا الوسطى وبيرو فى هذه الفترة مغامرين وطلاب ثراء أولاً ، سثموا الفقر والحياة الرتيبة فى وطنهم ، واقتحموا المخاطر بلذة فى تلك الأقطار النائية الغريبة . وفى غمرة الشدائد التى عانوها فى مغامراتهم المستهترة نسوا قيود الحضارة . واعتنقوا بصراحة أخلاقيات المدافع المتفوقة . واقترفوا عملاً من أعمال السطو والغدر والقتل لا يغتفر . إلا أن يرى طرف ذو مصلحة أن نتيجة النهائية كانت كسباً للحضارة . ومع ذلك فما من شك فى أن المغلوبين كانوا فى ذلك الوقت أعظم تحضراً من الغالبين الفعليين . وحسبك أن تتأمل حضارة المايا التى وجدها هرنانديز القرطبي فى يوكاتان (١٥١٧) . وإمبراطورية المونتزوميين الأزتيكية التى غزاها هرناندو كورتيز (١٥٢١) . وحضارة الإنكا الاشتراكية التى دمرت إبان فتح فرانيسكو بيزارو لبيرو (١٥٢٦ - ٣٢) . ولا ندرى أى صور نبيلة أو خسيصة كانت هذه الحضارات متطورة إليها لو أتيح لها سلاح تدافع به عن نفسها .

ومضى الكشف الجغرافى المثير قدماً : فارتاد سبستيان كابوت تحت الراية الأسبانية الأرجنتين وأورجواى وبراجواى : واخترق دى سوتو فلوريدا وولايات الخليج حتى بلغ أوكلاهوما . واكتشف بدرو دى الفارادو لإمبراطورية تكساس ، واخترق فرانشسكو دى كورونادو أريزونا وأوكلاهوما حتى بلغ كانزاس . وبدأت مناجم بوتوزى فى بوليفيا تبعث بفضتها إلى أسبانيا (١٥٤٥) ، وكانت خريطة العالم الحديد ترسم سنة بعد سنة بالذهب والفضة والدم . وتخالف الإنجليز والفرنسيون فى هذه القارة الكبرى لأن أرجاء أمريكا الشمالية التى تركها لهم الأسبان والبرتغال كانت فقيرة فى معادنها النفيسة ، وعرة فى غاباتها . وأبحر جون رت بحذاء ساحل نيوفوندلند ومين . وبعث فرانسوا الأول بجوفانى دا فيرانانو ليبحث عن مسلك شمالى غربى إلى آسيا ، فرسا على كارولينا الشمالية ، ودخل ميناء نيويورك (التى تذكره بتمثال عند بطاريتها) ، ودار حول رأس كود حتى وصل مين . وأبحر جاك كارتية وهو يرفع علم فرنسا مصعداً فى السانت لورنس حتى بلغ مونترىال ، مدعماً بذلك دعوى فرنسا بحقها فى امتلاك كندا .

على أن أعظم المغامرات لإثارة فى هذا الجيل الثانى من أجيال الارتياح فيما وراء المحيط هى الدوران حول الكرة الأرضية . كان فرناو دى ماجالائس برتغالياً قد شارك بنشاط فى كثير من الرحلات والغزوات البرتغالية . ولكنه انتقل إلى خدمة أسبانيا بعد أن غضبت عليه حكومته ، وفى عام ١٥١٨ أقنع شارل الأول (الخامس) بأن يمول بعثة تبحث عن ممر جنوبى غربى إلى آسيا . ولم يكن الملك الشاب قد أصاب يومها ما أصاب من ثراء بعد هذا . لذلك كانت السفن الخمس التى أعطاها للماجلان عتيقه بالية حتى أن أحد القباطنة

حكم بعدم صلاحيتها للملاحة ، وكانت حمولة أكبرها ١٢٠ طناً ، وأصغرها ٧٥ طناً : وعاف الملاحون الخيرون بالبحر التطوع بين بحارة هذه المراكب ، واقتضى الأمر اختيار معظم بحارتها من بين حشالة أهل الساحل : وفي ٢٠ سبتمبر ١٥١٩ أفلح الأسطول من نهر الوادى الكبير عند سان لوكار . وكان يتمتع بميزة الإبحار من الصيف فى الأطلنطى الشمالى إلى الصيف فى الأطلنطى الجنوبى ، ولكن الشتاء أدركه فى مارس ١٥٢٠ ، فألقت المراكب مراسيها ، وأنفق الملاحون خمسة شهور مملة فى بتاجونيا . أما الوطنيون العمالقة الذين زاد طول الواحد منهم فى المتوسط على ستة أقدام فقد أبدوا نحو الأسبان القصار القامة بالقياس لهم وداً فيه تطف وتنازل ، ولكن كثرة المشاق واستمرارها حملاً بحارة ثلاث من السفن الخمس على الترد ، وأكره ماجلان على مقاتلة رجاله ليجبرهم على المضى فى هذه المغامرة . على أن سفينة منها تسلفت عائدة إلى أسبانيا ، وتحطمت أخرى على حاجز صخري . وفى أغسطس ١٥٢٠ استؤنفت الرحلة ، وكان ماجلان يستطلع كل خليج يمر به عسى أن يكون مصباً لطريق مائى وراء المحيط . وفى ٢٨ نوفمبر تكلم البحث بالنجاح ، ودخل الأسطول الذى تناقص عدد سفنه المضايق التى تحمل اسم ماجلان . وهكذا استغرقت رحلة ٣٢٠ ميلاً من البحر إلى البحر ثلاثة وثمانين يوماً . ثم بدأ الأسطول عبوراً كثيباً موحشاً للمحيط الهادى الذى لم تبد له نهاية . ولم يقع نظر الملاحين خلال ثمانية وتسعين يوماً إلا على جزيرتين صغيرتين . وتناقصت المؤن بشكل خطر ، وأصيب الملاحون بالإسكربوط . وفى ٦ مارس ١٥٢١ مست السفن ساحل جوام : ولكن عداء الوطنيون حمل ماجلان ورجاله على مواصلة الإبحار . وفى ٦ أبريل وصلوا إلى الفلبين ، وفى اليوم السابع رسوا على جزيرة

كيبو . ورغبة في ضمان الحصول على المؤن من الجزيرة اتفق ماجلان مع الحاكم المحلي على أن يساعده في حربه مع أعدائه المجاورين . فشارك في حملة على جزيرة ماكتان ، وقتل في المعركة التي دارت هناك في ٢٧ أبريل ١٥٢١ . وهكذا لم يدر ماجلان حول الأرض ، ولكنه كان أول من حقق حلم كولومبوس في الوصول إلى آسيا بالإبحار غرباً (٥٢) .

كان عدد الملاحين قد هبط الآن بعد موت من مات منهم بحيث لم يكف إلا لتزويد سفينتين فقط بالرجال . أما إحدى السفينتين فقد قفلت عائدة عبر المحيط الهادى ، ربما سعيًا وراء الذهب الأمريكى . ولم يبق من سفن الأسطول غير «فكتوريا» . واضطلع بقيادتها جوان سبستيان ديلكانو ، فقاد السفينة الصغيرة التي لم تزد حملتها على خمسة وثمانين طنًا مخترقًا جزر البهار ، عابراً المحيط الهندى ، دائراً حول رأس الرجاء الصالح ، مصعداً في ساحل أفريقيا الغربى . وأرسل الملاحون السفينة تجاه إحدى جزر الرأس الأخضر وهم يتحرقون شوقاً للزاد والمثونة ، ولكن البرتغاليين هاجمهم ، وأودع السجن نصفهم . وأفلح الباقي وعددهم اثنان وعشرون في الهروب . وفي ٨ سبتمبر ١٥٢٢ بلغت السفينة فكتوريا إشبيلية وهي لا تحمل سوى ثمانية عشر رجلاً (والباقيون من أهل الملايو) هم كل من بقى من ٢٨٠ رجلاً أقلعوا من أسبانيا قبل ثلاث سنوات تقريباً . وسجلت يومية السفينة هذا التاريخ باعتباره ٧ سبتمبر . وعلل الكاردينال جاسبارو كونتاريني الفرق باتجاه الرحلة الغربى . لقد كانت المغامرة من أجراً للمغامرات في التاريخ ، ومن أحفلها بالثأر للجغرافيا .

وبقى على الجغرافيين واجب اللحاق بالرواد . وقد يسر لهم جيامباتستا راموزيو — وهو هاكليت الإيطالى — هذه المهمة بجمعه

خلال ثلاثين عاماً القصص والأخبار التي جلبها الرحالة وغيرهم من المسافرين ، وقد ترجمها وعلق عليها ، ثم نشرت في ثلاثة مجلدات (١٥٥٠ - ٥٩) بعد موته بثلاثة عشر عاماً . ويظهر التقدم الذي حققه الجغرافيون في عشر سنوات إذا قارنا بين الكرة الأرضية كما رسمت عام ١٥٢٠ ، المحفوظة بالمتحف القومي الألماني في نورمبرج ، والتي تبدو فيها جزر الهند الغربية دون أثر لقارة أمريكية ، ثم تقفز هذه الجزر فوق محيط ضيق إلى آسيا ، وبين ثلاث خرائط رسمها (١٥٢٧ - ٢٩) ديوجو ريبيرو ، وقد ظهرت فيها شواطئ أوروبا وأفريقيا وجنوب آسيا مرسومة بدقة عظيمة ، والساحل الشرقي للأمريكتين من نيوفوندلند حتى مضائق ماجلان ، والساحل الغربي من بيرو إلى المكسيك ، ولعل « خريطة راموزيو » (البندقية ١٥٣٤) البديعة للأمريكتين ، المحفوظة بمكتبة نيويورك العامة ، منقولة عن ريبيرو هذا . وفي نفس « الكلية الأم » خريطة قديمة خاطئة رسمها جرهادوس مركاتور (١٥٣٨) أطلق فيها على أمريكا الشمالية والجنوبية اسمهما هذا لأول مرة . (أما « خريطة نركاثور البارزة » فترجع إلى عام ١٥٦٩) . وأضاف بيتر أبيان (١٥٢٤) إلى علم الجغرافيا بمحاولته إخضاع المسافات الجغرافية لمقاييس مضبوطة .

وقد ظهرت آثار هذه الارتياحات في كل منحى من مناحي الحياة الأوربية . فرحلات ١٤٢٠ - ١٥٦٠ زادت وجه الكرة المعروفة للبشر أربعة أضعاف تقريباً . وكان للجديد من الحيوان والنبات ، والأحجار الكريمة والمعادن ، والأطعمة والعقاقير ، الفضل في إثراء نبات أوروبا وحيوانها وجيولوجيتها وموائدها وعقاقيرها . وتسائل الناس كيف وجد ممثلو الأنواع الجديدة كلها مكاناً في فلك

نوح : وتغير الأدب ، فأخلت قصص الفروسية القديمة مكانها لقصص الأسفار أو المغامرات في الأقطار النائية ، وحل البحث عن الذهب محل البحث عن الكأس المقدسة في رمزية لاشعورية للمزاج الحديد . وفتحت أعظم ثورة تجارية في التاريخ (قبل أن تبلغ الطائفة مرحلة النضج) المحيط الأطلنطي وغيره من المحيطات للتجارة الأوربية ، وخلفت البحر المتوسط في حالة ركود تجارى ، ومن ثم ركود ثقافى تبعه بعد قليل . وانتقلت النهضة من إيطاليا إلى دول الأطلنطي . وراحت أوربا ، التى كانت تملك سفناً ومدافع أفضل وسكاناً أصلب وأشد رغبة فى التملك والمغامرة ، راحت تفتح — وأحياناً تستعمر — البلد تلو البلد من الأقطار المكتشفة . وأكره السكان الوطنيون على العمل المتصل الشاق الذى لم يتعودوه لإنتاج السلع لأوربا ، وأصبح الرق نظاماً راسخاً . وغدت أصغر القارات تقريباً أعظمها ثراء . وبدأت حركة صيغ الكرة الأرضية بالطابع الأوروبى ، وهى الحركة التى قلبت قلباً حاداً فى عصرنا . ووجد عقل الرجل الغربى حافزاً قوياً فى بعد الشقة بينه وبين الأقطار الجديدة وفى ضخامتها وتنوعها . وربما كان لبعض تشكك مونتيني جذور فى سحر الدخيل المجلوب من العادات والعقائد . واتخذت العوائد والأخلاق نسبية جغرافية أوهنت القديم من العقائد القطعية واليقينية . وكان لازماً أن ينظر إلى المسيحية ذاتها فى منظور جديد بوصفها دين قارة صغيرة تقوم وسط عالم من العقائد المنافسة ؛ وكما أن المذهب الإنسانى كشف عالماً قبل المسيح ، وكما أن كوبرنيق أطمأ اللثام عن ضلالة الأرض الفلكية ، كذلك كشف ارتياد الأراضى الجديدة وما تلاه من تجارة عن أقطار شاسعة تقوم وراء المسيحية دون اكتراث لوجودها . وتزعزعت مكانة أرسطو وغيره من اليونان حين ظهرت قلة ما عرفوا عن هذا الكوكب . واضمحلت

إعجاب النهضة الأعمى باليونان ، واستعد الإنسان ، التياه بكشوفه
الجديدة تيه أهل النهضة ، لنسيان حجمه الفلكى المتناقص أمام اتساع معارفه
وتجارته . وظهر العلم والفلسفة العصريان ، واضطلعا بمهمة خطيرة ،
مهمة تصور العالم من جديد .

٤ — بعث علم الأحياء

بعث الآن من جديد علوم الأحياء التى لم تكد تحرز أى تقدم
منذ عصر الإغريق . فكافح علم النبات ليتحرر من قبضة الصيدلة
ويقف على قدميه ، ونجح فى هذا الكفاح ، ولكن لم يكن بد
من أن يظل المهيمنون عليه من رجال الطب . وبدأ الحركة
أوتو برونفيلز ، الطبيب المدينى فى برن ، بكتاب « صور حية للنبات »
(١٥٣٠ — ٣٦) ، وقد سرق معظم نصه من ثيوفراستوس ،
وديوسقوريدس ، وغيرهما من السلف ، ولكنه أضاف أيضاً وصفاً
للنباتات الألمانية الموطن ، وكانت رسومه المحفورة على الخشب وعددها
١٣٥ نماذج فى الأمانة . وأنشأ يوريكيوس كوردوس ، طبيب مدينة
بريمن ، أول حديقة نباتية (١٥٣٠) شمال جبال الألب ، وحاول
كتابة خلاصة مستقلة لعلم النبات الوليد فى كتابه *Botanilogicon*
(١٥٣٤) ثم عاد إلى مجال الطب فى كتابه *Liber de urinis* .
وقام ابنه فاليريوس كوردوس بحولات مستهترة فى سبيل درس النبات ،
وقد لقي حتفه أثناءها وهو فى التاسعة والعشرين (١٥٤٤) ، ولكنه
ترك من بعده للنشر كتابه « تاريخ النبات » ، وفيه وصف حتى دقيق
لخمسةائة نوع من النبات . وقد بدأ ليونارد فوكس ، أستاذ الطب
بتوبنجن . بدراسة النبات سبيلا إلى الاقرباذين ، ثم انتهى بدراسته
لداته ولما فيه من متعة . وكان كتابه *Historia stirpium*

(١٥٤٢) مثالا للتفاني في العلم ، وقد حوى ٣٤٣ فصلا حلت ٣٤٣ جنساً وشرحتها في ٥١٥ رسماً مجفوراً على الخشب يشغل كل منها صفحة كبيرة كاملة . وأعد للطبع كتاباً أشمل حتى من سابقه ، وبه ١,٥٠٠ لوحة ، ولكن أحداً من أصحاب المطابع لم يقبل أن يتكفل بنفقات نشره . أما أثره الحى الباقى فهو جذس « الفوشيا » .

وربما كانت أهم فكرة مفردة أسهم بها في علم الأحياء في هذه الفترة هى شرح بيير بيلون في كتابه *Histoire des oyseaux* (١٥٥٥) لذلك التقابل المدهش بين عظام الإنسان والطيور . ولكن أعظم أبطال « العلم الطبيعى » في هذا العصر هو كونراد جسنر ، الذى شمل إنتاجه وعلمه ميداناً بلغ من الاتساع مبلغاً حمل كوفيه على أن يطلق عليه اسم بلىنى ألمانيا ، بل كان يحق له أن يسميه ارسطو ألمانيا أيضاً . وقد ولد في أسرة فقيرة بزيورخ (١٥١٦) ، وأبدى من الاستعداد والدأب على الدرس ما جعل المدينة تتعاون مع رعاته الخاصين على تمويل تعليمه العالى في ستراسبورج وبورج وباريس وبال . وقد وضع أو جمع ١,٥٠٠ رسم توضيحي لكتابيه « تاريخ النبات » ، ولكن تبين أن تكاليف طبع الكتاب ستكون باهظة ، فظل مخطوطاً ولم يطبع إلا عام ١٧٥١ ، وقد تأخر نشر تصنيفه البارع لأجناس النبات حسب بنياتها التناسلية بحيث لم يستطع ليناوس الاستعانة به . وقد نشر في حياته أربعة مجلدات (١٥٥١ - ٥٨) ، وخلف مجلداً خامساً ، من كتاب ضخيم في « تاريخ الحيوان » أورد فيه كل نوع من أنواع الحيوان تحت اسمه اللاتينى ، ووصف شكله ، وأصله ، وموطنه ، وعاداته ، وأمراضه ، وصفاته العقلية والعاطفية ، وفوائده الطبيعية والمنزلية ، ومكانه فى الأدب ، وكان التصنيف أبجدياً لا علمياً ، ولكن تكديسه الموسوعى للمعلومات أعان علم

الأحياء على أن يتخذ له شكلاً محدداً . على أن هذه الجهود لم تُنضج
معين جسور ، فبدأ موسوعته «المكتبة العالمية» في واحد وعشرين
مجلداً عكف فيها على وضع فهرس بجميع الكتابات اليونانية
واللاتينية والعبرية المعروفة ، وأكمل منها عشرين مجلداً ، واستحق
بذلك لقب « أبى البليوغرافيا » . وفي قسم جانبي يسمى « متريداتيس »
(١٥٥٥) حاول تصنيف ١٣٠ لغة من لغات العالم . ويبدو أن
كتابه *Descriptio Montis Pilati* (١٥٤١) كان أول دراسة منشورة
للجبال بوصفها إحدى صور الجمال ، وعرفت سويسرة الآن أنها
بلد جليل رائع . وكل هذه المؤلفات أنجزت بين عامي ١٥٤١
و ١٥٦٥ . وفي هذه السنة مات كونراد جسور ، روح الدراسة
المتجسس .

وفي غضون ذلك كان لكتاب جوان فيث *De anima et vita*
(١٥٣٨) معظم الفضل في خلق علم النفس التجريبي الحديث . وكان
فيث أراد أن يتحاشى التشكك ، الذي كان هيوم زمعاً أن
يبسطه بعد قرنين ، حول وجود «عقل» بالإضافة إلى العمليات العقلية ،
فنصح الطالب ألا يسأل ما هو العقل أو ما هي النفس ، لأننا (كما
أحسن) لن نعرف هذا أبداً ، إنما يجب أن نسأل ماذا « يفعل »
العقل ؛ وعلى السيكولوجيا ألا تكون غيبيات نظرية ، وأن تصبح
علماً مبنياً على مشاهدات محددة ومتجمعة ، في هذا سبق فيث فرانسس
بيكون بقرن من الزمان في توكيده للاستقراء . ودرس بالتفصيل
ترابط الأفكار ، وعمل الذاكرة وتحسينها ، وعملية المعرفة ، ودور
الشعور والعاطفة . ونحن نشهد في كتابه هذا علم النفس منبعثاً في
ألم ، انبعاث كثير من العلوم قبله ، من بطن أم واحدة للجميع ،
هي الفلسفة .

٥ - فيساليوس

فى عام ١٥٤٣ نشر أندرياس فيساليوس كتاباً قال عنه السر وليم أوسلر إنه أعظم ما كتب فى الطب قاطبة^(٥٢). كان أبوه أندرياس فيسل صيدلياً غنياً فى بروكسل ، وجده طبيباً للمارى البرجندية ثم لزوجها مكسميليان الأول ، أما جده الأكبر - وكان طبيباً - فقد كتب تعليقاً على كتاب ابن سينا « القانون » . هنا نجد حالة من الوراثة الاجتماعية تفوق حالة أسرة باخ . وما لبث فيساليوس أن أغرم بالتشريح بعد أن درب عليه منذ نعومة أظفاره . « فلم ينج من مبعضه حيوان . فهو يشرح الكلاب والقطط والجردان والفيران والخلدان تشريحاً غاية فى الدقة^(٥٤) » غير أنه لم يهمل الدراسات الأخرى . فى الثانية والعشرين من عمره حاضر فى اللاتينية ، وكان يقرأ اليونانية فى يسر . ثم درس التشريح فى باريس (١٥٣٣ - ٣٦) على جاك دويوا الذى أطلق على كثير من العضلات والأوعية الدموية أسماءها التى ما زالت تحملها إلى اليوم . وظل فيساليوس طويلاً ، كأساتذته ، يؤمن بجالينوس لإنجيلا له ، ولم يفقد احترامه له قط . ولكنه كان يحترم سلطان المشاهدة والمناقشة أكثر كثيراً . وقام هو وبعض زملائه الطلبة برحلات كثيرة إلى مستودعات جثث الموتى حيث جمعت العظام المستخرجة من جبانة الأطفال ، وهناك ألفوا منظر أجزاء الهيكل البشرى ألفة أتاحت لهم كما روى « أن نجرؤ أحياناً ، حتى ونحن معصوبو الأعين ، على مراهنه رفاقنا ، وخلال نصف ساعة لم تكن تقدم لنا عظمة . . . إلا وعرفناها باللمس^(٥٥) » . وحدث غير مرة فى محاضرات دويوا أن كان المشرح الشاب الجرىء يزيح « الحلاقين الصمحين » الذين كان الأستاذ الطبيب يكل إليهم عادة مهمة التشريح الفعلى ، ويقوم هو بعرض الأعضاء موضوع المحاضرة عرض خبير^(٥٦).

واعتكف فيساليوس في لوفان حين غزا مليكه شارل الخامس فرنسا عام ١٥٣٦. وقد عطل نشاطه هناك نقص الحث، فخطف جثة من الهواء هو وصديق له يدعى جيا فريزيوس (الذى اشتهر فيما بعد رياضياً). وتكشف روايته للحادث عن ولعه بالتشريح. يقول:

«بينما كنا نتمشى ونبحث عن عظام في المكان الذي يوضع فيه عادة من أعدموا، على الطريق الريفية. وقعت على جثة متييسة. . . وكانت العظام مجردة من اللحم كلية ولا يمسكها غير الأربطة. وتسقلت الخازوق بمساعدة جيا وجذبت عظم الفخذ. وأتبعته العظم الكتفي والذراعيين واليدين. . . وبعد أن حملت الساقين والذراعيين إلى البيت خفية وفي رحلات متتالية. . . تركت نفسي حبساً خارج المدينة في المساء حتى آتى بالصدر. وكان مربوطاً ربطاً وثيقاً بسلسلة، وكنت أتحرق شوقاً إلى إتمام مهمتي. . . وفي الغد نقلت العظام جزءاً فجزءاً خلال بوابة أخرى من بوابات المدينة» (٥٧).

وأدرك عمدة المدينة الأمر، ومن بعدها كان يعطى فصول التشريح ما أمكن الإفراج عنه من الحث. يقول فيساليوس «وكان هو نفسه يخضر بانتظام كلما قمت بالتشريح» (٥٨).

وما كان في استطاعة رجل كهذا «يتحرق شوقاً» أن يحتفظ بطبعه هادئاً. فما لبث أن اشتبك في نزاع حاد مع مدرس حول طرائق شق الوريد. ورحل عن لوفان (١٥٣٧) وركب هابطاً الرين عابراً جبال الألب إلى إيطاليا. وكان قد بلغ من الكفاية مبلغاً أتاح له الحصول قبل نهاية تلك السنة على درجة الطب في بادوا «بأقصى خفض» في الرسوم، لأنه كلما علا تقدير الطالب انخفضت رسوم تخرجه. وفي اليوم التالي نفسه (٦ ديسمبر ١٥٣٧) عينه مجلس شيوخ البندقية أستاذاً للجراحة والتشريح بجامعة بادوا. وكان يومها في الثالثة والعشرين:

وقام في الأعوام الستة التالية بالتدريس في بادوا وبولونيا وبيزا ،
وشرح مئات الحثث بيديه ، وأصدر بعض الكتب الصغيرة . وقد رسم
تلميذ لتيشان يدعى جان ستيفان فان كالكار ، تحت إشرافه ،
ست لوحات نشرت عام ١٥٣٨ بعنوان *Tabulae anatomicae sex*
وبعد عام أيد فيساليوس في رسالته عن « شق الأوردة » ببيير بريسو
الباريسي في طرق الفصد . وفي معرض مناقشته للموضوع كشف عن بعض
نتائج تشريحه للجهاز الوريدي ، وقد أعانت ملاحظاته هذه على كشف
الدورة الدموية . وفي ١٥٤١ - ٤٢ اشترك مع علماء آخرين في نشر
طبعة جديدة من النص اليوناني لجالينوس . وقد أدهشته أخطاء ندت
عن جالينوس وكانت خلية بأن يدحضها أبسط تشريح لجسم الإنسان
كقوله مثلاً : إن الفك السفلي قسمان ، وإن القص سبع عظام متميزة ،
والكبد عدة فصوص . وما كان ممكناً لتعليل هذه الأخطاء واغتفارها
إلا على فرض أن جالينوس لم يشرح قط آدميين بل حيوانات . وشعر
فيساليوس أنه قد حان الوقت لمراجعة علم تشريح الإنسان بتشريح
الآدميين . وهكذا أعد أعظم كتيبه .

وحين طبع يوهان أوبورينوس عام ١٥٤٣ بمدينة بازل كتابه
هذا المسمى « بنية جسم الإنسان » في ٦٦٣ صفحة من القطع الكبير ،
لا بد أن الشيء الذي أدهش القارئ لتوه كان صفحة الغلاف - وكانت
حفراً جديراً بالفنان دورو . يمثل فيساليوس يشرح تشريح ذراع
مفتوحة ، ومن حوله خمسون طالباً يرقبونه . ثم الرسوم التوضيحية :
٢٧٧ رسماً مطبوعاً من كليشيات خشبية ذات دقة تشريحية لم يسبق لها
نظير وبراعة فنية عظيمة . معظمها من صنع فان كالكار ، وخلف
الأشكال مناظر لا تتصل علمياً بالموضوع ولكنها جاذبة من الناحية
الفنية - فترى مثلاً هيكلًا عظمياً عند مقعد للقراءة . وكانت هذه
الرسوم المطبوعة من الجمال بحيث خالها بعضهم مصممة في مرسم تيشان

ربما بإشرافه ؛ ولا بد أن نضيف إلى هذا أن فيساليوس رسم عدة رسوم منها بيده . وقد رافق الكليشيوات الخشبية ساهراً على سلامتها في الرحلة على ظهر بغل من البندقية إلى بال' عبر جبال الألب . وجين تم طبع الكتاب حفظت الكليشيوات بعناية . وفي تاريخ لاحق اشترت ، ثم تبودلت ، ثم فقدت ، وفي عام ١٨٩١ عثر عليها مخبأة في مكتبة جامعة ميونيخ ، وقد دمرتها القنابل في الحرب العالمية الثانية.

أما الذى كان ينبغى أن يثير في النفس دهشة أعظم مما أثارته هذه الرسوم فهو أن النص - وهو نصر طباعى ولكنه إلى ذلك ثورة علمية - كان من صنع فتى لم يتجاوز التاسعة والعشرين . وهو ثورة لأنه أنهى سلطان جالينوس على التشريح ، وراجع العلم كله بلغة التشريح ، وبهذا أرسى دعائم الأساس الفزيائى للطب الحديث ، الذى يبدأ بهذا الكتاب . فهنا وصف لأول مرة سير الأوردة الصحيح وتشريح القلب ؛ وهنا ورد ذلك القول الخطير . وهو أن التشريح البالغ الدقة لم يظهر أياً من تلك المسام التى افترض جالينوس أن الدم يمر عن طريقها من بطين إلى آخر ؛ وبهذا أصبح الطريق معبداً لسرفيتوس وكولومبو وهارفى . وقد صححت أخطاء جالينوس المرة بعد المرة - فيما يتصل بالكبد ، والقنوات المرارية . والفككين ، والرحم . وقد ارتكب فيساليوس هو أيضاً أخطاء . حتى فى المشاهدة ، وأخفق فى أن يقفز القفزة الكبرى من تشريح القلب إلى دورة الدم . ولكن هنا أوصاف صادقة لعشرات من الأعضاء لم تحظ قط بمثل هذا الوصف الدقيق من قبل ، وفتح كل جزء من أجزاء الجسم للعلم بيد واثقة قديرة .

على أن فيساليوس عانى من عيوب فضائله . ذلك أن الكبرياء التى سنده طوال دراسته الموفقة جعلته سريع الغضب . بطيئاً فى

الاعتراف بمنجزات سابقه وتقدير حساسية منافسيه : وبلغ ولعه بذلك « الإنجيل الصادق . . . ألا وهو جسم الإنسان وطبيعة الإنسان » (٩) مبلغاً جعله يؤذى شعور عدد كبير من أقطاب اللاهوتيين : وكان يشير في تهكم إلى رجال الكنيسة الذين يشتد إقبالهم على غرفة محاضراته حين يكون موضوع الدرس والعرض هو الأعضاء التناسلية (٦٠). وقد أثار عداوة الكثيرين : ومع أن جسناً وفالوبيو رحباً بكتابته ، فإن أكثر الأساتذة القدامى ، ومنهم أستاذه السابق دوبوا ، نددوا بالمؤلف بوصفه محدثاً وقبحاً ، وجدوا في تسقط العيوب في كتابته . وقال دوبوا إن جالينوس لم يخطئ ، ولكن جسم الإنسان عراه تغير منذ عهد جالينوس ، وعلى ذلك فعظام الفخذين الواضحة الاستقامة ، والتي ليست مقوسة كما وصفها جالينوس ، إنما هي في رأيه نتيجة لارتداء أوربي عصر النهضة سراويل ضيقة (٦١) .

وفي عاصفة من خيبة الأمل في موقف هؤلاء الرجال أحرق فيساليوس مجلداً ضخماً من كتاب « التعليقات » Annotations وتفسيراً للأجزاء العشرة التي يتألف منها كتاب الرازي « كتاب المنصوري » — وهو موسوعة في الطب (٦٢). وفي عام ١٥٤٤ رحل عن إيطاليا ليصبح طبيباً ثانياً بين أطباء شارل الخامس الذي سبق أن أهده في حفاضة كتابه « فابريكا » : Fabrica : ومات أبوه في نفس العام تاركاً له ثروة طيبة . فتزوج وبني بيتاً جميلاً في بروكسل . وصدرت طبعة ثانية لكتابته « فابريكا » عام ١٥٥٥ ، مزينة ومنقحة . وقد بين الكتاب أن التنفس الصناعي يمكن أن يبقى على حياة الحيوان رغم شق صدره ، وأن القلب الذي توقف نبضه يمكن أحياناً رد الحياة إليه باستعمال منفاخ . بعد هذا لم يصف فيساليوس جديداً إلى التشريح . فقد استغرق في العناية بمرضاه من أسرة الإمبراطور ومن دولهم ، وفي ممارسة

الجراحة ودراستها . وأصبح فيساليوس طبيباً ثانياً لفيليب الثاني بعد أن اعتزل شارل الملك . وفى يوليو ١٥٥٩ أوفده الملك ليساعد أمبرواز باريه فى محاولة لإنقاذ حياة هنرى الثانى الجريح ، ولجأ فيساليوس إلى اختبارات إكلينيكية أظهرت استحالة شفائه ٥ وفى تاريخ لاحق من هذه السنة رافق هو وأسرته فيليب إلى إسبانيا ٥

فى غضون ذلك أضاف آخرون جديداً إلى التشريح . فلاحظ جيامباتستا كانو صهامات الأوردة (١٥٤٧) ، وشرح سرفيتوس دورة الدم فى الرئتين (١٥٥٣) ، ووصل ريالدو كولومبو إلى هذا الكشف ذاته (١٥٥٨) ، وأثبته بأجراء تجربة على القلب الحى . ولكن سبعين سنة أخرى انقضت قبل أن يأتى هارفى بوصفه الخطير لسير الدم من القلب إلى الرئتين ، فالى القلب ، فالى الشرايين ، فالى الأوردة ، ثم إلى القلب . وكان الطبيب العربى ابن النفيس قد سبق سرفيتوس عام ١٢٨٥ (٦٣) ، وربما انحدرت الرواية المتواترة بنظريته إلى أسبانيا فى شباب سرفيتوس .

. وبقيت لفيساليوس بضع مغامرات . من ذلك أن الأطباء الوطنيين فى البلاط الأسباني كانوا يصرون على إهمال تشخيصه باعتبار هذا موقفاً يحتمه الشرف . فلما شكّا ابن فيليب الوحيد ، الدون كارلوس ، من ارتجاج فى المخ إثر سقطة (١٥٦٢) ، أشار فيساليوس بأجراء تربية له . ولكن النصيحة رفضت ، وأشرف الفتى على الهلاك . ووضعت على الجرح التأم وآثار القديسين ، وجلد الأتقياء أنفسهم توسلا إلى السماء أن تشفيه بمعجزة : ولكن هذا كله لم يجد فتىلا . وأخيراً أصر فيساليوس على فتح الجمجمة ، ففتحت ، وسحبت منها كمية كبيرة من الصديد : وما لبث الأمير أن تماثل للشفاء ، وبعد إجراء العملية بثمانية أيام سار فيليب فى موكب مهيب لتقديم الشكر لله . (٦٤)

وبعد عامين رحل فيساليوس عن أسبانيا لأسباب ما زالت محل خلاف . وقد روى أمبرواز باريه قصة مشرح أثار عليه غضب أسبانيا بأسرها لأنه فتح بطن امرأة كان الظن أنها ماتت من « اختناق الرحم » ، قال باريه أن ضربة أخرى من مبضع الجراح ردت المرأة فجأة إلى الحياة ، « الأمر الذى بعث فى قلوب جميع أصدقائها من الإعجاب والرعب . . . ما جعلهم ينظرون إلى الطبيب - الذى كان من قبل واسع الشهرة طيب السمعة - نظرتهم إلى رجل مجرم بغض » (٦٥) ، ولا عجب فالأقرباء لا يقدرّون دائماً مثل هذا الشفاء غير المتوقع . وواصل الجراح الهيجونوتى روايته فقال « لذلك لم ير سبيلا أمامه إلا مغادرة البلاد إن ابتغى لنفسه السلامة » . وروى هيجونوتى آخر يدعى أوبير لانجيه قصة كهذه (حوالى ١٥٧٩) ، وذكر أن الطبيب هو فيساليوس ، وزعم أن فيساليوس وقع تحت طائلة محكمة التفتيش لأنه شرح شخصاً حياً ، وقد نجا من المحاكمة حين أخذ على نفسه عهداً بالحج إلى فلسطين تكفيراً عن خطيئته . والحادثة لم ترد فى أى مصدر معاصر ، والمؤرخون الكاثوليك يرفضونها لأنها فى رأيهم قصة خرافية (٦٦) . ولعل السبب لا يعدو أن فيساليوس مل البقاء فى أسبانيا .

وعاد إلى إيطاليا ، وأبحر من البندقية (ابريل ١٥٦٤) ، ويبدو أنه بلغ أورشليم . وفى رحلة العودة تحطمت سفينته ، ومات من التعرض للجو ، نائياً عن أصاقله ، على جزيرة زنطة تجاه ساحل اليونان الغربى (١٥ أكتوبر ١٥٦٤) . وكان يومها فى عامه الخمسين . وفى هذا العام ذاته مات ميكالانجلو ، وولد شكسبير . لقد كان البهاء الذى سطعت شمسهُ قرناً فى سماء إيطاليا ينتقل إلى الشمال .

٦ — نهضة الجراحة

ظل علم الطب وفنه يسيران في ركاب أئمة الطب من اليونان والعرب ، على الرغم مما أحرزه التشريح من تقدم . ولم يكن لشهادة الخواس كبير وزن أمام كلمة جالينوس أو ابن سينا ، لا بل إن فيساليوس نفسه قال حين ناقض تشريحه رأى جالينوس « لم أكد أصدق عيني » . وكانت طبقات أو ترجمات جالينوس أو أبقرات تنشر المعلومات القديمة وتثبط القيام بالتجارب الجديدة — بالضبط كما كانت الجهود التي بذلها بترارك وروناسر لكتابة ملاحم فرجيلية تؤذى نبوغهما الفطري وتحرف مجراه . وحين أسس لناكر كلية الطب التي أطلق عليها فيما بعد كلية الأطباء الملكية (١٥١٨) . كانت كتبها الرئيسية هي ترجماته لجالينوس .

وقد أفاد علاج الأمراض من العقاقير الحديدية المحلوبة إلى أوروبا كالسكينا ، وعرق الذهب ، والراوند ، المحلوبة من أمريكا . والزنجبيل ولبان الجاوى من سومطرة ، والقرنفل من جزر ملقا ، والصبر من كوتشين الصينية ، والكافور والزنجفر من الصين ، ووسع هذا التطور استعمال النباتات الوطنية . وصنف فاليريوس كوردوس أول فارماكوبيا ألمانية (١٥٤٦) ، وشاع علاج الزهرى بتقيع خشب الغويقم المحلوب من جزر الهند الغربية . حتى أن آل فوجير جمعوا ثروة ثانية بحصولهم على احتكار بيعه في أملاك شارل الخامس الذي كان مديناً لهم .

على أن فقر جماهير الناس وقذارتهم كانا سبباً في تخلف الدواء عن المرض دائماً . وكانت أكوام القمامة أو روث البهائم تسمم الهواء . وتنتشر هنا وهناك في الشوارع أحياناً . وكان لباريس شبكة مجار أراد هنرى الثانى إفراغها في نهر السين لولا أن ثناه

رجال البلدية عن هذه الفعلة بتبصيره بأن النهر هو مورد مياه الشرب الوحيد لنصف السكان (٦٧). وأنشئت في إنجلترا بلخان للمجاري في عام ١٥٣٢ ، ولكن لم يكن فيها حتى عام ١٨٤٤ سوى مدينتين اثنتين تنقل فيهما القمامة من الأحياء الفقيرة على حساب الدولة .

أما الأوبئة فكانت أقل فتكاً منها في العصور الوسطى ، ولكنها كفت — هي ووفيات النفساوات والأطفال — لتثبيت السكان عند حد لا يكادون يتجاوزونه. وقد اكتسحت الطواغين ألمانيا وفرنسا المرة تلو المرة بين عامي ١٥٠٠ و ١٥٦٨ . وانتشرت حمى التيفوس في إنجلترا في أعوام ١٤٢٢ ، و ١٥٧٧ و ١٥٨٦ نتيجة لهجرات القمل . واجتاح إنجلترا « المرض المعرق » — ولعله ضرب من الأنفلونزا — في أعوام ١٥٢٨ و ١٥٢٩ و ١٥٥١ و ١٥٧٨ ؛ وألمانيا في ١٥٤٣ — ٤٥ ، وفرنسا في ١٥٥٠ — ٥١ . وقيل إن هذا المرض فتك بألف شخص في بضعة أيام في كل من هامبورج وآخن (٦٨). وكان الناس يعززون الأنفلونزه إلى « تأثيرات » influences: سماوية ، ومنها اشتقت اسمها . وعاد الطاعون الدبلي إلى الظهور في ألمانيا في عام ١٥٦٢ ، ففتك بتسعة آلاف من بين سكان نورمبرج البالغ عددهم أربعين ألفاً (٦٩) — وإن جاز لنا أن نفترض المبالغة في جميع الإحصاءات الخاصة بالطاعون . أما جوانب الصورة الأكثر إشراقاً فهي تضاؤل الإصابة بالجدام وبعض الاضطرابات العقلية كرقصة سانت فيتوس :

وكان سير التطبيب أبطأ من سير المعرفة الطبية . فزال دجاجلة الطب يملأون الأرض ؛ وكان من اليسير الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة جامعية برغم القوانين المقيدة . وكان أكثر الأطفال يخرجون إلى النور على أيدي القابلات . أما التخصص فلم

يكذب يبدأ . فطب الأسنان مثلاً لا يفصل عن الطب أو الجراحة ، وكان الحلاقون الصحيون يخلعون الأسنان ويستبدلون بها أسناناً من العاج . وترك جميع الأطباء تقريباً — وفيساليوس أحد القلائل الذين شذوا — مهمة الجراحة للحلاقين الصحيين ، الذين يجب على أى حال ألا ننظر إليهم على أنهم حلاقون ، لأن كثيراً منهم كانوا رجالاً ذوى دربة ومهارة :

فأمبرواز باريه بدأ حياته صبيّاً لحلاق ، ثم ارتقى حتى أصبح جراحاً للملوك : وقد ولد في بروج-إرسان في مين (١٥١٧) ، ثم شق طريقه إلى باريس ، وفتح كشك حلاقته في ميدان سان ميشيل . وخلال حرب ١٥٤٦ اشتغل جراحاً لفرقة من فرق الجيش . وكان في علاجه للجنود يسلم بالنظرية السائدة التي زعمت أن جروح الرصاص سامة ، ودرج (كما درج فيساليوس) على كيمها بزيت البلسان المغلى ، فكان الكى يحيل الألم عذاباً . وذات ليلة فرغ الزيت ، فضمد باريه الجروح بمرهم من مح البيض ، وزيت الورد ، والتربنينا : وفي الغد كتب يقول :

« أرقنى بالأمس طول التفكير في المصابين الذين لم أستطع كى جروحهم . وتوقعت أن أجدهم جميعهم أمواتاً في الصباح . وبهذه الفسكرة قمت مبكراً لأتفقدهم ، فما راغنى إلا أن أجدهم عالجتهم بالمرهم لا يشكون غير ألم بسيط جداً في جروحهم دون أى التهاب : . . . وقد قضوا ليلتهم في نوم مريح . أما الباقون الذين عولجت جروحهم بزيت البلسان المغلى فقد ارتفعت حرارتهم والتهبت جروحهم : : : وآلمتهم ألماً حاداً . وعلى ذلك صممت على ألا أعود ثانية إلى كى هؤلاء التعساء بمثل هذه الطريقة القاسية » (٧٠) . ولم يحظ باريه بتعليم يذكر ، ولم ينشر كتيبته عن « طريقة

علاج الجروح » - وهو اليوم كتاب مشهور في عالم الطب - إلا في عام ١٥٤٥ : وفي حرب ١٥٥٢ أثبت أن ربط الشريان أجدى من السكى في وقف النزف الذى تسببه عمليات البتر : وقد وفق بفضل عملياته الجراحية في حمل العدو على الإفراج عنه بعد أسره . ولما عاد إلى باريس عين كبيراً للجراحين بكلية سان كوم ، الأمر الذى أثار فزع السوربون التى تنظر إلى أستاذ جاهل باللاتينية كأنه هولة بيولوجية . وعلى الرغم من هذا أصبح جراحاً للملك هنرى الثانى ، ثم لفرانسوا الثانى ، ثم لشارل التاسع ، ومع أنه كان يجهر ببروتستنتيته ، فقد أبقي أمر ماسكى على حياته في منبحة سان بارتلميو . ولم يصف مؤلفه « كتابان في الجراحة » (١٥٧٣) لنظرية الجراحة إلا قليلا ، ولكنه أضاف الكثير للتطبيق . فقد اخترع أدوات جديدة ، وأدخل الأطراف الصناعية ، وأشاع استعمال الحزام في الفتق ، وحسن من تعديل وضع الحنين في الولادة ، وأجرى أول إعادة لمفصل الكوع ، ووصف التسمم بأول أوكسيد الكربون ، وقرر أن الذباب حامل للمرض . ومن الأقوال المشهورة في حوليات الطب اعترضه على ما تلقى من تهاني لنجاحه في علاج حالة مستعصية ، « أنا عاجلته ، والله شفاه » . وقد مات عام ١٥٩٠ بالغاً الثالثة والسبعين بعد أن رفع كثيراً من مكانة الجراحين وكفاياتهم ، ومنح فرنسا زعامة في الجراحة احتفظت بها قرونا من بعده .

٧ - باراسيلسوس والأطباء

فى كل جيل يظهر رجال ينكرون على الأطباء محافظتهم المشوبة بالحيلة ، ويدعون الوصول إلى أنواع ممتازة من العلاج بوسائل خارجة على التقاليد الطبية ، ويرمون رجال المهنة بالتخلف الوحشى ، ويأتون بالأعاجيب حيناً ، ثم يتبددون فى ضباب الغلو والعزلة اليائسين . ومن الخير أن يظهر ذباب الخيل هذا بين الحين والحين لينبه الفكر الطبى ، ومن الخير أن يكبح الطب جماح البدع المتعجلة فى تعامله مع الحياة البشرية . ففى هذا الميدان ، كما فى ميدانى السياسة والفلسفة ، يتعاون الشباب المتطرف ، والشيخوخة المحافظة ، على غير إرادتهما ، ليحدثا توازناً بين الاختلاف والوراثة ، ذلك التوازن الذى تتخذه الطبيعة أداة للتطور .

كان فيليبوس ثيوفراستوس بومباستوس فون هوهنهايم يتخذ له اسم أوربولوس رمزاً لنبوغه ، واسم باراسيلسوس - وهو على الأرجح ترجمة لاتينية للقب هوهنهايم^(٧١) . وكان أبوه فلهم بومباست فون هوهنهايم ابناً غير شرعى لنبيلى سوابى حاد الطبع . ولما ترك فلهم ليدهر شؤنه بنفسه ، مارس الطب بين فقراء القرويين قرب أينزيدلن فى سويسرة ، وتزوج من إلزا أوخسنر ، وكانت بنت صاحب حانة وممرضة مساعدة ، وقد أصيبت بعد قليل بحالة اكتئاب جنونى . وربما كان تضارب هذا النسب سبباً فى ميل فيليب إلى عدم الاستقرار ، وإلى إحساسه ساخط بقدرات لم ترعها بيئته رعاية كافية . وقد ولد فى ١٤٩٣ وشب وسط مرضى أبيه ، وربما فى ألفة بالحنات غير صالحة له ، تلك الحانات التى ظلت حياتها الطليقة تستهويه على الدوام . وتزعم قصة غير مؤكدة أن الصبى خصاه خنزير برى أو جنود مخمورون ؛

ولم يعرف أن امرأة ظهرت في حياته بعد البلوغ . وحين كان في التاسعة أغرقت أمه نفسها ، ولعل هذا هو السبب في رحيل الوالد والولد إلى فيلاخ بالتيروول . وتقول رواية متواترة أن فلهملم كان يقوم بالتدريس هناك في مدرسة للمناجم ويشغل بالكيمياء القديمة على سبيل الهواية . ولا بد أنه كان هناك مناجم بقرب المدينة ومصنع لصهر المعادن ، ومن المحتمل أن يكون فيليب قد تعلم هناك طرفاً من الكيمياء التي سيحدث فيها ثورة في دنيا العلاج .

ولما بلغ الرابعة عشرة قصد هايدلبرج للدراسة . وتكشف طبعه القلق في انتقاله السريع من جامعة لأخرى — فرايبورج ، وإنجولشتات ، وكولونيا ، وتوبنجن ، وفيينا ، وارفورت ، وأخيراً (١٥١٣ — ١٥) فيرارا — ولو أن هذا التنقل بين دور العلم كان مألوفاً في العصور الوسطى . وفي عام ١٥١٥ ، التحق فيليب — وقد سمي نفسه الآن باراسيلسوس — حلاقاً صحياً في جيش شارل الأول ملك أسبانيا ، دون أن يحصل على درجة جامعية . فلما انتهت الحملة عاد إلى حياة الترحل . وهو يزعم أنه مارس الطب في غرناطة ، ولشبونة ، وإنجلترا ، والدنمرك ، وبروسيا وبولنده ، ولتوانيا ، والمجر ، و « غيرها من الأقطار » (٧٢) وكان في سالزبورج إبان حرب الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وعالج جروحهم وتعاطف مع أهدافهم . وقد ولع حيناً بالاشتراكية . فهو يندد بالمال ، والفائدة ، والتجار . ويدعو للشيوعية في الأرض والتجارة ، وللمساواة بين الناس في الأجور (٧٣) . وفي كتابه الأول المسمى « Archidoxa » (أى الحكمة العظمى — ١٥٢٤) رفض اللاهوت وامتدح التجربة العلمية (٧٤) . ولما قبض

عليه بعد إخفاق ثورة الفلاحين ، أنقذته من حبل المشنقة شهادة بأنه لم يحمل سلاحاً قط ، ولكنه نفي من سالزبورج ، فغادرها على عجل .

وفي عام ١٥٢٧ كان في ستراسبورج يمارس الجراحة ويحاضر الحلاقين الصحيين ، وكان تعليمه لهم مزيجاً مهوشاً من المعقول وغير المعقول ، ومن السحر والطب - ولو أن الله وحده يعلم كيف سيصف المستقبل بقينياتنا الحاضرة : وقد رفض التنجيم ، ثم سلم به ، وكان يأبى أن يحقن مريضاً بحقنة شرجية ما لم يكن القمر في تربيعه الصحيح . وكان يسخر من عصا الكهانة ، ولكنه زعم أنه أحال المعادن ذهباً (٧٥) . وإذا كان - كأجريبيا في شبابه - يحدوه تعطش للمعرفة فقد بحث في شوق عن « حجر الفلاسفة » - أى عن صيغة عامة تفسر الكون . وكتب في سداجة المصدق عن الأقزام الخرافية ، وسلامندر الأسبستوس ، و « الإرشادات » ، وهى علاج الأعضاء المريضة بعقاقير شبيهة بها لوناً وشكلاً . ولم يستنكف من استخدام التعاويذ والتائم السحرية علاجاً (٧٦) - ربما بوصفها طبياً إيحائياً .

ولكن هذا الرجل نفسه ، الذى ينضح بأوهام جيله ، أدخل تحسينات جريئة على استخدام الكيمياء في الطب . وكان يتحدث أحياناً حديث الماديين « إن الإنسان مشتق من المادة ، والمادة هى الكون كله » (٧٧) . والإنسان بالنسبة للكون كالعالم الصغير (الميكروكوزم) بالنسبة للعالم الكبير (الماكروكوزم) وكلاهما من نفس العناصر - وأساسها الأملاح ، والكبريت ، والزرنيق ؛ والمعادن والأملاح المعدنية التى تبدو عديمة الحياة هى فى الواقع مفعمة بالحياة (٧٨) . والعلاج الكيماوى هو استخدام العالم الكبير

لشفاء العالم الصغير . والإنسان من حيث بدنه مركب كيميائي ، والمرض تنافر ، لا في « الأمزجة » كما زعم جالينوس ، بل في مكونات البدن الكيميائية ؛ وهذه أول نظرية حديثة للأبيض أو التمثيل الغذائي : وكان العلاج في ذلك العهد يعتمد في عقايره إلى حد كبير على عالم النبات والحيوان ، أما باراسيلسوس ، الغارق في كيميائه القديمة ، فقد أكد ما للمواد غير العضوية من قدرات علاجية . وجعل الزئبق ، والرصاص ، والكبريت ، والحديد ، والزرنيخ ، وكبريتات النحاس ، وكبريتات البوتاسيوم ، أجزاء من أقرباذه ، وأشاع استعمال الصبغات والخلصات الكيميائية ، وكان أول من صنع « صبغة الأفيون » التي نسميها اللودنوم : وقد شجع استعمال الحمامات المعدنية ، وشرح خواصها وآثارها المتنوعة .

ولاحظ باراسيلسوس العوامل المهنية والجغرافية المؤثرة في المرض ، ودرس السل الرئوي المتليف في المعدنين ، وكان من أول من ربط بين القماعة والغوطر المتوطن : وأدخل تحسينات على فهم الصرع ، وعزا الشلل واضطرابات النطق إلى إصابات الرأس . ومع أن الفسكرة المسلم بها تنمو في ذلك العصر عن النقرس والتهاب المفاصل هي أنهما رفيقان للشيوخوخة لا شفاء منهما ، فإن باراسيلسوس رأى أنهما قابلان للشفاء إذا شخصنا على أنهما نتيجة لاحماض تكونها بقايا الطعام التي استقرت طويلا في القولون . قال « كل الأمراض يمكن ردها إلى تخثر المادة غير المهضومة في الأمعاء » (٧٩) . وقد أطلق على هذه الأحماض الناشئة عن التعفن المعوى اسم « الطرطير » لأن رواسبها في المفاصل ، والعضلات ، والكلى ، والمثانة « تحرق كاللحم » ، وطرطروس

هي الجحيم» (٨٠) : « إن الأطباء يفاخرون بمعرفتهم بالتشريح ،
ولكنهم عاجزون عن رؤية « الطرطير » اللاصق بأسنانهم » . (٨١)
وعلى هذا المعنى بالكلمة الجديدة . واقتراح وقف تكون هذه
الرواسب في الجسم بالغذاء الصمغى ، والمقويات ، وتحسين
الإخراج ، وحاول « تليين » الرواسب باستعمال زيت الغار
ومركبات الراتنج ، أما الحالات الشديدة فقد دعا فيها إلى الجراحة
حتى يسمح للرواسب الملتصقة بالهروب أو تتاح إزالتها . وقد
زعم أنه شفى كثيراً من حالات النقرس بهذه الوسائل ، ويعتقد
بعض الأطباء في عصرنا هذا أنهم شفوا مرضى باتباع تشخيص
باراسيلسوس .

ووصلت إلى بال أنباء طرق العلاج التي توصل إليها باراسيلسوس
في ستراسبورج . وكان المصور الشهير فروبن يشكو هناك ألماً
حاداً في قدمه اليمنى ، فأشار الأطباء ببتير القدم . ودعا فروبن
باراسيلسوس إلى بال ليشرح الحالة . وجاء باراسيلسوس ،
ووفق في علاجها دون الالتجاء إلى السلاح . واستشار لارزمس
باراسيلسوس ، وكان يومها يعيش مع فروبن ويشكو أوجاعاً
كثيرة ، فوصف له علاجاً لا ندرى مدى توفيقه فيه . على أية
حال أضاف هؤلاء المرضى المشهورون شهرة جديدة إلى شهرة
الطبيب الشاب ، وقربه خليط غريب من الظروف من منصب
الأستاذ الجامعى الذى كانت تهفو إليه نفسه .

كان البروتستانت في تلك الحقبة أغلبية في مجلس مدينة بال ،
ففصلوا الدكتور فونيكير طبيب المدينة على الرغم من اعتراضات
لارزمس والأقلية الكاثوليكية ، بحجة أنه « تفوه بمزبورات جديدة
ضد الإصلاح البروتستانتي » (٨٢) وعينوا باراسيلسوس مكانه .

واقترح المجلس وباراسيلسوس أن هذا التعيين يتضمن حقه في التدريس في الجامعة ، ولكن الكلية استنكرت التعيين واقترحت عقد امتحان علني لباراسيلسوس في التشريح وهي على بينة من ضعفه فيه . فتهرب من الاختبار ، وبدأ يمارس مهنته طبيباً بالمدينة ، ويحاضر في قاعة خاصة دون موافقة الجامعة (١٥٢٧) . وقد جمع إليه الطلاب بدعوة مميزة لخلق هذا نصها : —

« من ثيوفراستوس بومباست فون هوهنهايم ، الدكتور في فرع الطب ، والأستاذ ، تحيات لطلبة الطب . إن الطب وحده دون جميع العلوم . . . هو المعترف به صناعة مقدسة . ومع ذلك فإن قلة من الأطباء يمارسونه اليوم بنجاح ، ومن ثم فقد حان الوقت لرده إلى مكانه المرموق السابق ، ولتنقيته من خيرة المهج ، وتطهيره من أخطائهم . وسنقوم بهذه المهمة ، لا بالتزام قواعد الأقدمين ، بل بشيء واحد دون سواه هو دراسة الطبيعة واستخدام الخبرة التي اكتسبناها خلال سنوات طويلة من الاشتغال بالطب . ومن ذا الذي يجهل أن معظم الأطباء المعاصرين يفشلون لأنهم استعبدوا أنفسهم لتعاليم ابن سينا وجالينوس وأبقراط ؟ . . . وقد يفضي بهم هذا الطريق إلى ألقاب فخمة ، ولكنه لا يكون طبيباً بمعنى الكلمة . . . فليس الطبيب في حاجة إلى الفصاحة أو الإلمام باللغة أو الكتب . . . بل إلى المعرفة العميقة بالطبيعة وأعمالها . . .

ولقد اعتزمت ، بفضل المنحة السخية التي قدمها سادة بال لهذا الغرض ، أن أشرح الكتب الدراسية التي ألفتها في الجراحة وعلم الأمراض ، مخصصاً لذلك ساعتين في كل يوم ، على سبيل التمهيد لطرق الشفاء التي أمارسها . وأنا لا أصنف هذه الكتب

من مختارات أنقلها عن أبقرات أو جالينوس . ولـكننى بطول الكد والكـدح خلقتها من جديد على أسس من الخبرة ، التى هى أسمى معلم لجميع الأشياء . فإذا شئت لإثبات شىء ما لم أفعل هذا بالنقل عن هؤلاء القدامى . بل بالتجربة والتفكير المبني عليها . فان شعرت أيها القارئ العزيز بدافع يدفعك إلى استـكـناه هذه الخفايا المقدسة ، وإن شئت أن تسبر أغوار الطب فى زمن وجيز ، فأقبل إلى فى بال . . . بال فى ٥ يونيو ١٥٢٧ « (٨٢) .

وسجل ثلاثون طالباً أسماءهم فى هذه الدراسة . وفى يوم الافتتاح طبع باراسيلسوس فى الرداء الجامعى المألوف ، ولـكنه خلعه عنه لتوه ، ووقف فى ثوب الكيمياء الحشن ومئزرته الجلدية المتسخة بالسناج . وقد ألقى محاضراته فى الطب مكتوبة بلاتينية أعدها له سكرتيره أوبورينوس (الذى طبع فى تاريخ لاحق كتاب فيساليوس « فابريكا ») ، أما محاضرات الجراحة فألقاها بالألمانية . وكانت هذه صدمة جديدة للأطباء التقليديين ، ولـكنها لم تزعجهم بقدر ما أزعجهم رأى أبداه باراسيلسوس وهو « أنه يجب ألا يؤدى الصيدلى عمله متواطئاً مع أى طبيب » (٨٤) . وكأنه أراد أن يعلن على الملأ ازدرائه للطب التقليدى ، فقذف فى النار وهو مبهتج بنص طبي حديث لعله Summa Jacobii - وكان الطلاب قد أوقدوا النار احتفالاً بعيد القديس يوحنا (٢٤ يونيو ١٥٢٧) ، ثم قال « لقد ألقيت فى نار القديس يوحنا « بـخلاصة » الـكتب ، حتى تصعد جميع الحن والبلايا فى الهواء مع الدخان . وهكذا ظهرت مملكة الطب من أدرانها » . وقارن الناس بين هذه الحركة وبين إحراق لوثر لمرسوم أصدره البابا .

أما حياة باراسيلسوس فى بال فكانت خارجة على العرف

خروج محاضراته : يقول أوبورينوس « لقد أنفق العاميين اللذين صحبته خلالهما في السكر والشره ليل نهار . . . وكان متلافياً ، تأتي عليه أوقات لا يجد في جيبه فيها فلساً . . . وكان في كل شهر يوصى بصنع سترة جديدة ، ويعطى القديمة لأول قادم ، ولكنها كانت من القذارى بحيث لم أتمن قط سترة منها لنفسى (٨٦) » وقد ترك لنا هنريش بولينجر وصفا لباراسيلسوس مماثلاً لهذا ، فهو مدمن للخمر ، « ورجل في منتهى القذارى (٨٧) » ولكن أوبورينوس يشهد بحالات عجيبة من الشفاء حققها أستاذه ، « في علاج القرع أتى بما يقرب من المعجزات في حالات يئس منها غيره » (٨٨) .

أما رجال الطب فقد برثوا منه دجالاً عاطلاً من الدرجة الجامعية ، مجرباً مستهتراً ، عاجزاً عن تشريح الجثث ، جاهلاً بعلم التشريح . أما هو فقد عارض التشريح بحجة أن الأعضاء لا يمكن فهمها إلا وهى تؤدي وظيفتها في الجسم الحى أداء متحداً طبيعياً . ورد على احتقار الأطباء له بلغة سوقية غاية في المرح . فسخر من وصفاتهم الوحشية ، وقمصانهم الحريرية ، وخواتمهم ، وقفازاتهم الناعمة ، ومشيتهم المتغطرة ، وتحداهم أن يخرجوا من حجرات الدرس إلى العمل الكيميائى ، وأن يرتدوا المآزر ، ويوسخوا أيديهم بالعناصر الكيميائية وينحنوا فوق الأفران ليتعلموا أسرار الطبيعة بالتجربة وعرق الجبين . وقد عوض عن افتقاره إلى الدرجة الجامعية باتخاذ ألقاب مثل « أمير الفلسفة والطب » و « دكتور فى فرعى الطب » (أى طبيب وجراح) ، و « ناشر الفلسفة » ، وداوى جراح غروره بالثقة فى دعاواه . كتب يقول « سيتبعنى الجميع ، وستكون مملكة الطب مملكتى . . . كل الجامعات وكل الكتاب القدماي مجتمعين أقل مواهب من ... » (٨٩) . وإذ ألقى نفسه مرفوضاً

من الغير ، فقد اتخذ لنفسه هذه الحكمة شعاراً « لا يملكك أحد إذا استطعت أن تملك نفسك » (٩٠) . أما التاريخ فقد وبخ تفاخره ، إذ جعل لقب أسرته « بومباست » اسماً نكرة (بمعنى الفشر) .

وحدث أن ظريفاً مجهول الاسم في بال - متواطئاً مع كلية الجامعة ، أوفى تمرد عفوى من الطلبة على مدرس دحاطى - كتب قصيدة هجائية لاذعة وعرضها في مكان ظاهر ، والقصيدة باللاتينية الرديئة ، توهم أن جالينوس نفسه هو الذى كتبها من « الجحيم » يرد بها على منتقص قدره ، وقد سماه كاكوفراستوس - خطيب الروث . وهزأت الأبيات هزأً شديداً بمصطلحات باراسيلسوس الغيبية ، ونعته بالحنون ، وأشارت عليه بأن يشق نفسه . وحاول باراسيلسوس أن يعثر على الجاني ففشل ، لذلك طلب إلى مجلس المدينة أن يستجوب الطلاب واحداً واحداً ويعاقب المذنب . ولكن المجلس تجاهل الطلب . وحوالى هذه الفترة عرض قسيس في كاتدرائية بال أن يدفع مائة « جلد » لمن يشفيه من مرضه ، وشفاه باراسيلسوس في ثلاثة أيام ، ودفع له القسيس ستة جلدات ، وأبى أن يدفع الباقي بحجة أن العلاج لم يستغرق سوى وقت قصير جداً . فقاضاه باراسيلسوس ، ولكنه خسر دعواه ، وخسر معها هدوء طبعه ، فرمى نقاده بأنهم « غشاشون حكاكون للظهور » ، ونشر نبذة غفلا من اسم الكاتب رمى فيها رجال الدين والقضاء بالفساد ، وأمر المجلس بالقبض عليه ، ولكنه أجل تنفيذ الأمر حتى الصباح . وهرب باراسيلسوس تحت جناح الظلام (١٥١٨) ، بعد أن قضى في بال ثمانية شهور .

وفي نورمبرج أعاد باختصار تجربته في بال . وكل لإليه آباء المدينة مستشفى سخن ، فاستخدم ألواناً من العلاج أثارت الإعجاب : ولكنه ندد بحساده من أطباء المدينة لافتقارهم إلى الذمة ، واثرائهم ، ولبدانة نسائهم . ثم دافع عن الكاثوليكية حين لاحظ

أن أغلب أعضاء المجلس من البروتستانت . وانزعج آل فوجير الذين يبيعون الغويقم حين زعم أن هذا « الخشب المقدس » عديم الجدوى في علاج الزهري . وفي عام ١٥٣٠ أغرى طباعاً مغموراً بأن ينشر « ثلاثة فصول عن المرض الفرنسى » عنف فيها الأطباء تعينفاً أثار عليه عاصفة من المعارضة أكرهته على أن يعود إلى تجواله من جديد . وأراد أن ينشر كتاباً أكبر في الموضوع ذاته ، ولكن مجلس المدينة منع طبعه . ودافع باراسيلسوس في خطاب كتبه إلى المجلس عن حرية الطبع بفصاحة لم تغنه فتيل ، ولم ير الكتاب النور قط في حياته . وكان يحتوى على أفضل وصف إكلينيكي كتب عن مرض الزهري ، وقد أشار باستعمال جرعات باطنية من الزئبق دون الاستعمالات الظاهرة له . وأصبح هذا المرض ساحة احتدمت فيها المعركة بين العلاج النباتي والعلاج الكيميائي .

وانتقل باراسيلسوس إلى سان - جال ، وسكن نصف عام منزل أحد مرضاه . وهناك وفي فترة لاحقة ألف كتبه « العمل العجيب جداً » و « معارضة الطبيعة ؟ » و « الجراحة الكبرى » ، وكلها بالألمانية الدارجة . وهى أكوام من الخامات الخشنة التى تعثر أحياناً على حجر كريم فى ثناياها . وفى عام ١٥٤٣ انتسكس إلى السحر ، وألف كتابه *Philosophia sagax* وهو خلاصة وافية فى السحر .

ولما مات مريضه فى سان - جال راح يضرب فى الأرض من جديد ، متنقلاً بين ربوع ألمانيا ، مستجدياً قوته أحياناً . وكان قد فاه فى شبابه ببعض الهرطقات الدينية - كقوله إن دلالة العماد رمزية لا أكثر ، وإن تناول الأسرار المقدسة نافع للأطفال والمغفلين ،

عديم الفائدة للأذكىاء ، وإن الصلوات للقديسين مضيعة للوقت (٩١). أما الآن (١٥٣٢) ، بعد أن هدّه الفقر والهزيمة ، فقد اختبر « التحول » الدينى . فصام ، ووهب متاعه الباقي للفقراء ، وكتب المقالات التعبدية ، وعزى نفسه بآمال الجنة . وفى عام ١٥٤٠ قدم له أسقف سالزبورج الملجأ ، فقبله الرجل شاكراً ، مع أنه هو الذى شجع الثورة هناك قبل خمسة عشر عاماً . وكتب وصيته ، فترك نقوده القليلة لأقاربه ، وأدواته لحلاقى المدينة الصالحين ، وفى ٢٤ سبتمبر ١٥٤١ أسلم جسده للتراب .

لقد كان رجلاً قهرته عبقريته ، غنياً فى الخبرة المتنوعة والأحاسيس الذكية ، ناقصاً فى تعليمه المدرسى نقصاً أعجزه عن فصل العلم عن السحر ، مفتقراً إلى ضبط النفس اللازم للسيطرة على حماسه المتأججة ، حاد الحسومة بحيث لم يستطع التأثير فى جيله . ولعل حياته وحياة أجريبا أعانتا على تضخيم أسطورة فاوست . وإلى القرن الماضى كان يحج إلى قبره فى سالزبورج ضحايا وباء تفشى فى النمسا والأمل يراودهم فى الشفاء بسحر روحه أو بسحر رفاتة (٩٢) .

٨ - الشككاكون

لم يكن القرن السادس عشر بالزمان الصالح للفلسفة ، فقد استغرق اللاهوت المفكرين الناشطين ، وسير الإيمان العقل فى ركابه بعد أن سيطر على كل شىء . وزفض لوثر العقل لأنه ينزع بصاحبه إلى الكفر (٩٣) ، ولكن حالات الكفر كانت نادرة . فقد أحرق قسيس هولندى فى لاهاى (١٥١٢) لإنكاره الخليقة والخلود ولاهوت المسيح (٩٤) ، ولكنه لم يكن واضح الكفر . كتب أخبارى إنجليزى تحت سنة ١٥٣٩ « مات هذا العام فى جامعة باريس

طبيب عظيم أنكر وجود الله ، وكان هذا رأيه الذى ثبت عليه منذ كان فى العشرين ، وقد عمر إلى ما بعد الثمانين ، واحتفظ بضلالتة هذه سرّاً طوال هذه السنين (٩٥) . وفى عام ١٥٥٢ نشر جيوم بوستل كتابه *Contra atheos* ولكن كلمة *atheist* (أى الملحد) قتل أن ميّز القوم بينها وبين القاتل بمذهب الألوهية ، أو القاتل بوحدة الوجود ، أو الشكاك .

على أنه وجد من الشكاكين عدد يكفى لنيل صفقة من لوثر ، فقد روى أنه قال « إن مواد قانون الإيمان أسمى من أن يدركها أبناء هذا العالم العميان . فوحدة الأقانيم الثلاثة فى إله واحد ، وتجسد ابن الله الحق ، ووجود طبيعتين للمسيح هما لاهوته وناسوته ، إلخ كل هذا يؤذيهم لأنهم يرون فيه حديث خرافة » ثم أضاف إن بعضهم يتشككون فى أن الله خلق أناساً عرف من قبل أنهم هالكون (٩٦) . وكان فى فرنسا بعض المتشككين فى الخلاود (٩٧) . من ذلك أن بوناftتور دسبريه سخر فى كتابه *Cymbalum mundi* (١٥٣٧) بالمعجزات ، وبتناقضات الكتاب المقدس ، وباضطهاد أصحاب البدع الدينية . وقد ندد كالفن والسوربون بكتابه هذا ، فأحرقه جلاد الدولة . واضطرت مارجريت إلى إقصائه عن بلاطها فى نيراك ، ولكنها بعثت إليه بالمال لتحفظ عليه حياته فى ليون : وفى عام ١٥٤٤ قتل نفسه ، وترك مخطوطاته لمارجريت « دعامة كل صلاح وحاميته » (٩٨) :

وظهرت روح الشك فى ميدان السياسة متخذة صورة هجمات على حق الملوك الإلهى وحصانهم ، وكان الشكاك هنا عادة إما من المفكرين البروتستانت الذين ضايقهم الحكام الكاثوليك ، وإما من المفكرين الكاثوليك الذين يدفعون الثمن غالياً إذا انتصرت الدولة .

وقد نشر الأسقف جون بونيت - وكان ساخطاً على مارى تيودور - فى عام ١٥٥٨ « بحثاً موجزاً فى السلطة السياسية » . قال فيه « إن الأمثلة الكثيرة والمتصلة ، التى وجدت بين الحين والحين ، لخلع الملوك وقتل الطغاة تؤكد على وجه اليقين أن من أحق الحق والعدل والتشئ مع قضاء الله . . . القول بأن سلطان الملوك والأمراء والحكام مصدره الشعب . . . وإن للناس أن يستردوا تفويضهم . . . حين يشاءون » (٩٩) . كذلك كان من رأى أستاذ اسكتلندى يدعى جون ميجر ، (وكان له بعض الفضل فى تكوين عقل جون نوكس) ، أنه ما دام كل سلطان زمنى مشتقاً من إرادة الجماعة ، فإن من الجائز خلع الملك الطالح وإعدامه ، شريطة اتخاذ الإجراء القانونى الواجب .

أما أطرف خصوم الحكم الملكى المطلق فهو كاثوليكي شاب حقق قدراً متواضعاً من الخلود بموته بين ذراعى مونتيني . يقول كاتب المقالة الفذ « إن لإيتين دلا بوييتى كان فيما أعلم أعظم رجل فى عصرنا (١٠٠) » . وقد ولد لإيتين هذا لموظف كبير فى بيريجور ، ودرس القانون فى أورليان ، ثم عين مستشاراً فى « برلمان » بوردو قبل بلوغه السن القانونية . وحوالى عام ١٥٤٩ ، يوم كان فتى فى التاسعة عشرة ألهمته الأفكار الجمهورية دراسته للأدب اليونانى والرومانى ، كتب هجومياً عنيفاً على الحكم المطلق - ولكنه لم ينشره قط - وسمى كتابه « مقال عن العبودية الاختيارية » . Discours lus la servitude volontaire . ولكن بما أن الكتاب ندد بدكتاتورية فرد واحد يتحكم فى الكثيرين ، فقد سمي Contr' un (أى خصم الواحد) . فليسمع القارئ نداءه :

« أى عار وأى خزى فى أن يطيع عدد لا يحصى من الرجال طاغية عن رضى واختيار ، بل بروح العبيد ! طاغية لا يدع لهم حقوقاً فى عقار أو أبوين أو زوجة أو ولد ، ولا حتى فى حياتهم ذاتها — فأى نوع من الرجال هذا الطاغية ؟ ما هو يهرقول ولا بشمشون ؛ بل كثيراً ما يكون قزماً ، وكثيراً ما يكون أشد الجبناء تخنثاً فى الشعب كله — فليست قوة بدنه هى التى تضمن عليه النفوذ والسلطة ، وكثيراً ما يكون عبداً لأحط المومسات . ليت شعرى ما أشقى رعاياه وأحقرهم ؛ إن كان اثنان ، أو ثلاثة . أو أربعة ، لا يثورون على واحد ، فذلك معناه الواضح أن الشجاعة تعوزهم . أما إذا كان المئات والألوف لا يخلعون عنهم نير فرد ، فما الذى يبقى من الإرادة الفردية والكرامة الإنسانية ؟ . . . إن حصول الفرد على حريته لا يقتضى بالضرورة استعمال القوة ضد الطاغية . إنه يسقط حالماً تمل البلاد وجوده . ولا حاجة بالشعب الذى أذله واستعبده أن يحرمه أى حق له . فالتحرر لا يتطلب شيئاً أكثر من الإرادة الصادقة للجمع النير . . . فاعزموا عزماً صادقاً على ألا تكونوا عبيداً بعد اليوم — وإذا أنتم أحرار ! أمسكوا عن الطاغية المعونة يسقط ويتحطم كأنه تمثال عملاق سمحت قاعدته من تحت قدميه (١١) .

ومضى لا بويينى يشكل بآرائه فسكر روسو وتوم بين من بعده . فهو يقول إن الإنسان يتوق بطبعه إلى الحرية ، ومفارقات الحظ هى بنت الصدفة ، وهى تحمّل المحظوظين الالتزام بخدمة إخوتهم فى الإنسانية ، وكل الناس إخوان « صنعوا من طينة واحدة » ، وصانعهم إله واحد . والعجيب أن قراءة هذا الرأى المتطرف هى التى جذبت مونتينى — على ما طبع عليه من اتزان وحيطة — إلى لا بويينى ، وأفضت (١٥٥٧) إلى صداقة من أشهر الصداقات

في التاريخ . وكان مونتيني يومها في الرابعة والعشرين ، ولاتين في السابعة والعشرين ، ولعل مونتيني كان آنثذ من الحداثة بحيث يستطيع تقبل العواطف المتطرفة . على أن صداقتهما سرعان ما ختمت بموت لا بوييتي ولما يجاوز الثانية والثلاثين (١٥٦٣) . ووصف مونتيني أيامه الأخيرة وكأنه يتذكر وصف أفلاطون لموت سقراط . وبلغت حدة إحساسه بفقد ذلك الفتي المشبوب العاطفة مبلغاً جعله يذكر موته — بعد أن انقضت عليه سبعة عشر عاماً — بشعور أشد عمقاً من ذكره لأي تجربة أخرى جاز بها في حياته . ولم يكن راضياً عن طبع كتاب صديقه (Discours) وحزن حين نشره راعى كنييسة في جنيف (١٥٧٦) . وقد علل تأليف الكتاب بروح الشباب السمحة ، وأرجع كتابته إلى سن أسبق هي السادسة عشرة . لقد أوشك هذا الصوت أن يكون صوت الثورة الفرنسية .

٩ — راموس والفلاسفة

كانت حياة بتروس راموس — بيير دلاراميه — لا تقل شاعرية عن حياة لا بوييتي ، وموته أشد عنفاً . لقد آلى على نفسه أن يخلع نير أرسطو . ، لإذ رأى فيه حكم رجل واحد دام نيافاً وثلاثة قرون ، لا على أمة واحدة فحسب بل على أمة كثيرة ، لا على الجسد بل على العقل ، بل كاد يبسط سلطانه على الروح . أو لم ينصب هذا المفكر الوثني فياسوفاً رسمياً للكنيسة ؟ لقد فكر إنسانيو النهضة في إحلال أفلاطون محله ، ولكن حركة الإصلاح البروتستنتي — أو الخشية من الحركة — أخذت تخنق الحركة الإنسانية ، وظلت الكلامية الأرسطاطالية ، سواء في ألمانيا

البروتستنتية او في فرنسا الكاثوليكية ، متربعة على العرش حين مات لوثر (١٥٤٦) الذى لعنها : وبدا خلع هذا المقدونى عن عرشه في نظر الشاب المفكر أحل صورة من صور قتل الطغاة . فلما تقدم راموس لدرجة الأستاذية من جامعة باريس عام ١٥٣٦ ، وكان يومها في عامه الواحد والعشرين ، اتخذ موضوعاً لرسالته هذه الدعوى القاطعة التى كان عليه أن يدافع عنها يوماً بطوله أمام من تجدوه من السكالية وخارجها : « كل ما قاله أرسطو باطل » .

كانت حياة راموس أشبه بنشيد يتغنى بالتعليم . فقد ولد قرب مدينة كالفرن « نوايون » في إقليم بيكاردى ، وحاول مرتين السفر إلى باريس على قدميه يحدوه تعطش إلى كلياتها ، ولكنه أخفق في المرتين وقفل إلى قريته مهزوماً . ثم حالفه التوفيق في عام ١٥٢٨ ، حين بلغ الثانية عشرة ، إذ التحق بخدمة طالب غنى يحضر للجامعة في كلية نافار — وهى نفس الكلية التى سرقها فيون . وشق بيبير طريقه في منهج كلية الآداب العسير طوال سنوات ثمان ، يخدم نهاراً ويذاكر ليلاً . وكاد يفقد بصره خلال ذلك ، ولكنه عثر على أفلاطون . يقول :

« حين جئت باريس وقعت فريسة لتدقيقات السفسطائيين ، فعلمونى الآداب الحرة بالأسئلة والمجادلات ، دون أن يدأونى على أية فائدة أو منفعة أخرى . فلما تخرجت انتهيت إلى أن هذه المجادلات لم تكن سوى مضيعة لوقتي . ولما أفزعتنى هذه الفكرة ، وهدانى ملك كريم ، وقعت على زينوفون ثم على أفلاطون ، ووصلت إلى معرفة فلسفة سقراط » (١٠٢) .

ما أكثر من وصلوا منا في عهد الشباب إلى هذا الكشف المبهر ، وسعدوا يوم التقوا في أفلاطون بفيلسوف سرت الخمر والشعر في عروقه ، وسمع صوت الفلسفة في هواء أثينا نفسه ، وأمسك بها وهى حلققة ، وأسلمها

إلى الأجيال التالية وهى لا تزال تحمل نسمة الحياة ، وأصوات سقراط وتلاميذه لا تزال تجلجل بقوة النقاش ونشوة الجدل حول أشد المسائل إثارة فى العالم ! يا لها من راحة يستمتع بها المرء بعد صفحات أرسطو المملة ، بعد الإسهاب فى حديث « توسط الطريق » ، « والوسط غير الأمثل » ! بالطبع كنا — وكان راموس — غير منصفين لأرسطو ، إذ نقارن مذكرات محاضراته المحكمة بمحاورات أستاذه الميسرة ، ولا يستطيع تقدير الفيلسوف المفلدوفى سوى الراضين فى العلم . فلقد كان أرسطو الذى عرفه راموس هو أولا منطق « الأورجانون » ، أرسطو المدارس ، الذى لا يكاد يثبت لمحنة الترجمة إلى لاتينية الكلاميين ، ومحنة التحويل السحرى إل أكوينية تقليدية مسيحية طيبة . ويقول راموس إنه أنفق ثلاث سنين فى دراسة منطق أرسطو دون أن يبصره أحد بفائدة واحدة أو تطبيق واحد له فى العلم أو الحياة (١٠٢) .

وأنها لمفخرة لكلية باريس ، ولعلم راموس وحذقه وشجاعته ، أن يمنح درجة الأستاذية التى تقدم لنيلها ، ولعل الأساتذة أيضاً كانوا قد سئمو المنطق والاعتدال . ولكن بعضهم صدموا وأحسوا أن بضاعتهم لحقها ضرر من نقاش ذلك اليوم . وبدأت عداوات لم تفتأ تلاحق راموس حتى مماته .

وخولت له درجة الأستاذية الاشتغال بالتدريس ، فبدأ لفوره فى الجامعة سلسلة من المحاضرات مزج فيها الفلسفة بأدب اليونان والرومان . وكثر تلاميذه . وتضاعف كسبه ، واستطاع أن يرد لأمه الأرملة ما بذلته من مدخراتها لتدفع رسوم تخرجه . وبعد سبعة أعوام من التحضير أصدر سنة ١٥٤٣ (وهى نفس « سنة العجائب » التى صدرت فيها كتب كوبرنيك وفيساليوس) كتابين واصلا حملته لإسقاط منطق أرسطو . وكان أحدهما ، وهو : « Aristotelicae animadversiones » هجوماً مباشراً صاغه أحياناً

فى عبارات من القدح لاهوادة فيها ، أما الآخر عن أقسام المنطق فقد قدم نسقاً جديداً يحل محل القديم . فأعاد تعريف المنطق باعتباره فن الحديث ، وجمع بين المنطق والأدب والخطابة فى طريقة لإقناع فنية واحدة . وتوجس المهيمنون على الجامعة — ولهم العذر فى توجسهم — مما قد يجر إليه هذا المأخذ من أخطار . يضاف إلى هذا ارتياهم فى بعض قضايا راموس التى شموها منها رائحة الهرطقة ، كقوله مثلاً : « إن عدم التصديق بداية المعرفة » (١٠٤) — وهذا تشكك ديكارتى سابق لديكارت ، أو طلبه مزيداً من دراسة الكتب المقدسة بدلا من دراسة مجلدات الفلاسفة الكلاميين — وكان لهذا الطلب رنين بروتستنتى ، أو تعريفه اللاهوت بأنه *doctrina bene vivendi* وهو تعريف هدد بأحالة الدين أخلاقاً . ثم هناك طرق راموس المثيرة للغىظ ، وكبرياؤه ومشاكسته ، وأسأوبه الجدلى العنيف ، وترفعه القاطع على القطع بالعقيدة .

وما إن نشر الكتابان حتى دعا مدير الجامعة راموس للمثول أمام رئيس بلدية باريس بوصفه عدواً للدين ، ومكدرآ للسلام العام ، ومفسداً للشباب بالبدع الخطرة . وعقدت المحاكمة أمام لجنة ملكية من خمسة أعضاء — اثنان عنهما راموس ، واثنان متهموه ، وخامس فرانسوا الأول . ولم يرض راموس عن إجراءات المحاكمة ، فسحب مندوبيه . وأصدر الثلاثة الباقون حكمهم ضده (١٥٤٤) ، فنع بأمر ملكى من المحاضرة ، أو النشر ، أو المزيد من مهاجمة أرسطو . وعلقت صورة الحكم فى أرجاء عديدة من المدينة ، وأرسلت إلى الجامعات الأخرى . وأخرج الطلاب هرليات كموا فيها براموس ، وسخر رابليه من هذا الشجار باشارك الآلة فيه .

ولزم راموس الصمت فترة ، ثم بدأ سلسلة من المحاضرات فى كلية آفى ماريا ، ولكنه اقتصر على تدريس البلاغة والرياضيات ، وأغضت الحكومة عن المخالفة . وفى عام ١٥٤٥ أصبح المدير المساعد لكلية بريسل،

ولما لبثت قاعة محاضراته أن ازدحمت بالطلاب . فلما تولى هنرى الثانى العرش بعد فرانسوا الأول ألغى الحكم الصادر على راموس وتركه « حر اللسان والقلم » ، وبعد عام عينه فى كرسى بالكلية حيث يعنى من أشرف الجامعة .

أما وقد بلغ راموس قصاره إذ غدا أشهر معلم فى باريس ، فانه خصص الكثير من وقته وجهده لإصلاح الطرق التربوية . وإذا كان قد اتكأ على « البلاغة » — وكانت آنئذ تعنى الأدب — فلم يكن هذا لتنشيط الفلسفة بالشعر فحسب ، بل لبث إنسانية نابضة بالحياة فى مناهج صيرتها التجريدات والقواعد الكلامية جافة عسيرة . وفى خمس مقالات عن النحو طبق المنطق على اللغة ، ورجا أن يصبح الهجاء الفرنسى صوتياً ، ولكن هذا الهجاء واصل سيره المترنح ، على أنه نجح فى أن يدخل فى الأبجدية الفرنسية حرفى z و v ليحلا محل الحرفين الساكنين i و u . ثم شجع تقرير المنح الدراسية لفقراء الطلبة ، ذاكرأ كفاحه وهو مملق فى سبيل التعليم ، وندد بالرسوم الباهظة التى تتقاضاها الجامعات عن التخرج ، وناضل فى الوقت نفسه لرفع رواتب المدرسين .

وفى عام ١٥٥٥ نشر كتابه Dialectique ، وهو أول كتاب فى المنطق بالفرنسية . وكان يحتاج الآن لا عن الإقناع بالجدل والمنطق فحسب ، بل دفاعاً عن العقل . كان بفطرته عدواً للنزعة التقليدية ولجرد الاستشهاد بالثقافات ، وقد رأى فى العقل المرجع الوحيد الذى يحتكم إليه ، وآمن فى حماسة رجال النهضة أن العقل سيبلغ بالعلوم جميعها مرتبة تقرب من الكمال فى قرن واحد لو أطلق له العنان (١٠٥) . كتب يقول : « كان شغلى الشاغل أن أزيح من طريق الآداب الحرة . . . كل العقبات والمعوقات الفكرية ، وأن أعبد هذا الطريق وأقومه ، لا تيسيراً للتفكير فحسب ، بل للممارسة الآداب الحرة واستخدامها (١٠٦) » .

وأغراه خلقه وفلسفته بالتعاطف مع الثورة البروتستنتية . فلما حصل الهيجونوت حيناً على التسامح من الحكومة ، بل وعلى الاشتراك فيها ، أعلن راموس اتباعه المذهب الإصلاحى الجديد (١٥٦١) . وفى بواكير عام ١٥٦٢ مرق بعض تلاميذه الصور الدينية المعلقة فى كنيسة كلية بريس . وواصلت الحكومة دفع راتبه ، ولكن مركزه كان يزداد حرجاً . فلما نشبت الحرب الأهلية (١٥٦٢) غادر باريس بترخيص مرور من كاترين دى مديتشى ، ثم عاد بعد عام حين وقعت معاهدة الصلح . وقد رفض فى أدب دعوة وجهت إليه ليشغل كرسيّاً فى جامعة بولونيا ، معتذراً بأن فرنسا طوقت عنقه بدين لا يسمح له بالرحيل عنها .

أما المعركة التى أفضت إلى موته فقد أصبحت علنية حين أفلح ألد أعدائه المدعو جاك شاربنتييه ، فى أن يشتري بالمال كرسي الرياضيات بالكلية الملكية (١٥٦٥) (١٠٧) ، على الرغم من اعترافه صراحة بجهله فى العلوم الرياضية . وندد راموس بهذا التعيين ، فهدده شاربنتييه ، ولجأ راموس إلى المحاكم لتحميه ، فأودع شاربنتييه السجن ، ولكن أفرج عنه بعد قليل ، وحاول بعضهم اغتيال راموس مرتين ، فلما استؤنفت الحرب الأهلية بين الكاثوليك والبروتستنت (١٥٦٧) غادر باريس ثانية . وقضت الحكومة الآن بالألا يقوم بالتدريس فى الجامعة أو الكلية الملكية غير الكاثوليك . فلما عاد راموس إلى باريس اعتزل الحياة العامة ، ولكن كاترين واصلت دفع راتبه وضاعفته ، وأصبح حراً فى أن يفرغ للدرس والتأليف .

وفى يوليو ١٥٧٢ دعاه مونلوك أسقف فالانس للانضمام إلى بعثة موفدة لبولنده ، ولعل الأسقف توقع حدوث مذبحة القديس بارتولوميو ، وفكر فى حماية الفيلسوف الشيخ . ولكن راموس رفض ، إذ لم يرقه مشروع تنصيب الأمير هنرى أنجو على عرش بولنده . وسافر مونلوك فى ١٧ أغسطس ،

وبدأت المذبحة يوم ٢٤ . وفي اليوم السادس والعشرين اقتحم رجالان مسلحان كلية بريسيل وصعدا إلى الطابق الخامس حيث مكتب راموس .
ووجداه يصلى فرماه أحدهما برصاصة في رأسه ، وطعنه الآخر بسلاحه ،
ثم قذفه الاثنان معاً من النافذة . وجر الطلبة أو الرعاع الجسد الذى مازال
ينبض بالحياة إلى نهر السين وألقوه فيه ، وأخرجه نفر آخر منهم وقطعوه
إرباً (١٠٨) . أما من الذى استأجر القتلة فعلمه عند الله ، ويدوأنها ليست الحكومة ،
فالظاهر أن شارل التاسع وكاترين ظلا راضيين عن راموس إلى النهاية (١٠٩) .
واغتبط شاربنتييه بالمذبحة وبقتل خصمه : « هذه الشمس الساطعة التى
أضاءت فرنسا خلال شهر أغسطس . . . لقد زال الهراء بزوال صاحبه .
وكل الناس الطيبين يفيضون بشراً (١١٠) » . وبعد عامين مات شاربنتييه نفسه ،
بتأنيب الضمير كما يقول بعضهم ، ولكن ربما كان هذا شرفاً لا يستحقه .
لقد بدا راموس مهزوماً سواء فى الحياة أو التأثير . فأعداؤه انتصروا
عليه ، ومع أن بعض « الراموسيين » سمعت أصواتهم فى الجليل التالى فى
فرنسا وهولندة وألمانيا ، فان الفلسفة الكلامية التى حاربها استعادت تفوقها ،
ونكست الفلسفة الفرنسية رأسها حتى جاء ديكارت . ولكن إذا كانت
الفلسفة لم تحرز فى هذه الحقبة إلا كسباً ضئيلاً ، فان الخطوات التى خطاها
العلم كانت خطيرة ؛ لقد بدأ العلم الحديث بكوبرنيك وفيساليوس . وتضاعفت
المساحة المعروفة من الدنيا ، وتغير منظر العالم كما لم يتغير قط من قبل
فى التاريخ المدون . وأخذت المعرفة تنمو سريعاً من حيث المجال والانتشار ،
وراح استعمال اللغات الوطنية فى العلم والفلسفة — على نحو ما فعل باريه
وباراسيلسوس فى الطب ، وراموس فى الفلسفة — يتسع فيشمل تعليم الطبقات
الوسطى وأفكارها التى اقتصرت من قبل على المتخصصين من العلماء
والقساوسة . وتحطمت « كعكة التقاليد » ، وانكسر قالب العقيدة ،
وتهاوت قبضة الاستناد إلى السلف . وحل الإيمان من مراسيه فتدفق بحرية
جديدة متخذاً أشكالاً لا حصر لها .

كان كل شيء يجرى متدفقاً إلا الكنيسة . ووقفت حيناً وسط هذه الثورة حائرة مشدوهة ، لا تكاد أول الأمر تدرك خطورة الأحداث : ثم تصدت في عزيمة وتصميم لذلك السؤال الخطير الذي واجهها : أمن واجبها أن تكييف تعاليمها وفق مناخ الأفكار وسيولتها الجديدين ، أم تقف جامدة وسط كل التقلبات ، وتنتظر حتى يرد بندول الفكر والعاطفة الناس ، في تواضع وتعطش ، إلى تعزياتها وسلطانها ؟ وكان جوابها عن هذا السؤال هو الفيصل في تاريخها الحديث .

الكتاب الخامس

معارضة الإصلاح البروتستانتي

١٥١٧ - ٦٥

الفصل الثامن والثلاثون

الكنيسة والإصلاح

١٥١٧ - ٦٥

١ - المصلحون البروتستانت الإيطاليون

ما كان المرء ليتوقع أن يجد في إيطاليا الوثنية مناخاً ، المشتركة بنية ، المحبذة لإيمان لطيف فنان ، الآهلة بالقدسيين الخالدين تنقل صورهم - سواء المرهبة منها والمحبوبة - كل سنة بين الشوارع ، المثربة بفضل الذهب الذى يبعث به إلى الكنيسة العديد من الدول التابعة - نقول إن المرء ما كان ليتوقع أن يجد في بلد كهذا رجالاً ونساء آلوا على أنفسهم أن يغيروا هذا الإيمان الجميل المقدس - ولو لقوا دون هذا حتفهم أحياناً - بعقيدة كابية سندها السياسى هو كره أمم الشمال أن تسمن إيطاليا بعائدات تدينها . ومع ذلك فقد ظهر في كل مكان بايطاليا أناس شعروا بالمفاسد التى حطت من قدر الكنيسة شعوراً أحداً وأصدق حتى من شعور الألمان أو السويسريين أو الإنجليز . وكانت الطبقات المتعلمة تطالب في إيطاليا أكثر منها في أى بلد آخر بتحرير العقل من الولاء للأساطير التى سحرت الجماهير وسيطرت عليها حتى ولو كان هذا الولاء ظاهرياً ، هذا مع أن هذه الطبقات المتعلمة كانت تتمتع فعلاً بقسط من حرية التعليم والتفكير . ظهرت بعض كتابات لوثر في أكشاك الكتب بميلانو في عام ١٥١٩ ، وبالبنديقية في عام ١٥٢٠ . واجترأ راهب في كاتدرائية القديس مرقس نفسها (بالبنديقية) على التبشير بتعاليم لوثر . وكتب الكردينال كارافا إلى البابا كلمنت السابع (١٥٣٢) يقول إن الدين هبطت أسهمه

في البندقية ، وإن القليلين جداً من البنادقة يراعون الأصوام أو يجلسون على كرسي الاعتراف ، وإن كتب الهرطقة رائجة هناك . ووصف كلمنت نفسه البدعة اللوثرية بأنها واسعة الانتشار بين صفوف الكهنة والعلمانيين في إيطاليا ، وفي عام ١٥٣٥ زعم المصلحون الدينيون الألمان بأن لهم ثلاثين ألفاً من الأتباع في موطن الكنيسة الكاثوليكية (١) .

كانت أرفع السيدات مقاماً في فرارا بروتستنتية غيوراً . فقد تشربت رينيه ابنة لويس الثاني عشر الأفكار الجديدة من مارجريت النافارية من جهة ، ومن مربيها مدام سوبيز من جهة أخرى . وجاءت الأميرة بهذه السيدة معها حين تزوجت (١٥٢٨) من إركولى دستي ، الذي أصبح (١٥٣٤) ثاني دوق بهذا الاسم يحكم فرارا . وزارها كالفن هناك (١٥٣٦) وزاد معتقداتها البروتستنتية قوة وحدة . ووفد عليها كليمان مارو ، ثم أوبر لانجيه الفقيه الهيجونوتي . وتلقاهم إركولى جميعاً بأسلوب النهضة المذهب إلى أن صاح أحدهم خلال عبادة الصليب في يوم السبت المقدس (١٥٣٦) « idolatria ! » (أى عبادة أوثان !) ، وهنا سمح إركولى لمحكمة التفتيش باستجوابهم . فهرب كالفن ومارو ، أما الباقرن فيلوح أنهم نجوا بعد أن أكدوا سلامة عقيدتهم . ولكن رينيه جمعت بعد عام ١٥٤٠ حاشية بروتستنتية جديدة وانقطعت عن حضور الصلوات الكاثوليكية . وهذا إركولى ثائرة البابا بنفيا إلى فيلا الدوق في كونساندولو على نهر بو ، ولكنها أحاطت نفسها هناك أيضاً بالبروتستنت ، ونشأت بناتها على المذهب الإصلاحى الجديد . ولما خشى إركولى أن تصبح بناته البروتستنت بإذق عديمة القيمة في شطرنج الزيجات السياسية نقلهن إلى دير للراهبات . وأخيراً سمح لمحكمة التفتيش بتوجيه الاتهام إلى رينيه وأربعة وعشرين شخصاً من بيتها . فدينيت بالهرطقة وحكم عليها بالسجن المؤبد (١٥٥٤) . وهنا أعلنت إنكارها للهرطقة ، وتناولت القربان المقدس ، وأعيدت إلى حظيرة الدين

والسياسة^(٢) ، ولكن آراءها الحقيقية وجدت تعبيراً صامتاً في تلك العزلة الحزينة الى أنفقت فيها سنى عمرها الأخيرة . وبعد موت إركولى (١٥٥٩) عادت إلى فرنسا ، حيث جعلت من بيتها في مونتارجى ملاذاً يحتسى به الهيجونوت .

كذلك مرت مودينا بلحظة بروتستنتية مثيرة ، وكانت هى أيضاً تحت حكم إركولى . وذلك أن أكاديمية العلماء والفلاسفة فيها سمحت بقسط كبير من حرية النقاش ، واشتبه في هرطقة بعض رجالها ومنهم جابريلي فاللوبيو تلميذ فيساليوس وخليفته . وكان راهب سابق يدعى باولو ريتشى يندد بالبابوية صراحة في عظاته . وراح الناس يناقشون الأفكار اللوثرية في الحوانيت والميادين والكنائس . وقبض على ريتشى وآخرين . وبسط الكردينال سادوليتو حمايته على الأكاديميين بحجة أنهم موالون للكنيسة وأن من الواجب إطلاق البحث لهم بوصفهم علماء^(٣) . وقنع البابا بولس الثالث بتوقيعاتهم على اعتراف بالإيمان ، ولكن إركولى فض الأكاديمية (١٥٤٦) ، وأعدم لوثرى عنيد في فرارا (١٥٥٠) . وفي عام ١٥٦٧ ، حين عنفت الرجعية الكاثوليكية ، أحرق ثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة بتهمة الهرطقة في مودينا .

وفي لوتشا أنشأ بييترو مارتيرى فرميلي ، رئيس دير الكهنة الأغسطينيين ، أكاديمية رفيعة المستوى ، وجلب لها أفذاذ المعلمين ، وشجع حرية المناقشة ، وقال لجمهوره الكبير من المصلين إن لهم أن ينظروا إلى سر القربان لا على أنه تحول معجز بل تذكر ورع لآلام المسيح ، وكان في هذا لوثرياً أكثر من لوثر . فلما استدعى للمثول بين يدى مجلس رهبنته في جنوة لاستجوابه هرب من إيطاليا ، وندد بأخطاء الكاثوليكية ، ومفاسدها ، وقبل وظيفة أستاذ اللاهوت في أكسفورد (١٥٤٨) . وقد شارك في صياغة كتاب « الصلوات العامة » (١٥٥٢) بقسط مختلف

فيه ، وغادر إنجلترا حين استعادت الكاثوليكية سلطانها فيها ، ومات أستاذاً للعبرية بزيوريخ عام ١٥٦٢ . وقد حذا ثمانية عشر كاهناً من ديريه في لوتشا حذوه ، فهجروا رهبنتهم ورحلوا عن إيطاليا .

كان الفضل في توجيه فرميلي وسورانو أسقف برجامو وكثيرين غير هذين إلى الأفكار الجديدة لرجل يدعى جوان دى فالديس . ولعله هو وشقيقه ألفونسو ، وهما من أسرة قشتالية عريقة ، ألمع التوائم مواهب في التاريخ . أما ألفونسو ، تلميذ إرزمس الوفى ، فقد أصبح سكرتيراً لاتينيا لشارل الخامس ، وكتب *Dialogo de Lactano* (١٥٢٩) ، وفي هذا الحوار دافع عن « نهب روما » ، وقال إن لوثر ما كان ليترك الكنيسة قط لو أنها أصلحت المفاصل التي ندد بها عن حق بدلا من أن تحكم بادانته . وأما جوان فقد شارك في هذا الكتاب ذاته بحوار سماه *Dialogo de Mercurio y caron* ، كانت هرطقاته سياسية ، من ذلك قوله إن من الواجب إلزام الأغنياء بكسب قوتهم ، وإن ثروة الأمير ملك للشعب ، وينبغي ألا تبدد في حروب أمبريالية أو دينية^(١) . وآثر كلمنت السابع جوان بطبيعة الحال ، فعينه أميناً بالقصر البابوي حين كان في الثلاثين من عمره . على أن جوان رحل إلى نابولي حيث انقطع للتأليف والتدريس ، وظل على ولائه للكنيسة ، ولكنه حذب عقيدة لوثر في التبرير بالإيمان ، ورأى للتصوف المخلص قدراً يسمو فوق أى طقس خارجي من طقوس العبادة . والتف حوله جماعة ممتازة من الرجال والنساء وارتضوا زعامته : كفرميلي ، وأوكينو ، والشاعر ماركانطونيو فلامينيو ، وبيetro كارنيزيكي ، وفيتوريا كولونا ، وكوستانزا دافالوس دوقة أمالني ، وإيزابلا مانريكيث أخت رئيس محكمة التفتيش الأسبانية ، وجوليا جونزاجا التي عرفنا ما كانت تتمتع به من جمال رائع . وبعد أن مات جوان فالديس (١٥٤١) تفرق تلاميذه في أرجاء

أوروبا . وظل بعضهم وفيّاً للكنيسة كفتوريا كولونا ، وطور آخرون تعاليمه فبلغوا بها الهرطقة السافرة . وقطعت رءوس ثلاثة من صغار تلاميذه وأحرقوا في نابلي عام ١٥٦٤ ، وكذلك كانت نهاية كارنيزيكي بروما في عام ١٥٦٧ . أما جولبا جونزاجا فقد أنقذها موت البابا بولس الرابع ، وكان رجلاً قاسياً لا يرحم ، ودخلت ديراً للراهبات (١٥٦٦) وهكذا انتهت جماعة الإصلاح النابولية .

أما برناردينو أوكينو فقد جاز بكل مراحل التطور الديني . عاش في مدينة سينا بقرب مسقط رأس القديسة كاترين ، حياة تضارع حياتها نقوى وورعاً . وانضم إلى رهبان الفرنسيسكان ولكنه وجد نظامهم أكثر رخاوة مما يلائم مزاجه ، فانتقل إلى رهبنة الكبوشيين الأكثر صرامة . وقد عجب الرهبان من نكرانه للنسكى لذاته ، وإذلاله العنيف لجسده ، ولما نصبوه وكيلاً عاماً لهم أحسوا أنهم اختاروا قديساً . وترددت مواعظه في أرجاء إيطاليا - في سينا ، وفلورنسة ، والبندقية ، ونابلي ، وروما ؛ إذ لم تسمع البلاد نظيرها حرارة أو بلاغة منذ عهد سافونارولا قبل ذلك بقرن . وذهب شارل الخامس ليسمعه ، وتأثرت فتوريا كولونا به أعظم التأثر ، أما بييترو أريتينو ، الذي جرب كل الخطايا تقريباً ، فقد حركه الاستماع إليه فأنقلب مفرطاً في تقواه . وضاعت كل الكنائس بسامعيه على رعايتها ، ولم يخطر ببال أحد أن هذا الرجل سيموت مهرطقاً .

ولكنه التقى بفالدیس في نابلي ، وبفضله ألم بمؤلفات لوثر وكالفن . ووافقت عقيدة التبرير بالإيمان روحه ، فبدأ يلوح لها في عظاته . وفي عام ١٥٤٢ دعى للمثول أمام السفير البابوي في البندقية ومنع من الوعظ . وما لبث البابا بولس الثالث أن دعاه إلى روما ليناقش معه الآراء الدينية لبعض الرهبان الكبوشيين . ولعل أوكينو كان يثق بالبابا المستنير ، ولكنه خاف ذراع محكمة التفتيش الطويلة ، وحذره الكردينال كونتاريني من

الخطر المحدق به . وفجأة قرر قديس إيطاليا ومعبودها هذا ، بعد أن التقى
بيتر فرميلي في فلورنسة ، أن يخذو حذوه ويعبر جبال الألب إلى بلد
بروتستنتي ، وأعطاه أخ لفتوريا كولونا جواداً ، وفي فرارا أعطته رنيه
ثياباً . ومضى مخترقاً إقليم جريزون إلى زيوريخ ومنها إلى جنيف . وقد
أبدى استحسانه للنظام البيورثاني الذي كان كالفن يرسى أسسه هناك ،
ولما كانت ألمانيتها أقوى من فرنسيته فقد انتقل إلى بازل ثم إلى ستراسبورج
ثم إلى أوجزبورج ، محاولاً كسب قوته بلسانه أو قلمه . وفي عام ١٥٤٧
دخل شارل الخامس أوجزبورج سيداً على ألمانيا بعد أن سحق البروتستنت
في مولبرج . ونمى إليه أن الراهب الكبوشي الذي سمعه في نابلي يعيش
هناك رجلاً متزوجاً ، فأمر القضاة بالقبض عليه ، ولكنهم تسروا على
فرار أوكينو ، الذي هرب إلى زيوريخ وبازل . ولما أوشك زاده على
النفاذ ، تلقى دعوة من رئيس الأساقفة كرامر للذهاب إلى إنجلترا . وهناك
عكف على العمل بوصفه كاهناً فخرياً يتقاضى معاش تقاعد في كنتربري
إست سنوات (١٥٤٧ — ٥٣) ، وقد ألف كتاباً كان له أثر قوى في
قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » . ولكنه عجل بالعودة إلى سويسرة
حين اعتلت ماري تيودور العرش .

وحصل على وظيفة راع للكنيسة في زيوريخ . ولكن الشعب استاء
من آرائه التوحيدية ، وطرد حين نشر حواراً بدا فيه المدافع عن تعدد
الزوجات أقوى حجة من نصير الزواج الواحد . ومع أن ذلك كان في شهر
ديسمبر (١٥٦٣) ، فقد أمر بمغادرة المدينة خلال ثلاثة أسابيع . ورفضت
بازل الإذن له بالإقامة فيها . وسمح له بالملكث فترة وجيزة في نورمبرج ،
وما لبث أن خرج بأسرته قاصداً بولنדה . وكانت يومها بالقياس إلى غيرها
ملاذاً للمريين من المفكرين . واشتغل بالوعظ في كركاو زمناً ولكنه
طرد حين نفي الملك يجمع الأجانب غير الكاثوليك (١٥٦٤) . وفي الطريق
من بولنדה إلى مورافيا قضى الطاعون على ثلاثة من أبنائه الأربعة . ولم

يعيش بعدهم سوى شهرين ، ومات في شاكاو في ديسمبر ١٥٦٤ وكانت آخر كلماته تقريباً « لست أريد أن أكون بولنجرياً ولا كالفينا ولا بابوياً ، بل مسيحياً فقط » (٥) . ولم يكن هناك أشد من هذا خطراً .

أما أن تتحول إيطاليا إلى البروتستنتية فكان بالطبع ضرباً من المحال .. فقد كان عامة الشعب هناك برغم عدائهم للاكليروس متعلقين بالدين وإن لم يؤمنوا الكنائس . كانوا يحبون الاحتفالات والمراسيم التي قدسها مرور الزمن ، ويحبون القديسين المعينين أو المعزين ، ويحبون العقيدة التي ندر تشككهم فيها ، والتي رفعت حياتهم من فقر بيوتهم إلى سمو أعظم الدرامات التي تصورها عقل الإنسان — وهي افتداء الإنسان الساقط بموت إلهه . وأعان خضوع إيطاليا السياسي لأسبانيا المغالية في التدين على إبقاء شهى الجزيرة كاثوليكيين . وكانت ثروة البابوية ميراثاً إيطالياً ومصلحة إيطالية راسخة ، وأى إيطالى يرى القضاء على هذه المنظمة الحابية للجزيرة كان يبدو في نظر معظم الإيطاليين مشرفاً على الجنون . وقد اختلفت الطبقات العليا مع البابوية باعتبارها قوة سياسية تتسلط على وسط إيطاليا ، ولكنها اعتزت بالكاثوليكية عوناً لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والحكومة الحافظة للسلام ، وأدركت أن عظمة الفن الإيطالى مرتبطة بالكنيسة بفضل إلهام أساطيرها ومعونة ذهبها . لقد أصبحت الكاثوليكية ذاتها فناً ، وطغت عناصرها الحسية على عناصرها النسكية واللاهوتية ؛ فالزجاج المعشق ، والبخور ، والموسيقى ، والعمارة ، والنحت ، والتصوير ، وحتى الدراما — هذه كلها كانت في الكنيسة ومن الكنيسة ، وبدأت في مجموعها المعجز جزءاً لا ينفصل عنها . ولم يكن بفنانى إيطاليا وعلمائها حاجة إلى التحول عن الكاثوليكية ، لأنهم حولوا الكاثوليكية إلى العلم والفن . وكان المثات بل الألوف من العلماء والفنانين يتمتعون بمعونة الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وارتقى الكثير من الإنسانين ، وبعض الشكاكين المؤدبين ،

إلى مكانة مرموقة في الكنيسة . وأحبت إيطاليا الجمال القريب المنال
حباً جماً لم يسمح لها أن تسلب نفسها في سبيل الحقيقة البعيدة المنال . وهل
وجد الحقيقة هؤلاء التيوتون المتعصبون ، أو ذلك البابا المصغر ، المتجهم ،
الحاكم لحنيف ، أو ذلك الغول القاسى المتربع على عرش إنجلترا ؟ وأى
هراء محزن يتصايح به هؤلاء المصلحون - في الوقت الذي نسيت فيه
الطبقات المثقفة في إيطاليا الجحيم والهلاك كل النسيان ! كان في وسع
المرء أن يفهم الرفض الصامت المستتر للاهوت المسيحي إثارة لربوبية
غامضة لطيفة ، أما تغيير سر التحول (تحول الخبز والخمر إلى جسد
المسيح ودمه) ليحل محله هول جبرية محتومة فذلك أشبه بالانتقال من رمزية
مبهجة إلى سخافة انتحارية . وفي هذا الوقت بالذات ، بعد أن بسطت
الكنيسة جناحها الغافرين على نزعات الإيطاليين الوثنية ، كان كالفرن
يطالب الدنيا بأن تكبل نفسها بأغلال بيورتانية تهدد بتجريد الحياة من كل
فرح وتلقائية . وأنى للمبهجة والفن الإيطاليين أن يدوما إذا كف هؤلاء التيوتون
والإنجليز الهمج عن إرسال نقودهم أو جلبها إلى إيطاليا ؟ .

٢ - المصلحون الكاثوليك الإيطاليون

ونتيجة لهذا كله اتجه الإجماع في إيطاليا إلى ضرورة الإصلاح داخل
الكنيسة . والحق أن رجال الكنيسة المخلصين ظلوا قروناً يسلمون بالحاجة
إلى الإصلاح الكنسى بل ويطالبون به . ولكن تفجر حركة الإصلاح
البروتستنتى وتقدمها أضافا إلحاحاً جديداً على الحاجة والمطالبة « وانصب
على رأس الإكليروس سيل غامر من الشتائم في المئات والألوف من النبذ
والصور الساخرة » (٦) . ومس « نهب روما » ضمير الكرادلة وجمهير الشعب
المرتاعين كما مس دخولهم . وأعلن عشرات من القساوسة أن هذه الكارثة
نذير من الله . وفي عظة للأسقف ستافيليو أمام الروتا (وهو فرع قضائى

من الإدارة البابوية) عام ١٥٢٨ علل ضرب الله لعاصمة العالم المسيحي بعبارات أشبه ما تكون بلغة البروتستنت فقال «لأن البشر كلهم فسدوا ؛ إننا لسنا مواطني مدينة روما المقدسة ، بل مواطني بابل ، مدينة الفساد» (٧) . وهو ما قاله أوثر .

قبل عام ١٥١٧ ، في تاريخ غير مؤكد ، أسس جوفاني بيترو كارافا والكونت جاتانو داتيني «مصلى الحب الإلهي» في روما للصلاة وإصلاح الذات . واختلف إلى المصلى خمسون من الرجال النابهين ، منهم إياكوبو سادوليتو ، وجانماتيو جيبرتي ، وجوليانو داتي . وفي عام ١٥٢٤ أسس جاتانو طريقة للاكليريكيين النظاميين ، وهم قساوسة علمانيون يخضعون أنفسهم للنذور الديرية . وفض المصلى بعد «نهب روما» ، والتحق كارافا وآخرون بالطريقة الحديدية التي اتخذت لها اسماً هو التياتية . نسبة إلى تياتي أوتشيتي ، مقر أسقفية كارافا . وقبل في الطريقة رجال مرموقون مثل : بيترو بيمبو ، وماركانطونيوفلامينيو ، ولويجي بريولي ، وجاسبارو كونتاريني ، وريجنالد بولي . . . وكلهم نذروا أنفسهم للفقر ، والعناية بالمرضى ، وحياة الفضيلة الصارمة ، وكان هدفهم كما قال أول مؤرخ لهم : «تعويض ما في الإكليروس من نقص ، بعد أن أفسدت رجاله الرذيلة والجهل مما أفضى إلى خراب الشعب» (٥) . وانتشر أعضاء الطريقة في شتى أنحاء إيطاليا ، وأسهم المثل الذي ضربوه كما أسهمت الإصلاحات البابوية والمجمعية : والمثل الذي ضربه الكبوشيون والجزويت ، في إصلاح خلق الإكليروس الكاثوليكى والبابوات . وضرب كارافا المثل بالتخلي عن كل وظائف الكنسية ذات الموارد ، وتوزيع ثروته الكبيرة على الفقراء . وكان جيبرتي في شخصه وسيرته صورة للإصلاح الكاثوليكى . فهو في بلاط ليو العاشر من أئمة الإنسانيين ، وفي عهد كامنط السابع أمين أول للإدارة البابوية . وإذ هزته كارثة عام ١٥٢٧ . اعتكف في

أسقفيته بفيرونا ، وعاش عيشة الراهب المتقشف وهو بدير أسقفيته . وأزعجه انحلال الدين هناك — فالكنائس مهتمة ، والوعظ نادر ، والقساوسة يجهلون اللاتينية التي يتأون بها القداس ، والشعب لا يجلس إلى كرسي الاعتراف إلا نادراً . واستطاع بالقدوة الحسنة والمبدأ القويم وانظام الحازم أن يصلح أكليروسه . يقول مؤرخ كاثوليكي « وسرعان ما مئت السجون بالقساوسة ذوى الخليلات »^(٩) وأعاد جبرتي إنشاء أخوة البر *Confraternita della Carita* التي أسسها الكردينال جوليانو دى مديتشى عام ١٥١٩ ، وبني ملاجئ للأيتام ، وفتح مصارف الشعب لإنقاذ المقترضين من برائن المراهين . وقام بمثل هذه الإصلاحات الكردينال إركولى جونزاجا (ابن إيزابللا دسقى) فى مانتوا ، وماركو فيدا فى ألبا ، وفابيو فيججلى فى سبوليتو ، وكثير غيرهم من الأساقفة الذين أدركوا أن على الكنيسة أن تصلح ذاتها أو تموت .

وسلكت الكنيسة فى تاريخ لاحق العبيدين من أبطال الإصلاح الكاثوليكي ، الذين عاونوا على إنقاذها ، فى عداد قديسيها . ومن هؤلاء القديس فيليب نيرى ، وهو نبيل فلورنسى شاب ، أسس فى روما (حوالى عام ١٥٤٠) جماعة غريبة تدعى *Trinita de Pellegrini* ويقضى نظام هذه الجماعة أن يحضر اثنا عشر علمانياً قداس الأحد ، ثم يحجون إلى إحدى الباسلقات ، أو إلى أحد المروج الريفية ، وهناك يلقون أو يسمعون أحاديث التقوى والورع ، وينغمسون بالموسيقى الدينية . وقد أصبح كثير من أعضاء الجماعة قساوسة ، وسموا أنفسهم « آباء المصلى » ، ومن ميولهم الموسيقية أضافت كاحة *oratorio* — التي تعنى فى الأصل مكان الصلاة — معنى جديداً إلى معناها القديم ، وهو الترنيمة الكورالية . ومنهم القديس شارل بوروميو — ابن أخى البابا بيوس الرابع — الذى استقال من وظيفة الكردينال الرفيعة فى روما ليظهر الحياة الدينية فى ميلانو .

فأقر النظام بين رجال الإكليروس بوصفه رئيساً للاساقفة هناك ، وكان لهم في تقشفه وتعبده الأسوة الحسنة . وقد لقي في سبيل الإصلاح بعض المقاومة ، ذلك أن طريقة دينية تدعى « أوميلياى » ، كانت من قبل تفخر بتواضعها ، انحدرت إلى درك الراحة والدعة بل الاباحية . وأمر الكردينال رهبانها أن يطيعوا قانون رهبنتهم ، فأطلق أحدهم النار عليه وهو يصلى في الكنيسة . وكانت نتيجة هذه الفعلة أن تحولت رهبة الشعب إلى إجلال لهذا الرجل الذى رأى في الإصلاح خير رد على حركة الإصلاح البروتستنتى . وبفضل جهوده إبان حياته وفي أرجاء أبرشيته أصبح الخلق المذهب القاعدة الفاشية بين الإكليروس والعلمانيين على حد سواء . وأحس الناس بتأثيره في جميع أنحاء إيطاليا ، وقد أسهم هذا التأثير في تحويل الكرادلة من نبلاء متعلقين بنعيم الدنيا إلى كهنة أتقياء .

وبدأ البابوات يوجهون اهتمامهم الصادق إلى الإصلاح الكنسى بعد أن حفزهم أمثال هؤلاء . ففى بواكير عهد البابا بولس الثالث قدم له الفقيه الشهير جوفان باتيستا كاتشيا بحثاً فى إصلاح الكنيسة قال فى ديباجته « أرى أن الكنيسة أمنا المقدسة : . . قد اعتراها من التغير الكبير ما تبدو معه وقد تجردت من سمات طابعها التبشيرى ؛ وليس فيها أثر للتواضع وضبط النفس والتعفف والقوة الرسولية » (١٠) . وأظهر البابا بولس ميله بقبوله إهداء الكتاب إليه . وفى ٢٠ نوفمبر ١٥٣٤ عهد إلى الكرادلة بيكولومينى ، وسانسفيرينو ، وتشيزى ، أن يضعوا برنامج تجديد خلقى للكنيسة ، وفى ١٥ يناير ١٥٣٥ أمر بتنفيذ مراسيم الإصلاح التى أصدرها البابا ليو العاشر عام ١٥١٣ تنفيذاً دقيقاً . على أنه أجل الإصلاح الإيجابى بعد أن وقع فى شرك السياسة البابوية والإمبراطورية ، وأحذق به خطر زحف العثمانيين ، وكره وسط هذه الأزمات أن يهز بنى الإدارة البابوية أو أداءها لوظيفتها بتغييرات جذرية ؛ ولكن الرجال

الذين رفعهم إلى مرتبة الكردينالية كانوا كلهم تقريباً معروفين بالنزاهة والتقوى . وفي يوليو عام ١٥٣٦ قرر عقد مؤتمر إصلاحى فى روما دعا إليه كونتارينى ، وكارافا ، وسادوليتو ، وكورتيزى ، وألياندر ، وبولى ، وتومازو باديا ، وفيديريجو فريجويزى أسقف جوبيو ، وكلهم رجال ملتزمون بالإصلاح ، وأمرهم أن يكتبوا تقريراً عن الرذائل الفاشية فى الكنيسة ، والوسائل التى يشيرون بها للتخفيف منها . وافتتح سادوليتو المؤتمر بأن قرر فى جراءة أن البابوات أنفسهم كانوا أهم سبب فى تدهور الكنيسة بخطاياهم وجرائمهم وشرهم للمال (١١) . وظل المؤتمر يجتمع يومياً على مدى ثلاثة شهور . أما روحه الكبير ، وهو جاسبارو كونتارينى ، فكان ألمع رجال الإصلاح الكاثوليكى . ولد فى البندقية (١٤٨٣) من أسرة شريفة ، وتلقى علومه فى بادوا المتحررة ، وما لبث أن تقلد منصباً مرموقاً فى حكومة البندقية . وقد أوفد سفيراً لدى شارل الخامس فى ألمانيا ، وصحبه إلى إنجلترا وأسبانيا ، ثم مثل مجلس الشيوخ فى البلاط البابوى (١٥٢٧ - ٣٠) . واعتزل السياسة وانقطع للدرس ، وجعل من بيته ملتقى لخيرة رجال الدولة والكنيسة والفلاسفة والانسانيين فى البندقية . ومع أنه كان علمانياً فإنه كان يطيل التفكير فى الإصلاح الكنسى ، وتعاون تعاوناً نشيطاً مع كارافا . وجيبرتى ، وكورتيزى ، وبولى . وعرفته إيطاليا كلها مزيجاً نادراً من الذكاء والخلق ، وفى عام ١٥٣٥ ، ودون أى التماس منه ، عينه بولس الثالث كردينالاً مع أنه لم يلتق به قط (١٢) .

وفى مارس ١٥٣٧ قدمت اللجنة للبابا « نصيحة الكرادلة المعينين لإصلاح الكنيسة » ، وقد فضحت هذه النصيحة الاجتماعية ، بحرية مذهلة ، مفسد الحكم البابوى ، وعزتها بشجاعة أولاً « إلى مغالاة الفقهاء الكنسيين عديمي الضمير فى سلطة البابا مغالاة مستهترة » . ورأى التقرير « أن بعض

البابوات ادعوا الحق في بيع الوظائف الكنسية ، وقد أفشت هذه المتاجرة بالرتب الكهنوتية الرشوة والفساد في الكنيسة على نطاق واسع بحيث أشرفت هذه المنظمة العظمى على الخراب بسبب انعدام الثقة في نزاهتها . وحث التقرير على فرض رقابة صارمة على كل نشاط تقوم به الإدارة البابوية ، وعلى فرض رقابة على الإعفاءات الكنسية ، وعلى وقف دفع المال لنيلها ، وعلى مستوى أعلى في جميع الوظائف وفي شروط اختيار الكرادلة والقساوسة ، وحظر الجمع بين عدة وظائف كنسية ذات دخل أو الانتفاع بهذه الوظائف غيباً . وأضاف التقرير « لقد هجر معظم الرعاة قطعانهم في العالم كله ووكالوها إلى الأجراء » . أما الطرق الديرية فيجب تجديدها ، وأما أديار الراهبات فيجب إخضاعها للرقابة الأسقفية ، لأن زيارة الرهبان لها أفضت إلى الفضائح وتدنيس المقدسات . وأما صكوك الغفران فيجب الإعلان عنها مرة واحدة في العام فقط . واختتم التقرير بهذا النداء الحار للبابا .

« لقد أرضينا ضمائرنا ، ولنا وطيد الأمل في أن نرى كنيسة الله وقد صلحت حالها تحت رياستكم لقد تسميت باسم بولس ، فلعلكم تحاكونه في عيبته . لقد اخترت أداة لحمل اسم المسيح إلى الوثنيين ، وأملنا أن تكونوا قد اخترتم لتحيوا في قلوبنا وأعمالنا ذلك الاسم الذي نسى منذ أمد بعيد بين الوثنيين ومنا نحن الإكليروس ، ولتشفوا علتنا ، وتجمعوا خراف المسيح من جديد في حظيرة واحدة ، ولتصرفوا عنا غضب الله وانتقامه الذي يتهددنا » (١٣) .

وتقبل بولس بروح طيبة هذه « النصيحة الذهبية » كما سماها الكثيرون ، وأرسل صورة منها لكل كردينال . أما لوثر فقد ترجمها إلى الألمانية ، ونشرها تبريراً كاملاً لاختصاصه روما ، على أنه حكم على كاتب الوثيقة بأنهم « كذابون . . . وأوغاد يائسون ، يصلحون الكنيسة بالتملق » (١٤) . وفي

٢٠ أبريل ١٥٣٧ عين بولس أربعة كرادلة — كونتاريني ، وكارافا ، وسيمونيتا ، وجينوتشي — لإصلاح قسم الوثائق ، وهو ذلك القسم من الإدارة البابوية الذي استشرت فيه الرشوة في منح تلك الإعفاءات ، والإنعامات ، والامتيازات ، والترخيصات ، والوظائف ذات الدخل ، المحجوزة لتصرف السلطة البابوية . وكانت المهمة تتطلب الشجاعة ، لأن قسم الوثائق كان يسلم البابا كل سنة ٥٠,٠٠٠ دوكاتية (١,٢٥٠,٠٠٠ دولار) — وهي نصف دخله تقريباً^{١٥} . وللغور تعالت صرخة ألم من موظفي القسم ومن يلوذ بهم ، فشكوا من غلاء المعيشة في روما ، وزعموا أن أسرهم سيحل بها العوز سريعاً لو أنهم أكرهوا على مراعاة حرفية القانون . ومضى بولس في حذر ، ومع ذلك كان « عمل الإصلاح يسير بهمة » كما كتب الباندر إلى مورو (٢٧ أبريل ١٥٤٠) . وفي ١٣ ديسمبر دعا بولس ثمانين من رؤساء الأساقفة والأساقفة المقيمين بروما ، وأمرهم بالعودة إلى كراسيهم . وهنا ارتفعت مئات الاعتراضات مرة أخرى . وحذر مورو البابا من أن العجلة في تنفيذ هذا الأمر قد تحمل بعض الأساقفة على الانضمام إلى اللوثرين إذ يعودون إلى مناطق غلب عليها الآن المذهب البروتستنتي ، وهذا ما حدث فعلاً في عدة حالات . وسرعان ما تاه بولس في بيداء السياسة الإمبراطورية ، وترك الإصلاح لخلفائه من بعده .

وانتصرت الحركة المطالبة بالإصلاح الداخلي حين ارتقى زعيمها كارافا كرسي البابوية (١٥٥٥) باسم بولس الرابع . وصدر الأمر إلى الرهبان الغائبين عن أديارهم دون موافقة رسمية وضرورة واضحة بالعودة إليها فوراً . وفي ليلة ٢٢ أغسطس ١٥٥٨ أمر البابا بإغلاق جميع أبواب روما والقبض على جميع الرهبان الآبقين . واتبعت إجراءات مماثلة في جميع الولايات البابوية . وأرسل بعض المدنيين للعمل في سفن تشغيل الأسرى .

وأبطل الاحتفاظ برياسة الأديار لإعالة الموظفين الغائبين بدخولها . وطلب إلى الأساقفة ورؤساء الأديار الذين لا يخدمون الإدارة البابوية فعلا في وظيفة ثابتة أن يعودوا إلى وظائفهم وألا حرموا من دخلهم . وحظر الانتفاع بالدخول الكنسية المتعددة . وأمرت كل أقسام الإدارة البابوية بخفض رواتبها ، وإبعاد كل شبهة اتجار في التعيين للوظائف الكهنوتية ، وبعد أن خفض البابا بولس موارد على هذا النحو ، بذل تضحية أخرى فوقف دفع رسم التثبيت الذي كان يؤديه من يرقون رؤساء أساقفة . وصدرت عدة مراسيم بابوية ضد المراهبين ، والممثلين ، والبلغايا ؛ أما القوادون فتقرر إعدامهم . وطلب إلى دانييلي دا فولتيرا أن يغطي بطريقة العضلات الخياطية أكثر الملامح التشريحية افتضاحاً في لوحة ميكلائجلو « الدينونة الأخيرة » ؛ ويجب التسليم بأن ذلك المجرز الرهيب ، مجزر الأجساد الهالكة أو المخلصة ، لم يجد له من قبل مكاناً مناسباً فوق مذبح البابوات . واتخذت روما الآن مظهراً من التقوى والفضيلة الخارجية لا يلائم طبيعتها . وأصلحت الكنيسة أكليروسها وأخلاقها في إيطاليا ، ووراء إيطاليا بصورة أقل وضوحاً ، تاركة عقائدها سليمة في كبرياء . لقد تأخر الإصلاح طويلاً ، ولكنه حين أتى كان مخلصاً وبارهاً .

٣ - القديسة تريزا والإصلاح الديرى

وكان التجديد الخلقى يجرى في الوقت ذاته في الطرق الديرية . وفي وسعنا أن نتصور سمعة هذه الطرق من ملحوظة أبدأها ميكلائجلو التقى السليم العقيدة ، ذلك أنه حين نعى إليه أن سباستيان ديل بيومبو سيرسم صورة راهب في كنيسة سان بيترو بمونتوريو نصحه ألا يفعل ، لأنه إذا كان الرهبان قد أفسدوا الدنيا على ما بها من سعة ، فلا غرابة أن يفسد

راهب الكنيسة وهى بهذا الصغر^(١٦) . وصمم جريجوريو كورتيزى أن يصلح الرهبنة البندكتية فى بادوا فى صبر وأناة ، وجيرولامو سيريباندو الكهنة الأوغسطينيين ، وإيجيديو كانيزيو النساء الأوغسطينيين ، وباولو جوستنبانى الكامالدولين .

وقامت طرق ديرية جديدة شددت على الإصلاح . فأسس أنطونيو ماريا لاكاريا كهنة القديس بولس النظاميين فى ميلانو (١٥٣٣) ، وهم جماعة من القساوسة يندرون حياة الفقر الديرية . وكانوا أول الأمر يلتقون فى كنيسة القديس برنابا ، ومن هنا تسميتهم بالبرنابيين . وفى عام ١٥٣٥ وضعت القديسة أنجيلا نظام الراهبات الأورسوليات ليقمن بتعليم الفتيات ورعاية المرضى أو الفقراء ، وفى عام ١٥٤٠ أسس القديس يوحنا الإلهى جماعة « إخوان الرحمة » فى غرناطة للخدمة فى المستشفيات . وفى عام ١٥٢٣ اعتزم ماتيو دى باسى ، مدفوعاً بالرغبة الحارة فى الاقتداء بالقديس فرنسيس الأسيسى ، أن يتبع حرفياً نظام الرهبنة الأخير الذى خلفه مؤسس الطريقة الفرنسيسكانية لرهبانها . وانضم إليه غيره من الرهبان ، وما وافى عام ١٥٢٥ حتى شجع تكاثرهم ماتيو على أن يلتمس من البابا اعتماد فرع جديد من الفرنسيسكان ملتزم بأشد قواعد الرهبنة صرامة . واستطاع الرئيس الإقليمي للطريقة أن يستصدر أمراً بإيداعه السجن لعصيانه ، ولكن سرعان ما أطلق سراح ماتيو ، وفى عام ١٥٢٨ ثبت البابا كلمنت السابع طريقة الرهبان الكبوشيين الجديدة . وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن رهبانها كانوا يلبسون نوع القلنسوة cappuccio التى لبسها فرنسيس . وكانوا يرتدون أخشن الثياب ، ويعيشون على الخبز والخضر والفاكهة والماء ، ويصومون أصوماً قاسية . ويسكنون قلال ضيقة فى أكواخ حقيرة ، ولا يسافرون إلا مشاة ، ويمشون حفاة طوال العام . وقد اكتسبوا مكانة مرموقة بفضل رعايتهم المضحية لمرضى وباء

١٥٢٨ - ٢٩ . وكان ورعهم عاملاً في إبقاء فتوريا كولونا ونفر آخر
من اعتنقوا البروتستنتية حديثاً في حظيرة كنيسة ما زالت قادرة على إنجاب
أمثال هؤلاء المسيحيين الغيورين .

أما أكثر الأشخاص إثارة للاهتمام في عصر الإصلاح الديري الذي
نحن بصددده فرئيسة دير أسباني رقيقة البدن شديدة السيطرة ، هي تريزا
دى تشييدا . كانت ابنة فارس قشتالي من آبله ، فخور باستقامته المتطرفة
وولائه للكنيسة . وقد درج على أن يقرأ على أسرته جانباً من حياة
القديسين^(١٧) . أما الأم ، المصابة بعلّة مزمنة ، فكانت تطرد السأم عنها
بقراءة روايات الفروسية ، وتشارك من فراش مرضها في مغامرات
أماديس الغالى . وتذبذب خيال تريزا في طفولتها بين الحب الشعري
والاستشهاد الطاهر المقدس . وحين بلغت العاشرة نذرت على نفسها حياة
الرهبة . ولكنها لم تلبث بعد سنوات أربع أن تفتح صباها عن حسناء
تطفر بفرحة الحياة ، وتنسى ثوب الدير أمام الأثواب البهية التي ضاعفت
من مفاتها . وتوافد عليها المعجبون ، ووقعت في حب أحدهم على تهبب
ووجل ، فدعاها إلى موعد لقاء . وفي اللحظة الحاسمة أحست بالخوف ،
واعترفت لوالدها بالموامرة الرهيبة . ولما كانت أمها قد ماتت ، فإن الدون
ألونزو دى تشييدا أودع الفتاة الحساسة ديراً للراهبات الأوغسطينيات
في آبله .

وكرهت تريزا حياة الدير ونظامه الكثيين . ورفضت أن تقسم يمين
الرهبة ، وتطلعت في صبر نافذ إلى عيد ميلادها السادس عشر حين
يسمح لها بمغادرة الدير . ولكن ما إن دنا هذا الهدف حتى مرضت مرضاً
خطيراً وأشرفت على الموت . ثم تماثلت للشفاء ، ولكن مرح الشباب
ولى . ويبدو أن ضرباً من الصرع الهستيرى أصابها ، ربما نتيجة للتمرد
المكبوت على قيود غريبة عن غرائزها . وكانت النوبات تلوذها ثم تركها

خائفة القوى . ونقلها أبوها من الدير وأرسلها لتعيش مع أخت لها غير شقيقة في الريف . وفي طريقها أعطاها أحد أعمامها كتاباً من تأليف القديس جيروم . وقد وصفت الرسائل الحية التي احتواها الكتاب أهوال الجحيم ، وصورت مغازلات الجنسين كأنها الطريق المزدحم المفضي إلى الهلاك الأبدي . وقرأت تريزا الرسائل بشغف . وبعد نوبة شديدة أخرى طلقت كل فكرة في السعادة الدنيوية ، وعزمت على الوفاء بنذر طفولتها . فعادت إلى آيلة ودخلت دير التجسد الكرملى (١٥٣٤) .

وسعدت حيناً وسط روتين الدير المهدىء ، روتين القداديس . والصلوات والاعترافات المطهرة ، ولما تناولت القربان شعرت بالخبز كأنه المسيح حقاً على لسانها وفي دمها . ولكن نظام الدير الرخو أقلقها . فالراهبات لا يسكن القلالي بل الحجرات المريحة ، ويأكلن الطعام الفاخر رغم الأصوام الأسبوعية ، ويتزين بالقلائد والأساور والخواتم ، ويستقبلن الزوار في قاعة الاستقبال ، ويتمتعن بالأجازات الطويلة خارج أسوار الدير . وأحست تريزا أن هذه الظروف لا توفر لها الحماية الكافية من مغريات الجسد وأحلامه . ولعل هذه المغريات والأحلام ، بالإضافة إلى سخطها المتزايد ، جعلت نوباتها أكثر حدوثاً وأشد ألماً . وهنا أرسلها أبوها ثانية إلى أختها ، وأعطاهما عمها ثانية كتاباً دينياً اسمه « الأبجدية الثالثة » لفرانسيسكو دى أوزونا . وكان أبجدية في الصلاة الصوفية ، الصلاة دون كلام ، لأن « الذين يدنون من الله في صمت هم وحدهم الذين يمكن أن يسمعهم ويعطيهم جواباً » على حد قول المؤلف (١٨) . وفي عزلتها الريفية مارست تريزا هذه الصلاة الصامتة المتأملة التي لاعمت كل الملاءمة ما أحدثته بها النوبات من حالة شبيهة بالوجد .

وحاول طبيب يعالج بالأعشاب أن يداويها ، ولكن مستحضراته كادت تقتلها . ولما عادت إلى صومعتها في آيلة (١٥٣٧) كانت مشرقة

على الموت ، تواقه إليه . ثم أصابها أشد نوباتها عنفاً ، وراحت في غيبوبة خالها الراهبات غيبوبة الموت ، وظلت يومين باردة لا حراك بها ، تبدو مقطوعة النفس ؛ وحفر الراهبات لها قبراً . ثم أفاقت ، ولكنها ظلت ضعيفة جداً بحيث لم تستطع أن تهضم طعاماً جامداً أو تحتمل أية لمسة . ووقدت ثمانية أشهر في مستشفى الدير فيما يقرب من الشلل الكلى . وتحسنت حالها فأصبح شللها جزئياً ، ولكن « الفترات التي لم ترهقني فيها الآلام المبرحة كانت في الحق نادرة (١٩) » . وأقلعت عن كل أنواع العلاج الطبي ، وصممت على أن تعتمد كلية على الصلاة . وظلت ثلاث سنوات تتعذب وتصلى . وفجأة . في صباح يوم من أيام سنة ١٥٤٠ ، استيقظت العليلة طريحة الفراش ، التي بدت ميئوساً من شفائها ، لتجد أطرافها وقد فارقها الشلل . فقامت ومشت . ويوماً بعد يوم أخذت تشارك بنصيب أنشط في أعمال الدير . وهلل الناس لشفائها باعتباره معجزة ، وكذلك كان اعتقادها فيه . ولعل الصلاة قد هدأت من نائرة جهاز عصبي أرهقته الرغبات المضطربة ، والشعور بالإثم . وخوف الجحيم ؛ ومنحت أعصابها التي هدأت . وبعد الأطباء عنها ، جسدها سلاماً لم تعده من قبل .

وذاع صيت دير التجسد باعتباره المكان الذي حدث فيه شفاء معجز . وتوافد الناس من المدن المحيطة ليروا الراهبة التي شفاها الله ، وتركوا نقوداً وعطايا للدير المقدس . وشجعت رئيسة الدير هذه الزيارات ، وأمرت تريزا بالظهور أمام الزوار . وأزعج تريزا أن تجد أنها تستشعر لذة في هذه الزيارات ، وفي هذه الشهرة ، وفي وجود رجال وسمى الوجوه . وعادوها شعور بالإثم . وذات يوم (١٥٤٢) بينما كانت تتحدث في قاعة الاستقبال إلى رجل استهواها بصفة خاصة ، خيل إليها أنها ترى المسيح واقفاً إلى جوار الزائر . وراحت في غيبوبة ، واقتضى الأمر خلها إلى قلايتها على نقالة .

وظلت ترى هذه الرؤى طوال الستة عشر عاماً التالية ، وأصبحت عندها أكثر واقعية من الحياة . وفى عام ١٥٥٨ فيما هى غارقة فى صلاتها أحست بنفسها تخرج من جسدها وتصعد إلى السماء حيث رأت المسيح وسمعتة . ولم تعد هذه الرؤى تضئها ، بل على العكس من ذلك تنعشها . كتبت تقول :

« إن النفس التى كثيراً ما تضئها وترهقها الآلام الرهيبة قبل حالة الوجد تخرج منها ممتلئة عافية مقبلة على العمل بشكل يدعو إلى الإعجاب . . . كأن الله شاء أن يشارك الجسد ذاته فى سعادة النفس بعد أن أطاع رغباتها . . . والنفس بعد هذه المنحة يملؤها قدر من الشجاعة عظيم إلى حد يجعل الجسد لا يشعر إلا بأوفر راحة لو مزق فى تلك اللحظة إرباً فى سبيل الله » (٢٠) .

وفى مناسبة أخرى خيل إليها أن « ملاكاً رائع الحسن » قذف « سهماً طويلاً من الذهب » فى رأسه نار « مخترقاً قلبي عدة مرات ، حتى وصل إلى صميم أحشائي » .

« كان الألم حقيقياً بحيث اضطررت إلى الأنين بصوت عال ، ومع ذلك كان عذاباً إلى حد مدهش لم أتمن معه الخلاص منه . ليس فى مباحج الحياة ما يستطيع أن يهب رضى أكثر من هذا . وحين سمع الملاك السهم تركنى وقد اضطربت كلى يحب عظيم لله » (٢١) .

هذه الفقرات وأشباهاها مما كتبتة القديسة تريزا تقبل بسهولة تفسيرات التحليل النفسى ، ولكن أحداً لا يستطيع التشكك فى إخلاص القديسة الشديد . فقد أيقنت كما أبقت اجناتىوس بأنها رأت الله ، وأن أعوص المشكلات كانت تحل لها فى هذه الرؤى .

« ذات يوم وأنا أصلى وهب لى أن أدرك فى لحظة واحدة كيف أن

(*) يحتفل أتقياء الأسبان بذكرى رؤيا الطمن هذه لى هيد مقدس يقع فى ٢٧ أغسطس من كل عام .

الله يرى ويحتوى كل الأشياء . . . وهذه من أبرز النعم التي منحني الله إياها . . . فقد جعلني الرب أفهم كيف أن إلهاً واحداً يمكن أن يكون في ثلاثة أقانيم . وجعلني أرى هذا في وضوح شديد بحيث أخذني عجب شديد كما غمرتني سكينة عظمى . . . والآن حين أفكر في الثالوث الأقدس . . . أشعر بسعادة لا ينطق بها » (٢٢) .

أما الراهبات أخوات تريزا فقد علن رؤاها بأنها ليست سوى أوهام ونوبات مرضية (٢٣) ، وإلى هذا الرأي كان يميل آباء اعترافها ، فقد قالوا لها في جفاء « لقد خدع الشيطان حواسك » . وخال أهل المدينة لن الشياطين مستها ، وطالبوا محكمة التفتيش بفحصها ، واقترحوا أن يطرد قسيس شياطينها بالتعزيم . ونصحتها صديقة بأن تبعث للمحكمة بقصة حياتها ورؤاها ، فكتبت سيرتها في كتابها المشهور « Vida » ، ففحصه رجال المحكمة ، وحكموا بأنه وثيقة مقدسة خليقة بأن تشدد إيمان كل من يقرأها .

فلما أن دعم هذا الحكم مركز تريزا ، صممت - وقد بلغت الآن السابعة والخمسين - أن تصلح طريقة الراهبات الكرمليات . وبدلاً من محاولة إعادة نظام النسك القديم في دير التجسد ، قررت افتتاح دير منفصل دعت إليه من الراهبات وطالبات الرهبة كل من تقبل عيشة الفقر المطلق . لقد كان الكرمليات القدامى يلبسن الخيش الخشن ، ويمشين حافيات ، ويقتصدن في الطعام ويصمن أصواماً كثيرة . واشترطت تريزا على راهباتها الكرمليات الحافيات نظاماً أقرب ما يكون إلى هذا النظام الصارم ، لا بوصفه غاية في ذاته ، بل رمزاً للتواضع ولنبذ هذه الحياة الدنيا بما فيها من مغريات . وقامت في طريقها مئات العقبات ؛ فندد أهل آبله بالخطية لأنها تهدد بقطع كل اتصال بين الراهبات وأقاربهن . ورفض رئيس الطريقة الإقليمي الإذن لها بفتح دير جديد ، فلجأت تريزا إلى البابا بيوس

الخامس ، وظفرت بموافقة . ووجدت أربع راهبات قبلن الانضمام إليها ،
وكرس دير القديس يوسف الحديد في عام ١٥٦٢ في شارع ضيق من
شوارع آبله . وكانت راهباته يلبسن صنادل من الحبال ، وينمن على القش
ويصمن عن اللحم ، ويلتزمين ديرهن لزوماً دقيقاً .

ولم يرق راهبات الدير الأقدم - وعددهن ١٨٠ - هذا الفصح
البسيط لأساليب حياتهن المتهاونة . وأمرت رئيسة الدير تريزا بأن تستأنف
ارتداء ثوبها الأبيض السابق ، ولبس حذاءها ، وأن تعود إلى دير التجسد ،
زاعمة أنها التزمت قبلها بنذر الطاعة . وأطاعت تريزا . ودينّت بخطيئة
الكبرياء ، وحبست في صومعتها . وقرر مجلس المدينة إغلاق دير القديس
يوسف ، وأوفد أربعة رجال أشداء لإجلاء الراهبات اللاتي لم يعد لهن
الآن رئيسة . ولكن العذارى لابسات الصنادل قلن « إن الله يريدنا أن
نمكث هاهنا ، فنحن إذن ماكنات » . ولم يجرؤ الموظفون القانونيون القساة
على إكراههن على الجلاء . أما تريزا فقد قذفت الرعب في قلب الرئيس
الكرملي الإقليمي حين أومأت إلى أنه إنما يسىء إلى الروح القدس بوضعه
العراقل في طريق خططها ؛ فأمر بالإفراج عنها . وغادرت الدير معها
أربع راهبات ، وسارت النسوة الخمس إلى دارهن الجديدة وسط الثلوج ؛
وحيا الراهبات الأربع القدماى تريزا « Madre أما » لهن وهن سعيدات ،
وأصبحت الآن معروفة في أسبانيا كلها تقريباً باسم تريزا يسوع ، صديقة
الله الحميمية .

وكان نظام رهبنتها يتسم بالمحبة والبهجة والخزم . فالييت موصد في
وجه العالم ، لا يسمح للزوار بدخوله ، والنوافذ مكسوة بالقماش ،
والأرض المبلطة هي الأسيرة والموائد والمقاعد . وبني في الجدار قرص
دائر ، وأنى طعام يضعه الناس على نصفه الخارجى يقبله الدير بشكر ،
ولكن ليس للراهبات أن يستجدين . وكن يكملن ما نقص من قوتهن

بالغزل وأشغال الإبرة ، وتوضع منتجاةً من خارج باب الدير ، ولأى مشتر أن يأخذ منها ما شاء ويترك مقابله ما شاء . وأقبات راهبات جديدات على الرغم من هذا التقشف كله . ومن بينهن امرأة كانت أبجل نساء آيلة وأشدهن فتنة للرجال . ولما زار الرئيس العام للأديار الكرملية هذا الدير الصغير بلغ به التأثير أشده ، فطاب إلى تريزا أن تؤسس بيوتاً مماثلة له في سائر أرجاء أسبانيا . وفي عام ١٥٦٧ استصحبته بضع راهبات ، وسافرن في عربة حقيرة قطعت سبعين ميلاً على طرق رديئة لتؤسس ديراً للراهبات الكرمليات الحفايات في مدينة ديل كاميو . وكان البيت الوحيد الذى عرض عليها بناء مهجوراً متهدماً تداعت جدرانها ورشح سقفه ، ولكن حين رأى أهل المدينة الراهبات يحاولن العيش فيه ، توافد النجارون والمباطون لإصلاح الدار وصنع أثاث بسيط له دون أن يدعوهن لذلك أحد أو يتقاضوا على عملهم أجراً .

وجاء إلى تريزا رئيس دير الرهبان الكرمليين في مدينة طالباً إليها قواعد رهبنتها رغبة منه في إصلاح رهبانه المتراخين . وكان الرجل فارغ القوام ، ولكن جاء في صحبته شاب قصير هزيل جداً حتى أن تريزا قالت بعد رحيلهما في دعابتهما التي كانت تضحى الإشراق على نسكها « تبارك الله ، فان عندى الآن راهباً ونصفاً لتأسيس ديرى الجديد (٢٤) » . أما هذا الروهب ، واسمه جوان دى أبيس ألفاريز ، فقد كتب له أن يصبح سان جوان دى لاكروز ، أى القديس يوحنا الصليبي ، روح الرهبان الكرمليين الحفاة وفخرهم .

ولم تأنه مصاعب تريزا . ذلك أن الرئيس الإقليمي للأديار الكرملية عينها رئيسة على دير التجسد ، ربما اختباراً لحكمها وشجاعتهما . وكان راهبات هذا الدير يكرهنها ، وقد خشين أن تذيبهن الآن ألوان الذل والهوان انتقاماً منهن . ولكنها عاملتهن بكثير من التواضع والركة حتى

كسبتهن الواحدة بعد الأخرى ، وما لبث النظام الجديد الأكثر صرامة أن حل شيئاً فشيئاً محل التراخي القديم . ومن هذا الانتصار تقدمت تريزا لإنشاء دير جديد في إشبيلية .

وصمم رهبان الطريقة التي تراخي نظامها على وقف امتداد الإصلاح . فظهرت بعضهم عميلة تنكرت في زي راهبة حافية إلى دير إشبيلية . وما لبثت هذه المرأة أن أعلنت على الملأ في أسبانيا أن تريزا تجلد راهباتها وتتلقى بالاعتراغات كأنها كاهن . وطلب إلى محكمة التفتيش التحقيق معها ثانية . وودعت للمثول أمام المحكمة الرهيبة ، واستمعت المحكمة إلى شهادتها وأصدرت هذا الحكم « لقد برئت من كل التهم . . . فاذهي واصلى عملك (٢٥) » . ولكن أعداءها كسبوا سفيراً بابوياً إلى صفوفهم . فندد بتريزا « امرأة عاصية متمردة ، تنشر التعاليم المؤذية تحت قناع التقوى ، تركت ديرها مخالفة بذلك أوامر رؤسائها ؛ امرأة طماعة ، تعلم اللاهوت كأنها من فقهاء الكنيسة ، محتقرة بذلك القديس بولس الذي منع النساء من أن يعلمن » . ثم أمرها بأن تعتكف حبيسة في دير للراهبات بطليطلة (١٥٧٥) . وحارت تريزا إلى من تلجأ في هذا التغير الجديد ، فكتبت إلى الملك . وكان فيليب الثاني قد قرأ « حياتها » . وأحب الكتاب . فأرسل مبعوثاً خاصاً من بلاطه يدعوها لمقابلة الملك ، واستمع لإيها ، واقتنع بورعها . وسحب السفير البابوي أمره السابق بفرض القيود على تريزا بعد أن وبخه الملك ، وأعلن أنه زود بمعلومات كاذبة .

وفي وسط أسفارها وشدائدها كتبت كتيبات تعبدية صوفية شهيرة مثل « طريق الكمال ١٥٦٧ » و « الحصن الداخلي ١٥٧٧ » . وقد كشفت في هذا الكتيب عن عودة آلامها الجسدية فقالت « ينحلي إلى أن أنهاراً مفعمة بالمياه تتدافع داخل رأسي فوق منحدر سحيق ، ثم اعود فأسمع الطيور في غنائها وصفيرها بعد أن طغى عليها ضجيج المياه . وأنا أرهق ذهني وأزيد صداعى » (٢٦) ، وعاودتها النوبات القلبية ، وكان عسيراً على

معدتها أن تحتفظ بالطعام ، وراحت على الرغم من هذا تنتقل في ألم من دير إلى دير من تلك الأديار الكثيرة التي أسستها ، فاحصة ، مصلحة ، ملهمة . وفي ملقا أصابها نوبة شلل . ثم شفيت ، ومضت إلى طليطلة ، فنزلت بها نوبة أخرى . ثم شفيت ، ومضت إلى سقوية وبلد الوليد ، وبلنسية ، وبرغش وإلبه ، وهناك اضطرها نزف في رثتها أن تتوقف . واستقبلت الموت ببشاشة ، واثقة أنها إنما ترحل عن عالم من الألم والشر إلى صحبة المسيح الخالدة .

ودفنت في مسقط رأسها بعد منافسة معيه بين ألبة وآبله وخطف جسدها المرة بعد المرة . وزعم المصلون الأتقياء أن جسدها لم يفسد قط ، وروى حدوث العجائب الكثيرة عند قبرها . وفي عام ١٥٩٣ تلقت طريقة الراهبات الكرملبات الخافيات اعتماد البابا . واشترك نفر من أشهر الأسبان مثل سرفانتس ولوبي دى فيجا في توجيه نداء إلى البابا يلتمسون فيه على الأقل تطويبها . وهذا ما حدث (١٦١٤) ، وبعد ثمانى سنوات تقرر أن تكون تريزا إحدى اثنين من قديسى أسبانيا الحامين ، أما الثانى فهو الرسول يعقوب .

في غضون هذا خرج من أسبانيا من هو أعظم من تريزا ليصلح الكنيسة ويهز الدنيا .

٤ — إجناتيوس لويولا

ولد الدون إينيغو دى أوننيز اللويولى في قلعة لويولا باقليم جويبوزكوا ، وهو من أقاليم الباسك ، في عام ١٤٩١ . وكان أحد ثمانية أبناء وخمس بنات للدون بلتران دى أوننيز اللويولى ، الذى ينتمى إلى طبقة النبلاء الأسبان العظام . وقد ربى الصبى ليكون جندياً ، لذلك لم يتلق من التعليم المدرسى إلا القليل ، ولم يبد ميلا إلى الدين . واقتصرت قراءاته على قصة « أماديس

الغالى» وأشباهاها من روايات الفروسية . ولما بلغ السابعة أرسل ليكون تابعاً للدون جوان فيلاسكويز دى كويالار ، وبفضله أتيح له بعض الاتصال بالبلاط الملكى . وحين بلغ الرابعة عشرة أحب جرمن دفوا . الملكة الجديدة لفرديناند الكاثوليكي ، ولما حان وقت تقليده رتبة الفروسية اختارها مليكة له ، ولبس شعارها ، وحلم بالفوز ينديل مخرم من يدها جزاء انتصاره فى مبرة للفروسية (٢٧). على أن هذا لم يمنعه من الدخول فى الغراميات والمشاجرات العارضة التى كانت نصف حياة الجندى . ولم يحاول إخفاء هذه الأعمال الطائشة الطبيعية فى سيرته الذاتية ، البسيطة الأمانة ، التى أملاها فى ١٥٥٣ - ٥٦ .

ثم انتهى شبابه الحلى حين عين للخدمة العسكرية العاملة فى بابلونة عاصمة نافار . وهناك أنفق أربع سنوات يحلم بالجد ولا يفتح عينيه إلا على حياة رتيبة . وواتته الفرصة لكى يثبت كفايته ، فقد هاجم الفرنسيون بابلونة ، وشدت بسالة إينيجو أزر المدافعين ، ولكن العدو استولى على القلعة ، وأصيبت ساق إينيجو البنى بكسر من قذيفة مدفع (٢٠ مايو ١٥٢١) . وترفق المنتصرون به ، وجبروا عظامه ، وأرساوه على نقالة إلى حصن أسلافه . ولكن العظام أخطئ جبرها ، فاقتضى الأمر كسرها وجبرها من جديد . ثم تبين أن العملية الثانية أسوأ من سابقتها ، لأن جدعة من العظم برزت من الساق . واستقامت العظام بعد عملية ثالثة ، ولكن الساق أصبحت الآن أقصر مما ينبغى . وظل إينيجو الأسابيع يعانى عذاب جبيرة جعلته ضعيفاً عاجزاً يشكو ألماً لا يبرحه .

وخلال أشهر النقاهة الطويلة المملة طاب كتباً ، لا سيما قصة مؤثرة عن الفروسية والأميرات اللاتى يتهدهن الحفار . ولكن مكتبة القاعة لم يكن بها سوى كتابين لا ثالث لهما : أولهما « حياة المسيح » بقلم اودلفوس ، أما الثانى فيحكى سير القديسين . Flos sanctorum ، وضاق الجندى ذرعاً بالكتابين أول الأمر ، ثم تسلط عليه صورتا المسيح ومريم ،

وتبين له أن أساطير القديسين لا تقل عجباً عن ملاحم الحب النبيل والحرب ،
ففرسان المسيح هؤلاء هم من كل الوجوه أبطال كفرسان قشتالة . وتكونت
في عقله شيئاً فشيئاً فكرة مؤداها أن أنبل الحروب هي حرب المسيحية
مع الإسلام . وجعلت جدة الايمان الأسباني الدين عنده ، كما جعلته
عند دومنيك من قبل ، لا تعبداً هادئاً كتعبد الراهب الألماني توماس
أكيبيس ، ولكن رغبة مشوبة في الصراع ، بل حرباً مقدسة . وصمم
على الذهاب إلى بيت المقدس وتحرير الأماكن المقدسة من سيطرة غير
المسيحيين . وذات ليلة ظهرت له العذراء وابنها في رؤيا ، وبعدها (كما
أخبر الأب جونزاليز فيما بعد) لم يهاجمه قط أى إغراء جنسى^{٢٨١} . ونهض
من فراشه ، وجثا على ركبتيه ، وأقسم أن يكون جندياً للمسيح ومريم
حتى الموت .

وكان قد قرأ أن الكأس المقدسة خبئت مرة في قلعة بمونتسرات في
إقليم برشلونه . هنالك ، كما ورد في أشهر الروايات قاطبة ، قضى أماديس
ليلة بطولها ساهراً أمام صورة العذراء تاهباً للفروسية . وما إن وجد إنيجو
في نفسه القدرة على السفر حتى امتطى بغلاً وانطلق إلى ذلك المزار البعيد .
وظل حيناً يرى في نفسه جندياً مرتدياً شكة النزال . ولكن القديسين
الذين قرأ أخبارهم لم يحملوا سلاحاً ولا درعاً ، إنما كانت عدتهم أفقر
الثياب وأرسخ الإيمان . فلما بلغ مونتسرات طهر روحه بالاعتراف
والتكفير ثلاثة أيام ، ثم خلع ثيابه الغالية على شحاذ ، وارتدى عباءة حاج
من قماش خشن . وقضى طوال ليلة ٢٤ — ٢٥ مارس ١٥٢٢ وحيداً
في كنيسة صغيرة بدير بندكتي ، راكعاً أو واقفاً أمام مذبح العذراء .
وأخذ على نفسه العهد بحياة العفة والفقر الدائمين . وفي صباح الغد تناول
القربان ، وأعطى بغله للرهبان ، ثم انطلق إلى أورشليم وهو يعرج على
قدمه .

كانت أقرب الموانئ إليه برشلونه ، وفي طريقه إليها توقف عند قرية مانريزا . ودلته عجوز على مغارة يأوى إليها . فجعلها مسكنه أياماً ، وإذ كان حريضاً على أن يبرز القديسين في نسكهم ، فقد مارس هناك من التقشف الصارم ضرباً كادت تقضى عليه . وفي ندمه على ما أسلف من خيلاء بمظهره ، كف عن تنظيف شعره أو قصه أو تمشيطه — فسقط بعد قليل . وأثنى أن يقص أظافره أو يستحم أو يغسل يديه أو وجهه أو قدميه (٢٩) ، وعاش على ما وسعه استجدائه من طعام ، إلا أن يكون لحمًا ؛ وكان يصوم أياماً بطولها ، ويسوط نفسه ثلاث مرات في اليوم ، وينفق الساعات في الصلاة كل يوم . وأمرت امرأة تقية بنقله إلى بيتها مخافة أن يودى هذا التقشف الصارم بحياته ، وهناك مرضته حتى استعاد عافيته . ولكنه عاود جلد نفسه حين نقل إلى قلاية في دير دومنيكى بمانريزا . لقد أزعجته ذكرى ذنوبه الماضية ، فشن الحرب على جسده باعتباره الأداة للذنوب ، وصمم على أن ينتزع بالجلد كل فكرة خطيئة من جسده . وبدا الصراع أحياناً ميثوساً منه ، ففكر في الانتحار . وهنا جاءته الرؤى التي شددته ، واعتقد وهو يتناول القربان مرة أنه لا يرى قربانة بل المسيح الحى ، وفي مرة أخرى ظهر له المسيح وأمه ، ومرة رأى الثالث ، وفهم — بومضة من بصيرته يقصر دونها اللفظ أو الفكر — سر الأقانيم الثلاثة في الإله الواحد ، وفي « مرة أخرى » كما يروى « أذن له الله أن يفهم كيف خلق العالم » (٣٠) . وأبرأت هذه الرؤى الصراع الروحى الذى ابتعثها ، فطرح وراء ظهره كل قلق بسبب حماقات شبابه ، وخفف من غلواء نسكه ، وإذ قهر جسده فقد استطاع الآن أن يطهره دون غرور . ومن خبرة هذا الصراع الذى امتد قرابة عام وضع « الرياضات الروحية » التى يمكن أن يخضع فيها الجسد الوثنى للإرادة المسيحية . ورأى أن فى وسعه الآن أن يمثل أمام المزارات المقدسة فى أورشليم .

وأبحر من برشلونة في فبراير ١٥٢٣ . وفي طريقه تخلف أسبوعين في روما ، ثم لاذ بالفرار قبل أن تثنيه روحها الوثنية عن طريق القداسة . وفي ١٤ يوليو استقل سفينة من البندقية إلى يافا . وأصابته خطوب كثيرة قبل أن يبلغ فلسطين ، ولكن روائه المتصلة شدت من أزره . وكانت أورشليم نفسها إحدى المحن ، فالترك الذين يسيطرون عليها يسمحون للزوار المسيحيين بدخولها ، ولكنهم يمنعون التبشير فيها ، وحين اقترح إينيجو تحويل المسلمين إلى المسيحية برغم هذا الحظر ، أصدر الرئيس الفرنسي في المحلى ، الذى وكل إليه البابا حفظ السلام هناك ، أمراً للقديس بالعودة إلى أوروبا . وفي مارس ١٥٢٤ عاد إلى برشلونة .

ولعله أحس الآن أنه وإن كان سيدياً على جسده فإنه عبد لأوهامه . فصمم على تهذيب عقله بالتعليم . واشترك مع تلاميذ المدارس في تعلم اللاتينية مع أنه كان في الثالثة والثلاثين . ولكن شهوة التعليم كانت فيه أقوى من إرادة التعلم . وسرعان ما بدأ لإجناطيوس - وهو اسمه المدرسى - في تبشير لفيف من النساء التقيات الفانتات . وندد به عشاقهن مفسداً لمتعتهن وضربوه ضرباً وحشياً . فانتقل إلى القلعة (١٥٢٦) ، وعكف على دراسة الفلسفة واللاهوت . وهنا أيضاً راح يعلم جماعة خاصة صغيرة جلها من فقيرات النساء ، فيهن نفر من البغايا المتعطشات إلى الخلاص . وحاول أن ينتزع منهن ميولهن الخاطئة بالرياضة الروحية ، ولكن بعض تلميذاته أصابتهن نوبات أو غشيات ، فاستدعته محكمة التفتيش للمثول أمامها . وأودع السجن شهرين (٣١) ، ولكنه في النهاية أقنع المفتشين سلامة عقيدته ، فأفرج عنه ، غير أنه منع من التعليم . ومضى إلى سلمنقه (١٥١٧) ، وجاز تجربة مماثلة انتقل فيها من مرحلة التعليم إلى المحاكمة أمام محكمة التفتيش ، إلى السجن ، إلى الإفراج ثم إلى الكف عن التعام . فلما خاب ظنه في أسبانيا ، يمم شطر باريس ، دائماً سيراً على الأقدام في رداء الحاج ، سائقاً أمامه الآن حماراً يحمل أسفاراً .

وفي باريس عاش في ملجأ الفقراء . وكان يستجدي في الشوارع طعامه ونفقة تعليمه . ودخل كلية مونتيجي . حيث كان بوجهه الشاحب المهزول ، وبدنه الأعجف ، ولحيته المهوشة ، وثيابه العتيقة ، محط الأنظار غير العطوفة ، ولكنه واصل السعي إلى أهدافه في حرص ملك عليه حواسه حتى أن بعض الطلبة بدأوا ينزلونه منزلة القديس . فارتسوا بارشاده ألوان الرياضة الروحية من صلاة وتكفير وتأمل . وفي عام ١٥٢٩ انتقل إلى كلية سانت - بارب . وهناك أيضاً التف حوله نفر من التلاميذ . وانتهى مساكناه بطريقتين مختلفتين إلى الإيمان بقداسته . فأما بيير فافر . الذي كان من قبل راعياً في إقليم السافوا الألبى ، فكان يتعذب عذاباً مبرحاً من مخاوف وهمية أو واقعية . وبتأثيرها نذر حياة العفة الدائمة . وكان يخفي الآن وهو في العشرين تحت طباعه المهدبة روحاً تكافح مغريات الجسد كمنافحاً محموماً ، ومع أن إجناتيوس لم يدع لنفسه توقد الذكاء . فقد كان يملك القدرة على الإحساس بحياة الآخرين الداخلية بفضل شفافية حياته . وعلى ذلك فقد حُدس مشكلة صديقه الشاب . وأكد له أن نزعات الجسد يمكن السيطرة عليها بالإرادة المدربة . وكيف تدرب الإرادة ؟ أجاب إجناتيوس ، بالرياضة الروحية . وراحا يمارسان هذه الرياضة معاً . وأما نزيل غرفته الآخر ، واسمه فرانسوا زافير . فكان أصله من بنبلونة حيث مارس لويولا الجندية ، وسليل عدد كبير من الأسلاف النابهين ، وسيم ، غنياً ، فخوراً ، فتي مستهتراً . مرحاً . عليمًا بحانات باريس وبناتها (٣٢) . وسخر الفتى من صاحبيه الزاهدين وراح يباهي بما أصاب من توفيق مع النساء . على أنه كان ذكياً في دراساته (٣٣) . حصل من قبل على درجة الأستاذية . وهو يحضر الآن للدكتوراة . وذات يوم رأى رجلاً نقر الزهرى وجهه . فأوقفه المنظر ملياً . وبينما كان مرة يفرض في الحديث عما يجيش في صدره من طموح للشهرة والمجد . ذكر له إجناتيوس في هدوء هذه الآية من الإنجيل : « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح

العالم كله وخسر نفسه ؟ » ، وساء السؤال زافير ، ولكنه لم يستطع نسيانه . فبدأ ينضم إلى لويولا وفابر في رياضتهما الروحية ، ولعل كبريائه دفعته إلى مباراة زميليه في القدرة على احتمال الحرمان والبرد والألم . وراحوا يجلدون أنفسهم ، ويصومون ، وينامون في قمص رقيقة على أرض حجرية غير مدفأة ، ويقفون حفاة عراة تقريباً على الثلوج ليخشنوا أجسادهم وليخضعوها في الوقت ذاته ، وبلغت التدريبات الروحية التي بدأت في مانريزا شكلاً أكثر تحديداً . وصاغها إجناتيوس في كتيب على غرار « رياضة الحياة الروحية » (١٥٠٠) الذي وضعه الدون جارسيا دى كزنيروس ، رئيس دير مونتسرات البندكتي (٢٣) ، ولكنه سكب في هذا القلب من حرارة العاطفة والخيال ما جعل كتيبه قوة محركة في التاريخ الحديث . وكانت نقطة البداية التي انطلق منها لويولا هي عصمة الكتاب المقدس والكنيسة ، فهو يرى أن الحكم الفردي في الدين إنما هو ادعاء باطل مولد للفوضى تدعيه عقول ضعيفة متكبرة . « علينا دائماً أن نكون على استعداد للإيمان بأن ما يبدو لنا أبيض إنما هو أسود إذا عرفته كذلك الكنيسة ذات الكهنوت المسلسل (٢٤) » وعلينا إن أردنا تجنب الهلاك الأبدي أن ندرب ذواتنا على أن نكون خداماً ممثلين لله ، وللكنيسة التي استخلفها الله على الأرض .

أما أول تدريب روحي فهو تذكر خطايانا الكثيرة ، والتفكير في مقدار العقوبة الذي تستحقه . لقد حكم على الشيطان بالبحيم لخطيئة واحدة ، أفليست كل خطية نقارفها تمرداً على الله كتمرد الشيطان ؟ فلنحتفظ بحساب يومى لذنوبنا بعلامات على سطور تمثل الأيام ، ولنحاول كل يوم أن ننقص عدد هذه العلامات . وفيما نحن راكعون في حجرتنا أو صومعتنا بعد إظلامها ، لتتخيل البحيم بأجلى ما نستطيع ؛ يجب أن نستحضر كل فظائع هذه النار التي لا تموت ، يجب أن نتصور عذاب

الهالكين ، ونسمع ضرخات الألم وصيحات اليأس المنبعثة منهم ؛ يجب أن نشم الأبخرة المنتنة التي تتصاعد من الكبريت واللحم المحترقين ؛ يجب أن نحاول الإحساس باللسنة اللهب تلك وهي تلذع أجسادنا ؛ ثم يجب أن نسأل أنفسنا ، كيف السبيل إلى النجاة من هذا العذاب الأبدي ؟ لا سبيل إلا تضحية الفداء التي قدمها الله نفسه في المسيح على الصليب^(*) . فلنتأمل إذن حياة المسيح ، في كل دقائقها ، علينا أن نكون حضوراً بالخيال في تلك الأحداث التي هي أعمق الأحداث في تاريخ العالم . يجب أن نجثو في الخيال أمام الأشخاص المقدسين في تلك الملحمة الإلهية ، وإن نأثم هذب أثوابهم . وبعد أن ننفق أسبوعين في مثل هذه التأملات يجب أن نصحب المسيح في كل خطوة من خطوات آلامه ، في كل مرحلة من مراحل الصليب ؛ نصلى معه في جثسياني ، ونشعر بأننا نجلد معه ، ويصق علينا ، ونسمر على الصليب ، يجب أن نقاسي كل لحظة من لحظات عذابه ، أن نموت معه ، وأن نقبر معه . وفي الأسبوع الرابع يجب أن نتخيل أنفسنا وقد قمنا منتصرين من القبر ، وصعدنا أخيراً معه إلى السماء . وإذا تشددنا هذه الرويا المباركة ، فستكون على أهبة الانخراط جنوداً مكرسين في المعركة الهزيمة الشيطان وربح النفوس للمسيح ، وفي تلك الحرب المقدسة سنحتمل باغتيال كل ما نلقي من شدائد وننفق حياتنا في مهجة وفرح .

ووجدت هذه الدعوة للتعبد الممتد طوال الحياة تسعة طلاب في باريس على استعداد لقبولها . ولعل هؤلاء الشبان الجهاديين ، الذين شعروا لأول مرة بما في العالم من غموض محير ، وتاقت نفوسهم لمرساة من الإيمان والأمل وسط خضم من الشكوك والخاوف - نقول لعلهم دفعوا بثقل المطالب

(*) لاحظ أن لوثر جاز بمثل هذه المخاوف من الجحيم ، وبمثل غروب انكشف التكفيرية هذه ، وبمثل هذا التحرر بفضل الإيمان بتضحية المسيح الفادية ، الذي كان المحرك لحياة اجنايوس .

الملقاة على كواهلهم إلى المشاركة بمصيرهم وحياتهم وخلاصهم في خطة لويولا . فاقترح أن يذهبوا معاً في الوقت المناسب إلى فلسطين . ويحيوا هناك حياة أقرب ما تكون إلى حياة المسيح . وفي ١٥ أغسطس ١٥٣٤ اجتمع لويولا ، وفافر ، وزافير ، ودييجو لاينيز ، وألونسو ساليرون ، ونيكولا بوباديللا ، وسيمون رودريجيز ، وكاود لوجي . وجان كودير ، وباشاس برويه — اجتمع هؤلاء العشرة في كنيسة صغيرة بمونمارتر ، ونذروا حياة العفة والفقر ، وأخذوا العهد على أنفسهم بالذهاب إلى الأراضي المقدسة والعيش فيها بعد قضاء عامين آخرين في الدرس . ولم يكن لديهم إلى الآن فكرة واضحة عن مكافحة البروتستنتية ، وبدا الإسلام لهم تحدياً أعظم . ولم يكن بهم ميل إلى المحاللات اللاهوتية . فهدفهم إنما هو حياة القداسة ، وحركتهم تمد جذورها في تربة الصوفية الأسبانية لا صراعات العصر الفكرية . وخير حجة يقدمونها هي التقى والورع .

وفي شتاء ١٥٣٦ — ٣٧ اخترقوا فرنسا سيراً على الأقدام ، وعبروا الألب ، ثم إيطاليا إلى البندقية حيث كانوا يأملون العثور على سفينة تحملهم إلى يافا . ولكن البندقية كانت تخوض حرباً مع الترك . فاستحال عليهم السفر . وخلال فترة التخلف التقى إجناتيوس بكارافا ، وانضم حيناً إلى التياتين . وكان لخبرته مع هؤلاء القساوسة الأتقياء بعض الأثر في تغيير خطته من العيش في فلسطين إلى خدمة الكنيسة في أوروبا . واتفق هو وتلاميذه على أن يتقدموا للبابا طالبين أداء أى خدمة يكلها إليهم ، إذا انقضت عليهم في هذا الانتظار سنة دون أن يفتح أمامهم الطريق إلى فلسطين . وحصل فافر على إذن لهم جميعاً برسامتهم قساوسة .

كان لويولا قد بلغ إذ ذاك السادسة والأربعين ، أصابع الرأس به عرج خفيف لم يفارقه إثر جرحه . وما كان له بقامته التي لم تزد على

خمسـة أقدام وبوصتين أن يقع من نفوس ناظرية أى موقع لولا رهافة أرسـة قراطية فى قسـمات وجهه ، وتدب فى أنفه وذقنه ، ولولا ما فى عينيه من سواد ونفاذ وعمق واكتئاب ، وما فى طلـعته من رزائـة وعزم ؛ وكان قد غدا القديس المستغرق فى تأملاته ، العازف عن الفكاهة . لم يكن مضطهداً لخصوم الدين ، ومع أنه وافق على وجود محكمة التفتيش (٢٥) فقد كان ضحيـتها أكثر منه عميلها . كان صارماً فى عطف ، بخدم المرضى عن طيب خاطر فى المستشفيات وإبان تفشى الطاعون ، حلمه أن يريح نفوساً إلى الإيمان لا بالنار أو السيف بل بالسيطرة على الخلق فى الشباب الطبع وتشكيله تشكيلاً ثابتاً فى الإيمان . ولم يكن هذا المؤسس لأنجح نظم التربية فى التاريخ شديد التأكيد على العلم أو الذكاء . لم يكن لاهوتياً ، ولم يشترك فى مجادلات الكلاميين أو تدقيقاتهم ؛ وقد أثر الإدراك الحسى المباشر على الفهم العقلى . ولم ير ضرورة للجدل حول وجود الله ، ومريم والقديسين ، فقد كان مقتنعاً بأنه رآهم ، وأحس بهم أقرب إليه من أى شىء أو شخص فى محيطه ، وكان على طريقته رجلاً ثملاً بمعرفة الله ومحبه . ومع ذلك فإن تجاربه الصوفية لم تجعل منه رجلاً غير عملى . لقد كان فى وسعه أن يجمع بين مرونة الوسائل وصلابة الغايات ، يأبى تيرير أى وسيلة لغاية يراها حسنة ، ولكن فى مقدوره أن يترى تحيئاً للفرصة . ويعتدل فى آماله ومطالبه ، ويلازم بين أساليبه والأشخاص والأحوال ، ويستعمل الدبلوماسية إذا اقتضى الأمر استعمالها ، ويرى رأى الثاقب فى الرجال ، ويحسن اختيار مساعديه وعماله ، ويسوس الرجال كأنه قائد يقود فرقة عسكرية — وهو ما كان يراه فى نفسه فعلاً . وقد أطلق على فرقته الصغيرة اسماً حريماً « فرقة يسوع » ، ولا عجب ، فهم جند تطوعوا مدى الحياة لمباراة الإلحاد والخلال الكنيسة . أما هم فقد قبلوا النظام العسكرى للعمل المنسق تحت قيادة مطلقة ، باعتبار هذا القبول مرأ طبيعياً وضرورياً .

وفي خريف ١٥٣٧ خرج لويولا وفاقر ولاينيز من البندقية قاصدين روما ليلتمسوا موافقة البابا على خططهم . وقطعوا الطريق كله سيراً ، يستجدون طعامهم ويعيشون أكثر الوقت على الخبز والماء . ولكنهم كانوا يترنمون بالمزامير في سعادة وهم ماضون في رحلتهم ، وكأنهم علمون بأن فثتهم هذه الصغيرة ستنبثق منها منظمة قوية رائعة .

٥ - اليسوعيون

فلما أن بلغوا روما لم يلتمسوا المثلول بين يدي البابا من فورهم ، لأن بولس الثالث كان غارقاً في الدبلوماسية الحرجة . لذلك تطوعوا بالخدمة في المستشفى الأسباني ، وعنوا بالمرضى ، وعلموا الصغار . وفي مطلع عام ١٥٣٨ استقبلهم بولس ، وأثرت فيه رغبتهم في الذهاب إلى فلسطين والعيش فيها رهباناً مثاليين . وأسهم هو وبعض الكرادلة بمبلغ ٢١٠ كراونا (٥ - ٢٥٠ دولاراً ؟) في نفقات رحلة الفرقة . ولما اضطر النساك إلى التخلي عن الفكرة لاستحالة تنفيذها ردوا المال إلى واهبيه (٣٦) . واستدعى من ظل من الأعضاء في الشمال إلى روما ، فبلغ عدد الجماعة الآن أحد عشر عضواً . وعين البابا بولس فافر ولاينيز أستاذين في السابينا (جامعة روما) . في حين انقطع إجناتيوس والباكون لأعمال البر والتعليم . ونظم لويولا بعثة خاصة لهداية المومسات ، وأسس بتبرعات مؤيديه « بيت مرثا » لاستقبال هؤلاء النسوة ، وقد أثار عداء الكثيرين له في روما بمواعظه الحماسية التي هاجم فيها الخطايا الجنسية .

وأصبح من المرغوب فيه تحديد مبادئ الفرقة وقانونها نظراً إلى انضمام أعضاء جدد إليها . وأضيف نذر الطاعة إلى نذرى العفة والفقر ، واشترط طاعة « القائد » الذي يختارونه طاعة ليس فوقها إلا الطاعة للبابا فقط . ثم نذر رابع « بخدمة بابا روما باعتباره خليفة الله على الأرض ، و « بالتنفيذ

الفورى الذى لا تردد فيه ولا اعتذار لكل ما يأمرهم به البابا الحاكم أو خلفاؤه لفائدة النفوس أو لنشر الإيمان « فى أى مكان فى العالم . وفى عام ١٥٣٩ طلب لويولا إلى الكردينال كونتاريني أن يرفع إلى البابا بولس الثالث مواد التنظيم هذه ، وأن يلتمس تثبيتته للفرقة باعتبارها طريقة دينية جديدة . وكان البابا ميالا إلى الموافقة ، وخالفه بعض الكرادلة لأنهم رأوا فى الجماعة نفراً من الغلاة الذين تستعصى سياستهم ، ولكن بولس تغلب على اعتراضاتهم ، وبمقتضى المرسوم البابوى المسمى « لأجل تنظيم الكنيسة المجاهدة » أنشأ رسمياً ما سماه المرسوم « جماعة يسوع » (٢٧ سبتمبر ١٥٤٠) . وسمى أعضاؤها اسماً مناسباً هو « الاكليريكيون النظاميون فى جماعة يسوع » . ولم يظهر اسم « الجزويت » إلا عام ١٥٤٤ ، وكان آنئذ لفظ هجو قبل كل شيء ، استعمله كالفن وغيره من النقاد^(٢٧) ، ولم يستعمله قعد إجناتيوس نفسه . وبعد موته استل نجاح الطريقة الدينية الجديدة من اللفظ حمته القديمة ، فأصبح فى القرن السادس عشر شارة شرف .

وفى ١٧ أبريل ١٥٤١ انتخب إجناتيوس قائداً . وظل عدة أيام بعد انتخابه يغسل الأطباق ويؤدى أحقر الأعمال^(٢٨) . وقد جعل مقامه روما فيما بقى من عمره (وكان الآن فى الخمسين) ، وأصبحت المدينة المقر الدائم للجماعة . وبعد طول التفكير والتجربة ، وضع « دساتير » الجماعة بين عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٢ ، وهى بتغييرات طفيفة قانون الجزويت اليوم . وقد نص على أن توضع سلطة الطريقة النهائية فى أيدي الأعضاء « المندورين » نذراً كاملاً . ويختار هؤلاء مندوبين من كل إقليم ، وهؤلاء المندوبون — هم والرؤساء الإقليميون ، والقائد ، ومعاونوه — يؤلفون « المجمع العام » . وينتخب هذا المجمع قائداً جديداً إذا لزم الأمر ، ثم يفوض إليه سلطته ما لم يقترب ذنباً خطيراً . وقد أعطى « ناصحاً » ، وأربعة مساعدين . يراقبون كل أعماله ، ويحذرونه من أى خطأ جسيم ، ويدعون المجمع العام لخلعه إذا اقتضى الأمر .

ويتعين على طالبى عضوية الجماعة أن يقضوا فترة اختبار من عامين ،
يدرّبون خلالها على هدف الجماعة ونظامها : ويمارسون الرياضة الروحية ،
ويؤدّون الأشغال الحثيرة ، ويخضعون لرؤساء فى « طاعة مقدسة » مطلقة .
وعليهم أن يتخلّوا عن إرادتهم الفردية : ويرتضوا أن يؤمّروا كما يؤمر
الجند . وينقلوا « كأنهم الجثث »^(٣٩) ، وعليهم أن يتعلّموا الإحساس بأنهم
بطاعتهم رؤساءهم إنّما يطيعون الله . ويجب أن يوافقوا على إبلاغ رؤسائهم
أخطاء زملائهم . وعلى ألا يستشعروا أى غضاظة فى أن تبلغ أخطائهم
لرؤسائهم^(٤٠) . لقد كان هذا النظام صارماً ولكن فيه تمييزاً ومرونة ، وقل
أن حطم الإرادة أو قضى على المبادرة . والظاهر أن الاستعداد للطاعة هو
أول خطوة فى تعلم الأمر ، لأن هذا التدريب أخرج العدد الكبير من
الرجال الأكفاء المغامرين .

والذين يطبقون فترة الاختبار القاسية هذه يأخذون على أنفسهم عهداً
« بسيطة » — أى قابلة للسحب — بالفقر والعفة والطاعة ، ويدخّون « الطبقة
الثانية » . وبعض هؤلاء يمتكثون على هذا الوضع إخوة علمانيين ،
وبعضهم « مدرسين مؤهلين » يبتغون القسوسية ، ويدرسون الرياضيات
والآداب القديمة والفلسفة واللاهوت ، ويعلمون فى المدارس والكليات .
أما الذين يجوزون مزيداً من الاختبارات فيدخلون الطبقة الثالثة ، طبقة
« المساعدين المؤهلين » ، وبعض هؤلاء قد يرقّون إلى الطبقة الرابعة — طبقة
« المنذرين » — وكلهم قساوسة يتعهدون خصيصاً بالاضطلاع بأى عمل
أو بعثة يكلفها إليهم البابا . وكان هؤلاء « المنذرون » عادة قلة صغيرة
— لا تتجاوز أحياناً العشر — بين أعضاء الجماعة كلها^(٤١) . وعلى الطبقات
الأربع أن تعيش عيشة مشتركة كالرهبان ، ولكن نظراً إلى واجباتهم
الإدارية والتربوية الكثيرة فقد أعفوا من الالتزام الديرى بتلاوة صلوات
العبادة اليومية السبع ولم يطلب إليهم أى ممارسات نسكية ، وإن جاز

إسداء النصيح لهم إذا اقتضى الأمر . ونص على الاعتدال في الطعام والشراب ؛ دون صوم متشدد ، ويجب أن يحفظ الجسم والعقل جميعاً صالحين لأداء جميع الأعمال . وللعصو أن يحتفظ بحقه في أى أملاك يمتلكها حين دخوله الطريقة ، ولكن كل دخل يأتيه منها يجب أن يعطى للجماعة ، التى تأمل أن تكون الوريثة النهائية . وكل المقتنيات والأنشطة الجزويتية يجب أن تكرر لمجد أعظم ، مجد الله .

لقد ندر أن حملت مؤسسة ما بصمات شخصية واحدة على هذا النحو القاطع . وامتد أجل لويولا سنين أتاحت له تنقيح دساتيره ليصوغ منها نظام رهبنة يعمل بنجاح . وراح من حجرته العارية الصغيرة يقود بسلطان صارم وحذق عظيم حركات جيشه الصغير في كل أرجاء أوروبا وفي كثير من أنحاء العالم الأخرى . وكانت مهمة حكم الجماعة ، وإنشاء وإدارة كليتين وعدة مؤسسات خيرية في روما ، أثقل من أن يحتملها طبعه كلما تقدم به العمر ، فأصبح غاية في الحفاء مع أقرب مرعوسيه ، وإن ظل عطوفاً على الضعفاء^(١٢) . على أنه كان أقسى ما يكون على نفسه . وكثيراً ما كانت وجباته حفنة من البندق وكسرة من الخبز وكأساً من الماء . وكثيراً ما كانت ساعات نومه لا تزيد على أربعة في اليوم ، بل إنه اختزل إلى نصف ساعة في اليوم تلك الفترة التى يخصصها للرؤى والاستنارة السماوية^(١٣) ، ولما مات (١٥٥٦) شعر الكثير من أهل روما أن ربحاً حادة قد توقفت عن الهبوب ، ولعل بعض أتباعه امتزجت مشاعر الحزن عندهم باحساس الراحة . ولم يستطع الناس أن يدركوا بهذه السرعة أن هذا الأسباني الذى لا يقهر سيثبت أنه من أعظم الرجال تأثيراً في التاريخ الحديث .

كانت الجماعة تضم عند موته لإقراية ألف عضو ، منهم نحو خمسة وثلاثين عضواً « منذوراً »^(١٤) . وبعد خلافات أظهرت قدراً كبيراً من إرادة القوة لدى هؤلاء اليسوعيين الذين خالهم الناس محطى الإرادة ، اختير

دييجو لاينيز قائداً (١٥٥٨) ، وقد اعترض بعض النبلاء الأسبان ممن كان لهم شيء من النفوذ في الطريقة على اختياره لأن أسلافه منذ أربعة أجيال كانوا يهوداً . وخاف البابا بولس الرابع أن ينهى الأمر بمنصب قائد الجزويت إلى منافسة البابوية ، لأنه يتولاه ندى الحياة . فأمر بمراجعة دساتير الجماعة لتتصر رياسة القائد على ثلاث سنوات . ولكن بيوس الرابع ألغى الأمر ، وأصبح القائد « البابا الأسود » (كما لقبته الأجيال التالية نسبة إلى رداء الكاهن الأسود) . وما لبثت الطريقة أن ازدادت حجماً وقوة بعد أن انضم إليها فرانسيس بورجيا ، دوق جانديا ، ووهبها ثروته . ويوم أصبح هذا الرجل قائدها الثالث (١٥٦٥) كانت تضم ٣,٥٠٠ عضو يعيشون في ١٣٠ بيتاً في ثمانية عشر إقليماً أو دولة .

ولم تكن أوروبا سوى قطاع صغير في نشاطها . فقد أوفدت مبعوثيها إلى الهند والصين واليابان والدنيا الجديدة . وكانوا في أمريكا الشمالية رواداً مغامرين لا تثنيهم المشبطات ، يحتملون كل الكروب والخطوب على أنها عطية من الله . أما في أمريكا الجنوبية فقد جاهدوا كما لم تجاهد أى جماعة أخرى لتطوير التعليم والزراعة العلمية . وفي عام ١٥٤١ غادر القديس فرنسيس زافير لشبونة على سفينة برتغالية ، وبعد عام من الرحلة والمعاناة بلغ جوا . وهناك أخذ يمشى في الشوارع رائحاً غادياً وهو يقرع ناقوساً يدعو الناس للاستماع إليه . فلما التفوا حوله بسط لهم العقيدة المسيحية بكل إخلاص وبلاغة ، ثم أوضح الخلق المسيحي عملياً يشاركته في عيشه أفقر المستمعين إليه مشاركة مغتبطة ، حتى استطاع أن يحول إلى المسيحية آلاف الهندوس والمسلمين ، بل إنه أقنع بالإيمان بعض المسيحيين البرتغاليين المغتربين الذين قست الشدائد قلوبهم . ولعل إبراءه المرضى راجع إلى الثقة التي بثها فيهم أو إلى معرفته العارضة بالطب ، وقد نسبت إليه المعجزات فيما بعد . ولكنه لم يدع لنفسه واحدة منها . أما المرسوم

البابوى الذى سلكه فى زمرة القديسين (١٦٢٢) ، فقد نسب إليه « موهبة الألسن » — أى القدرة على التحدث بأى لغة عند الحاجة ، ولكن الحقيقة أن هذا القديس البطل كان لغوياً ضعيفاً ينفق الساعات الطويلة فى حفظ المواعظ بالتأملية أو الملاوية أو اليابانية ، وكان إيمانه أحياناً أشد من أن تسايه إنسانيته ، فقد حث يوحنا الثالث ملك البرتغال على إنشاء محكمة للتفتيش فى جوا (٤٦)، وأوصى بالألا يرسم للقوسية أى هندوسى ما لم ينحدر من أجيال عدة من الأسلاف المسيحيين ، ولم يكن يطبق فكرة اعتراف برتغالى لقسيس وطنى (٤٧) . وأخيراً غادر جوا لأنها بلد تتعدد فيه اللغات تعدداً لا يعينه على تحقيق أهدافه . قال « أريد أن أكون حيث لا يوجد مسلمون ولا يهود . أعطونى وثنين خالصاً » (٤٨) — فلقد أحس أن الوثنيين أطوع إيماناً لأنهم أقل رسوخاً فى دين آخر . وفى عام ١٥٤٩ قصد اليابان ، ودرس اليابانية فى طريقه إليها . ولما رسا فى كاجوشيا ، راح هو وزملاؤه يبشرون فى الشوارع والناس يستمعون إليهم فى أدب . وبعد عامين عاد إلى جوا ، وقوم خللا ظهر بين المسيحيين هناك ، ثم أبحر ليبشر الصين (١٥٥٢) . وبعد عناء شديد نزل جزيرة تشانج — تشوين ، أسفل مصب نهر كانتون . وكان إمبراطور الصين قد قرر اعتبار دخول أوربى للصين جريمة كبرى ، ومع ذلك ما كان هذا ليثنى عزم زافير لو أنه وجد وسيلة للانتقال . وخلال انتظاره بمرض ، ثم فارق الحياة فى ٢ ديسمبر ١٥٥٢ وهو يبكى قائلا « فيك يا رب رجائى ، فلا تجعلى ملعوناً إلى الأبد » (٤٩) . وكان إذ ذاك فى السادسة والأربعين .

وقد تفانى اليسوعيون فى عملهم فى أوربا تفانيهم فى البعثات الأجنبية . هلزموا أماكنهم وعنوا بالمرضى فى فترات تفشى الطاعون (٥٨) . وبشرو كل الطبقات ، وكيفوا لغتهم وفق كل موقف . وجعلهم تعليمهم الممتاز وطباعهم المهذبة آباء الاعتراف المفضلين عند النساء والنبلاء ، ثم عند

الملوك . وشاركوا في شئون الدنيا بنشاط ولكن بحكمة ولباقة ، وقد نصحهم إيجنتيوس بأن قسطاً أكبر من الحكمة وأقل من التقوى خير من قدر أكبر من التقوى وأقل من الحكمة (٥١) . وكانوا عادة رجالا على خلق عظيم ، أما الأخطاء التي رموا بها في فترة لاحقة فلم تكد تظهر في العصر الذي نحن بصددده (٥٢) . ومع أنهم وافقوا جماعة على محكمة التفتيش (٥٣) ، فإنهم وقفوا على مبعده منها ، مؤثرين أداء رسالتهم عن طريق التعليم . وقد اضطرتهم قلة عددهم إلى ترك تعليم الأطفال لغيرهم ، أما هم فركزوا جهودهم على التعليم الثانوى ، وإذا وجدوا أن الجامعات قد سبقتهم في الهيمنة عليها طرق دينية أخرى أو السلطة الزمنية أو رجال الدين البروتستنت ، فقد نظموا لهم كليات خاصة ، وحاولوا تدريب شبان مثقفين . ليكونوا مراكز للتأثير في الجيل التالى . وهكذا أصبحوا أعظم المربين في زمانهم .

لقد أنشأوا في نقط هامة في أوروبا معاهد دنيا — تقابل الجامعات الألمانية والليسيه الفرنسية — وكليات عليا . واستطاعوا أحيانا أن يتسلموا جامعات موجودة فعلا كما حدث في كواميرا ولوفان . وروعوا منافسهم بتعليمهم التلاميذ مجانا . وأكبر الظن أن منهج الدراسة الذى وضعوه يدين بالفضل للمدارس التى أنشأها في هولنده وألمانيا «إخوان الحياة المشتركة» ، ولجمنازيوم شتورم في ستراسبورج ، ولأكاديميات ألمانيا وإيطاليا الإنسانية . وكان هذا المنهج يقوم على الآداب القديمة ويدرس باللاتينية ، أما استعمال اللغة القومية فمحظور على الطلبة إلا في العطلات (٥٤) ، وأعيدت دراسة الفلسفة الكلامية في الفرق العليا . وزيد الاهتمام بترية الخلق — أى الفضائل والعادات — وربط من جديد بين هذه الترية وبين العقيدة الدينية ، وغرس الإيمان التقليدى في التلاميذ ، فأشربهم نظام من الصلاة ، والتأمل ، والاعتراف ، والتناول ، والقداس ، واللاهوت ، سلامة في العقيدة قل معها من انحرف منهم في القرن السادس عشر عن هذا السبيل

المطروق . وردت الدراسات الإنسانية من الوثنية إلى المسيحية . على أن هذا النظام كانت فيه مأخذ خطيرة ، فهو مفرط في الاعتماد على الذاكرة ، مشط للأصالة ، ناقص في العلوم كغيره من مناهج ذلك العهد ، وقد نقى التاريخ تحقيقاً للهيمنة على الحاضر . ومع ذلك فأننا نجد مفكراً ذا نزعة استقلالية قوية مثل فرانسس بيكن يبادر إلى القول في مدارس اليسوعيين ، « وددت لو كانت هذه المدارس مدارسنا ولو بوضعها الراهن » (٥٥) . وسرى في القرنين التاليين أن خريجها سبرزون في كل مناحي الحياة تقريباً عدا البحث العلمي .

وقبيل وفاة لويولا كان هناك مائة كلية يسوعية . وبفضل التعليم والدبلوماسية والتفاني في العمل ، وبفضل الحماسة التي يضبطها النظام ، وبفضل التنسيق بين الأهداف والتوزيع البارع في الوسائل ، أفاح الجزويت في صد المد البروتستنتي ، واستردوا للكنيسة جانباً كبيراً من ألمانيا ، ومعظم البحر وبوهيميا ، وكل بولنده المسيحية . ونذر أن حققت جماعة بمثل هذا الحجم الصغير ، مثل هذا النجاح الكبير ، بمثل هذه السرعة الفائقة . ومضت سمعتها ونفوذها ينموان العام بعد العام ، إلى أن اعترف بعد عشرين عاماً من تأسيسها الرسمي بأنها أروع نتاج للإصلاح الكاثوليكي . ويوم اجترأت الكنيسة في نهاية المطاف على دعوة ذلك الجمع العام الذي طال ارتقاب أوروبا له ليهديء صراعها اللاهوتي ويبرئ جراحها الدينية ، كانت حفنة من الجزويت — بثقافتهم ، وولانهم ، وحصافتهم ، وسعة حيلتهم ، وبلاغتهم — هي التي ناط بها البابوات مهمة الدفاع عن سلطتهم المتحداه ، والمحافظة على الإيمان القديم كاملاً غير منقوص .

الفصل التاسع والثلاثون

البابوات والمجمع

١٥١٧ - ٦٥

١ - البابوات يكرهون على الدفاع

لقد أرجأنا إلى آخر هذا المجلد هذه المهمة الشاقة على كاتب غير كاثوليكي ، مهمة فهم رد فعل البابوات للتحدى الذى واجههم به الإصلاح البروتستنتى ، ثم وصفه فى غير ميل ولا تحيز .

لقد كان رد الفعل أول الأمر دهشة متألمة . ولا عجب ، فبابوات فترة الإصلاح البروتستنتى ، ربما باستثناء واحد ، كانوا رجالا طيبين ، على قدر ما يتاح لرجال دولة أن يكونوا ، لا مجردين من حب الذات أو خالين من الخطايا ، بل فى جوهرهم مهذبين رحماء أذكىاء ، مقتنعين فى إخلاص بأن الكنيسة مؤسسة ليست رائعة فى إنجازاتها فحسب ، ولكنها ما زالت ضرورة لا غنى عنها لصحة الإنسان الأوروبى الخلقية وسلامه النفسى . وإذا سلمنا بأن خدام الكنيسة البشريين قد سقطوا فى رذائل خطيرة ، أفلا نجد عيوباً كهذه أو شراً منها فى كل إدارة علمانية ؟ وإذا كننا نحجم عن الإطاحة بالحكومة المدنية عقاباً لها على جشع أمرائها واختلاسات موظفيها ، فهل يكون إحجامنا أقل عن هدم كنيسة ظلت ألف سنة الأم التى غدت الحضارة الأوربية بالدين والتعليم والأدب والفلسفة والفن ؟ . وأى ضير فى أن تبدو بعض العقائد التى روى أنها معوان على النهوض بالفضيلة والنظام عسيرة الخضم على المؤرخ أو الفيلسوف - وهلى

التعاليم التي يقترحها البروتستنت أكثر منطقاً أو أسهل تصديقاً إلى الحد الذي يبرر أن تقلب أوربا رأساً على عقب بسبب هذا الخلاف ؟ . إن التعاليم الدينية على أية حال لا يحددها منطق القلة بل حاجات الكثرة ، إنها إطار للعقيدة يمكن في نطاقه تنشئة الإنسان العادى الميال بطبيعته إلى ارتكاب عشرات الأفعال غير الاجتماعية . ليكون مخلوقاً يملك من الدرجة وضبط النفس ما يكفي لجعل المجتمع والحضارة أمراً ممكناً . ولو أن هذا الإطار حطم . لكان لزماً بناء إطار آخر ، ربما بعد قرون من الفوضى الخلقية والمادية . . . أليس دعاة الإصلاح البروتستنتى متفقين مع الكنيسة على أنه لا جدوى من الدستور الخلقى ما لم يعززه الإيمان الدينى ؟ أما الطبقات المفكرة فهل تراها حققت أى مزيد من الحرية أو السعادة تحت إمرة الأمراء البروتستنت عنها تحت إمرة البابوات الكاثوليك (*) ؟ ألم يزدهر الفن تحت زعامة الكنيسة ، وألا يذوى تحت خصومة المصلحين البروتستنت الذين أرادوا أن ينتزعوا من الناس تلك الصور التى تغذو ما فى حياتهم من شعر وأمل ؟ وأى مبررات قاهرة تدعو فى رأى العقول الناضجة إلى تفتيت العالم المسيحى إلى مذاهب لا تحصى ، متنازعة ، مبطل بعضها للبعض ، عاجزة بمفردها أمام غرائز البشر ؟ .

إننا لا نستطيع أن نعرف هل كانت هذه مشاعر البابوات المعاصرين لحركة الإصلاح البروتستنتى ، لأن القادة النشطين قلما يذيعون على الناس فلسفاتهم . ولكن لنا أن نتصور الموقف النفسى للبابا ليو العاشر (١٥١٣ — ٢١) على هذا النحو ، إذ وجد البابوية تهتز تحت قدمية بمجرد أن دعى للاستمتاع بها . كان رجلاً يشبه الكثيرين منا — مذهب بالحطيثة وبالإهمال

(*) يقول قائد من أقوى وأعلم نقاد الكنيسة « قبل ان تطلب ثورة لوثر كانت كل أرجاء أوروبا الكاثوليكية تتمتع بمقدر كبير من حرية الفكر والكلام » . « هنرى ل ، تاريخ محكمة التفتيش فى أسبانيا ، ص ٤١١ الجزء الثالث .

الإجرامى ، ولكنه فى جملته جدير بالصفح عنه . كان عادة أطف الناس وأكثرهم عطفاً ، عليه رزق نصف شعراء روما ، ومع ذلك فقد لاحق مهرطقى بريشا حتى الموت ، وحاول أن يؤمن بأن الأفكار الممزقة للكنيسة يمكن أن تنتزع من البشر بحرق أصحابها . وقد أظهر من الحلم مع لوثر قصارى ما ينتظر من بابا ومن عضو فى أسرة مديتشي ، ولنتصور أن الوضع انعكس ، وكيف كان البابا مارتين يمحى المتمرد ليو محقاً ! لقد حسب ليو حركة الإصلاح البروتستنتى نزاعاً غير مهذب بين رهبان أجلاف . ومع ذلك فى بواكير عام ١٥١٧ ، وفى بداية رياسته البابوية ، ألقى جيانفرانشسكو بيكوى ديلا ميراندولا (ابن أخى بيكوى الأشهر منه) أمام البابا والكرادلة خطاباً يسترعى الاهتمام « يرسم فيه بأحلك الألوان ذلك الفساد الذى تسلل إلى الكنيسة » ويتنبأ بأنه « لو أن ليو . . . أبى إبراء الجراح ، فانه يخشى أن الله نفسه لن يستعمل بعد اليوم علاجاً بطيئاً ، بل سيتر ويبيد الأعضاء المريضة بالنار والسيف » (١) . ولكن ليو انصرف على الرغم من هذا الإنذار إلى الاحتفاظ بتوازن للقوى بين فرنسا والإمبراطورية حماية للولايات البابوية . يقول مؤرخ كاثوليكي : « لم يفكر قط فى إصلاح على النطاق الواسع الذى أصبح ضرورياً . . . وظلت الإدارة البابوية فى روما دنيوية شأنها فى أى وقت مضى » (٢) .

وخير برهان على أنه لم يعد سبيل إلى الإصلاح إلا أن يأتى بضربة من الخارج هو إخفاق أدريان السادس (١٥٢٢ - ٢٣) . ذلك أنه سلم بهذه المفسد واضطلع باصلاحها فى القمة ، ولكن أهل روما سخروا منه وسبوه لأنه يهدد مواردهم من ذهب الأقطار الواقعة وراء الألب . وبعد عامين من النضال ضد هذه الأنانية الجاهلة مات أدريان قهراً .

يبد أن العاصفة المتجمعة تفجرت على رأس كلمنت السابع (١٥٢٣ - ٣٤) . لقد كان من خيرة البابوات فكراً وخلقاً ، رحيماً كريماً ، دافع عن اليهود المطاردين ، ولم يشارك فى الانحلال الجنسى أو المالى المحيط به ،

وواصل إلى نهاية حياته المضطربة تغذية الفن والأدب الإيطاليين برعايته الذكية المميزة . ولعل ما حظى به من تعليم رفيع حال بينه وبين أن يكون إدارياً ناجحاً ، وكان في ذكائه من الحدة ما أتاح له رؤية المبررات الحسنة لكل مسلك في كل أزمة : وأوهن علمه من شجاعته ، وأغضبت ذبذباته الدولة تلو الدولة . على أننا لا نملك إلا التعاطف مع رجل توافر له حسن النية الشديد . رجل رأى روما تنهب تحت بصره ، ورأى نفسه يحين غوغاء وإمبراطور : رجل منعه ذلك الإمبراطور من محاولة الوصول إلى صلح معقول مع هنرى الثامن ؛ رجل أكره على أن يختار بين أمرين أحلاهما مر ، أن يخسر إما هنرى وإنجلترا ، وإما شارل وألمانيا ؛ رجل قيل له حين احتج على تحالف فرنسوا مع العثمانيين ، والقائل هو ذلك الملك . « المسيحي جداً » . إنه إذا بدر منه مزيد من الاحتجاج فان فرنسا ستطلق البابوية . إن أحداً من البابوات لم يتجرع مثله كأس المنصب حتى هذه المرة .

وكانت أخطاؤه وبيلة . فهو حين أساء تقدير خلق شارل وموارده ، وبهذا شجع على « نهب روما » أصاب البابوية بلطمة شجعت شمال ألمانيا على نبذ الولاء لروما . وحين توج الرجل الذي أذن بذلك الهجوم فقد احترام العالم ، حتى العالم الكاثوليكي . وقد أذعن لشارل من جهة لافتقاره إلى القوة المادية اللازمة للمقاومة ، ومن جهة أخرى لخشيته من أن إمبراطوراً أقصاه البابا عن وده قد يدعو مجمعاً عاماً من العلمانيين ومن رجال الدين ، ويمسك بزمام السلطين الكنسية والزمينية جميعاً . ويتم إخضاع الكنيسة للدولة المتمردة ، بل ربما يخلعه باعتباره ابناً غير شرعي^(٣) . ولوأ تبحث لكلمنت الشجاعة التي أبداها عمه لورنزو مديتشي في نابلي عام ١٤٧٩ ، لبادر بدعوة مجمع قد يوفق تحت قيادته المتحررة في إصلاح أخلاقيات الكنيسة وتعاليمها ، وفي إنقاذ وحدة العالم المسيحي الغربي .

أما خليفته فقد بدا لأول وهلة حائراً على جميع شروط الذكاء والخلق .
وأقر الجميع بأن أليساندرو فارنيزى ، الذى اتخذ اسم بولس الثالث ،
هو الرجل الصالح لأرفع منصب فى العالم المسيحى ، فقد ولد فى أسرة
غنية مثقفة ، وتعلم الآداب القديمة على يد بومبونيوس لايتوس ، ونضج
أديباً إنسانياً وسط أسرة مديتشى بفلورنسة ، وقربه بابا أوقعته أخته من
قبل فى شباك شعرها الذهبى ، ورسم كردهينالا فى الخامسة والعشرين
(١٤٩٣) ، وأثبت كفايته فى مهام دبلوماسية عسيرة ، وارتقى إلى مقام
مرموق وغير منازع فى مجمع الكرادلة ، ثم انتخب للبابوية بالإجماع فى
عام ١٥٣٤ . ولم ينل من قدره كثيراً لإنجابه أربعة أبناء قبل أن يرسم
قسيساً فى عام ١٥١٩ ، ومع ذلك فقد ظهر فى خلقه ، كما ظهر فى مجرى حياته
العملية . تقلب وتناقضات ، وبعض هذا راجع لأنه وقف كعمود مهزوز
بين النهضة التى أحبا وبين حركة إصلاح بروتستنتى لم يستطع فهمها
أو اغتفارها . ومع أنه كان رقيق البدن ، فقد سلخ خمسة عشر عاماً من
الزعارع السياسية والدأخلية . ومع أنه تزود بكل ثقافة عصره ، فانه كان
يلجأ بانتظام إلى المنجمين ليحددوا له أكثر الساعات مواتاة لرحلاته
أو قراراته بل ومقابلاته (٤) . ومع أنه كان رجلاً شديد الحساسية ، ميالا
بين الحين والحين إلى نوبات الغضب ، فقد كان معروفاً بضبطه لنفسه .
وقد وصفه تشللىنى — الذى اضطر لإيداعه السجن — بأنه رجل « لا إيمان
له بالله ولا بغيره » (٥) . وهذا يبدو غلوأ فى الحكم عليه ، فاما من شك فى أن
بولس كان يؤمن بنفسه ، إلى أن أضعف مسلك ذريته فى سنوات عمره
الأخيرة إرادة الحياة فيه . وقد عوقب حيث أثم ، فقد أعاد محابة الأقرباء
اللى كانت طابع بابوية عصر النهضة ، وأعطى بياتشنزا وبارما لولده
بيرلويجى ، وكاميرينو لحفيده أوتافيو ، وخلع القبة الحمراء على ابنى
أخيه البالغين من العمر أربعة عشر وسبعة عشر عاماً ورقاهما على الرغم

مما ذاع عنهما من فساد خلق . لقد كان يملك شخصية بلا خلق ، وذكاء بلا حكمة .

وقد اعترف بعدالة النقد الذي وجهه دعاة الإصلاح البروتستنتي إلى إدارة الكنيسة ، ولو كان الإصلاح الكنسي هو العقبة الوحيدة في سبيل المصالحة لحاز أن ينهى حركة الإصلاح هذه . ففي عام ١٥٥٣ أوفد بيير باولو فرجيرو ليسبر القادة البروتستنت حول حضورهم مجتمعاً عاماً ، ولكنه أنى أن يعد بالسماح بأي تغيير جوهرى في العقيدة المعروفة أو في سلطة البابوات . وعاد فرجيرو من ألمانيا بخفى حزين ، فقد أبلغ البابا أن الكاثوليك هناك انضموا إلى البروتستنت في التشكك في إخلاص البابا في اقتراح عقد المجمع (٦) ، وأن الأرشيديوق فرديناند شكاً من أنه لا يستطيع العثور على أب اعتراف لم يكن زانياً أو سكيراً أو جهولاً (٧) . وكرر بولس المحاولة في عام ١٥٣٦ ، وكلف بيتر فان در فورست أن يتفق مع اللوثرين على شروط عقد مجمع ، ولكن ناخب سكسونيا صد بيتر فلم يظفر بشيء . وأخيراً بذل بولس قصارى جهد الكنيسة في الوصول إلى تفاهم مع ناقدتها ، فأرسل إلى مؤتمر براتسبون الكردينال جاسبارو كونتاريني ، وكان رجلاً لا يتطرق الشك إلى إخلاصه في الحركة الكاثوليكية الداعية للإصلاح .

ونحن لا نملك غير العطف على الكردينال الشيخ الذى اقتحم ثلوج الأبنين والألب في فبراير ومارس ١٥٤١ وهو يتوق لتتويج حياته بتنظيم السلام الدينى . وقد تأثر كل من كان في راتسبون بتواضعه ، وبساطته ، وحسن نيته . وقد توسط في صبر القديسين بين الكاثوليك وإيك وفلوج وجروبر ، والبروتستنت ملانكتون وبوكر وبيستوريوس . وأمكن التوصل إلى اتفاق حول الخطية الأصلية ، والإرادة الحرة ، والعماد ، والتثبيت ، والرسامة . وفي ٣ مايو كتب كونتاريني إلى الكردينال فا، نيزى مغتبطاً

« حمداً لله ، بالأمس وصل اللاهوتيون الكاثولوليك والبروتستنت إلى اتفاق حول عقيدة التبشير » ، ولكن لم يتيسر الوصول إلى حل وسط مقبول حول سر القربان ، فقد أبى البروتستنت الاعتراف بأن في استطاعة قسيس أن يحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وشعر الكاثوليك أن التخلي عن عقيدة التحول هذه معناه التخلي عن صميم القداس وطقوس كنيسة روما . وقفل كونتاريني عائداً إلى روما وقد أضناه الإخفاق والحزن ، ليدمغه أتباع الكردينال كارافا المترمتين في الكتلثة التقليدية بتهمة اللوثرية . ولم يفصح بولس نفسه عن استطاعته قبول الصيغ التي وقع عليها كونتاريني ، على أنه استقبله استقبالا ودياً وعينه ممثلاً للبابا في بولونيا . وهناك مات بعد وصوله بخمسة أشهر .

وأصبحت سنياسة الدين أشد اكفهراراً واختلاطاً . وتساءل بولس ألا يظفر الإمبراطور شارل الخامس من وراء تصالح البروتستنت مع الكنيسة بدولة ألمانية موحدة ، يسود السلام ربوعها ، بحيث تطلق يده في أن يولى وجهه صوب الجنوب ، ويربط أملاكه في شمالي وجنوبي إيطاليا بالاستيلاء على الولايات البابوية والقضاء على سلطة البابوات الزمنية ؟ أما فرنسوا الأول فانه لحشيته أيضاً من تهدة ألمانيا آتهم كونتاريني بالاستسلام المخزى للمهرطقين ، وتعهد بتأييد بولس تأييداً كاملاً إن هو رفض في حزم مصالحة اللوثرين^(٨) - الذين كان فرنسوا يسعى إلى التحالف معهم - ويبدو أن رأى بولس استقر على أن التفاهم الديني سيكون مجلبة خراب سياسي . وفي عام ١٥٣٨ استطاع بالدبلوماسية البارعة أن يقنع شارل وفرنسوا بتوقيع هدنة في نيس ، ولما أمن شر شارل في الغرب على لما النحو حرضه على الهجوم على اللوثرين . وحين قارب شارل الانتصار ١٥٤٦ سحب بولس الفرقة البابوية التي كان قد أرسلها إليه ، لأنه هناصاً أي ارتعد فرقاً من أن يكون في خلاص الإمبراطور من وجود

مشكلة بروتستنتية في مؤخرته ما يغريه باخضاع إيطاليا كلها لسلطانه وأصبح البابا بروتستنتياً مؤقتاً، ونظر إلى اللوثرية كأنها حامية للبابوية — تماماً كما كان سليمان القانوني حامياً للوثرية . وفي هذه الأثناء كان فرنسوا الأول — درعه الثاني ضد شارل — يحالف العثمانيين الذين هددوا المرة بعد المرة بغزو إيطاليا والهجوم على روما . ولعلنا نغتفر بعض هذا التذبذب لبابا أرهقه الحصار وأحدثت به المشكلات على هذا النحو ، وما من عدة لديه غير حفنة من الجند ، ولا دفاع غير إيمان لا يعمر فيما يبدو إلا قلوب الضعفاء . وفي وسعنا أن ندرك ضآلة الدور الذي لعبه الدين في هذه الصراعات على القوة حين نسمع تعليق شارل للسفير البابوي إذ علم أن بولس حول وجهه شطر فرنسا : قال الإمبراطور إن البابا أصابته في شيخوخته عدوى مرض يصيب الناس عادة في شبابهم ، هو المرض الفرنسي (٩) .

ولم يصد بولس البروتستنتية ولا أدخل أى إصلاحات جوهرية ، ولكنه نفخ الحياة في البابوية ورد لها عظمتها ونفوذها ، وظل إلى النهاية واحداً من بابوات النهضة . فقد شجع جهود ميكلانجلو وغيره من الفنانين وأمدهم بالمال ، وجعل روما المباني الحديدية ، وزين الفاتيكان بـ « الصالاريجيا » و « الكابيلا باولينا » ، وشارك في حفلات الاستقبال الفخمة ، ورحب بالحميلات من النساء على مائدته ، واستقبل الموسيقيين والمهرجين والمغنيات والراقصات في بلاطه (١٠) ، وحتى في ثمانيناته لم يكن سليل فارنيزي هذا ليفسد اللعبة على لاعبيه . وقد نقله لنا تيشان في سلسلة من اللوحات القوية : وفي أفضل هذه اللوحات (المحفوظة بمتحف نابلي) يبدو هذا الحبر الأعظم ، الذى سلخ من عمره خمسة وسبعين عاماً ، محتفظاً بقوته ، على وجهه أنحاديده حفرتها مشكلات الدولة والأسرة ، ولكن رأسه لم ينحن بعد الزمن . وبعد ثلاث سنوات رسم تيشان لوحة لبولس وابنى أخيه أوتافيو

والسندرو (محفوظة هي الأخرى بنابلي) كادت تتنبأ بمصيره ، فالبابا الذى انحنى الآن ظهره ونال منه الأعياء . يبدو فيها وكأنه يستجوب أوتافيو مسترياً فى أمره . ذلك أن بييرلويجي . بن بولس ، اغتيل عام ١٥٤٧ ، وفى عام ١٥٤٨ تمرد أوتافيو على أبيه ، ودخل فى اتفاق مع أعداء بولس ليجعل بارما ولاية إمبراطورية . وأسلم البابا العجوز نفسه للموت (١٥٤٩) بعد أن هزمه حتى أبنائه .

وقد أخطأ خليفته فى تسمية نفسه بيوليوس الثالث (١٥٥٠ - ٥٥) ، إذ لم يكن فيه شئ من فحولة يوليوس الثانى ولا قوته ولا أهدافه الطموحة . بل إنه استأنف أساليب ليو العاشر السهلة الهينة ، واستمتع بالبابوية فى إسراف لطيف ، وكان حركة الإصلاح البروتستانتى ماتت بموت لوثر . فخرج للصيد . واحتفظ بندماء البلاط ، وقامر بمبالغ كبيرة ، ورعى مصارعات الثيران . ورقى لمنصب الكردينالية تابعاً له يعنى بنسبته . وأعطى روما على الحملة آخر رشفة رشفتها من وثنية النهضة سواء فى الأخلاق والفن^(١١) . وقد كلف فينولا وغيره بأن يشيدوا له خارج « البورتا ديل بوبولو » بيتاً جميلاً « فيللا دى بابا جوليو » (١٥٥٣) جعله مركزاً للفنانين والشعراء والاحتفالات . ثم كيف نفسه فى هدوء وفق سياسات شارل الخامس . وشكا القرس فى غير أوانه ، فحاول علاجه بالصوم . ويبدو أن هذا البابا الأبيقورى مات من الزهد فى الطعام^(١٢) ، وقيل من الانغماس فى اللذات^(١٣) .

وجاء البابا مارتشيللوس الثانى ، وكان أقرب إلى القديسين . فحياته الخلقية بلا لوم ، وتقواه عميقة ، واختياره لشاغلي المناصب مثالى ، وجهوده لإصلاح الكنيسة مخلصية ، ولكنه مات فى اليوم الثانى والعشرين من تقلده منصب البابوية (٥ مايو ١٥٥٥) .

وكان الكرادلة أرادوا أن يعلنوا على الملأ أن معارضة الإصلاح

البروتستنتى قد وصلت إلى البابوية ، فقلدوها رجلا كان روح حركة الإصلاح في الكنيسة وصوتها ، وهو الناسك جوفانى بييترو كارافا ، الذى سعى نفسه بولس الرابع (١٥٥٥ — ٥٩) . وكان وقد بلغ التاسعة والسبعين ثابته على آرائه لا يحدد عنها قيد أنملة ، مكرساً نفسه لتنفيذها برسوخ في الإرادة وحدة في العاطفة لا يكادان يناسبان رجلا في سنه . كتب السفير الفلورنسى يقول : « إن البابا رجل قد من حديد ، بل إن الأحجار التى يمشى فوقها تنفث الشر » (١٤) . كان مولده في بينيفنتو ، لذلك حمل حرارة جنوبي إيطاليا في دمه ، وبدت النار دائمة التوقد في مقتلته الغائرتين . وكان في طبعه فورة البركان ، ولم يجرؤ على معارضته سوى السفير الأسباني تدعمه فرق الدوق ألفا . وقد كره بولس الرابع أسبانيا لأنها سيطرت على إيطاليا ، وكما حلم يوليوس الثانى وليو العاشر بطرد الفرنسيين ، كذلك كان أول أهداف هذا الثمانينى النشط تحرير إيطاليا والبابوية من السيادة الأسبانية — الإمبراطورية . فاتهم شارل الخامس بأنه ملحد مقنّع (١٥) ، وابن مجنون لأم مجنونة ، وشخص « كسيح جسداً وروحاً » (١٦) ، ودمغ الشعب الأسباني بأنه حثالة من الساميين (١٧) ، وأقسم أنه لن يعترف بفيليب واليا على ميلان . وفى ديسمبر ١٥٥٥ عقد معاهدة مع هنرى الثانى ملك فرنسا وإيركولى الثانى أمير فرارة لطرد جميع القوات الأسبانية أو الإمبراطورية من إيطاليا ، فإذا تم للحلفاء النصر أخذت البابوية سيينا ، والفرنسيون ميلان ، وحكموا نابلى بوصفها ولاية بابوية ، ووجب عزل شارل وفرديناند لقبولهما شروط البروتستنت فى أوجزبورج (١٨) .

وبمهزلة من هذه المهازل التى يمكن رؤيتها ، ونحن على بعد كاف ، فى مآسى التاريخ ، وجد فيليب الثانى نفسه فى حرب مع البابوية وهو أشد أنصار الكنيسة غيرة وتحمساً . فأمر الدوق ألفا على مضض بأن يزحف بجيش نابولى على الولايات البابوية . ولم تمض أسابيع حتى هزم الدوق

بجنوده المتمرسين بالقتال ، البالغ عددهم ١٠,٠٠٠ ، قوات البابا الضعيفة ، واستولى على المدينة تلو المدينة ، ونهب أناني ، واستولى على أوستيا ، وهدد روما (نوفمبر ١٥٥٦) . وبارك بولس معاهدة بين فرنسا والعثمانيين ، ولحاً وزير خارجيته ، الكردينال كارلو كارافا ، إلى سليمان القانوني ليهاجم نابلي وصقلية (١٩) . وأرسل هنرى الثانى جيشاً إلى إيطاليا يقوده فرنسوا دوق جيز ، فاستعاد أوستيا ، وهلل البابا ، ولكن هزيمة الفرنسيين فى سان — كنتان أكرهت جيز على العودة برجاله سريعاً إلى فرنسا ، وزحف ألفا على أبواب روما دون مقاومة . وولول أهل روما فرقاً ، وودوا لو أن حبرهم الدينى الطائش كان نزيل قبره (٢٠) ، ورأى بولس أن المزيد من القتال قد يعيد « نهب روما » الرهيب ، بل قد يحمل أسبانيا على الانفصال عن كنيسة روما . لذلك وقع فى ١٢ سبتمبر ١٥٥٧ معاهدة صلح مع ألفا ، الذى عرض شروطاً سخية ، واعتذر عن انتصاره ، ولثم قدم البابا المغلوب (٢١) . وردت إلى البابا جميع أراضيها التى سبق الاستيلاء عليها ، ولكن السيادة الأسبانية على نابلي وميلان والبابوية تأكدت . وبلغ انتصار الدولة على الكنيسة منتهاه ، حتى أن الأمراء الناحبين هم الذين توجوا فرديناند حين تسلم لقب الإمبراطور من شارل الخامس (١٥٥٨) ، ولم يسمح لأى ممثل للبابا بالقيام بأى دور فى مراسم الاحتفال . وهكذا كانت نهاية تتويج البابوات لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وتحقق آخر المطاف انتصار شارلمان فى خلافه مع ليو الثالث .

والآن وقد تخفف بولس الرابع طوعاً أوكرها من أعباء الحرب ، فانه فرغ فيما بقى له من فترة بابويته للاصلاحات الكنسية والأخلاقية التى ذكرناها من قبل . وقد توجهها بطرد وزيره الإباحى الكردينال كارلو كارافا ، وإن جاء هذا الطرد متأخراً ، وبنى ابنى أخ آخرين من روما ، وكانا قد شوها سمعة بابويته . وأجليت عن الفاتيكان أخيراً سبة محاباة الأقرباء التى استشرت فيه قرناً من الزمان .

٢ — الرقابة ومحكمة التفتيش

وهذا البابا الحديدي هو الذي بلغت رقابة المطبوعات في عهده غاية الصرامة واتساع المدى ، وأصبحت محكمة التفتيش ضرباً من الإرهاب كادت تبلغ وحشيته في روما ما بلغته في أسبانيا . ولعل بولس الرابع شعر بأن رقابة المطبوعات وقمع الهرطقة واجبان لا مندوحة عنهما لكنيسة أجمع الرأي البروتستنتي والكاثوليكي على أن مؤسسها هو ابن الله . لأنه إذا كانت الكنيسة من الله ، فخصومها إذن لا بد عملاء للشيطان ، والحرب الدائمة على هؤلاء الشياطين التزام ديني قبل إله مهان .

والرقابة قديمة قدم الكنيسة نفسها تقريباً . فالمسيحيون في أفسس أحرقوا في عصر الرسل كتباً في « فنون غريبة » قيل إن قيمتها بلغت « ٥٠,٠٠٠ قطعة من الفضة (٢٢) » ، وحرم مجمع أفسس (١٥٠) تداول « أعمال بولس » (٢٣) غير القانونية . وفي فترات مختلفة أمر البابوات بحرق التلمود أو غيره من كتب اليهود . وحظرت ترجمة ويكيليف وما تلاها من الترجمات البروتستنتية للكتاب المقدس لاحتوائها مقدمات وهوامش وتصحيحات معارضة للكاثوليكية . وزاد اختراع الطباعة من حرص الكنيسة على ألا تفسد أبنائها التعاليم الباطلة . فأمر مجمع اللاتيران الخامس (١٥١٦) ألا تطبع بعده كتب دون أن تفحصها الكنيسة وتوافق عليها . وأصدرت السلطات الزمنية بيانات بمحظوراتها من المطبوعات غير المرخصة : مجلس شيوخ البندقية في ١٥٠٨ ، ومجلس نواب فورمز ومراسيم شارل الخامس وفرنسوا الأول في ١٥٢١ ، وبرلمان باريس في ١٥٤٢ . وفي ١٥٤٣ وسع شارل الرقابة الكنسية على المطبوعات فشملت أمريكا الأسبانية . وفي عام ١٥٤٤ نشرت السوربون أول فهرس عام بالكتب المحرمة ، ونشرت محكمة التفتيش أول قائمة إيطالية في عام ١٥٤٥ .

وفي عام ١٥٥٩ نشر بولس الرابع أول فهرس بابوى بالكتب المحظورة ، وقد ورد فيه ثمان وأربعون طبعة مهرطقة للكتاب المقدس ، وأوقع الحرم على واحد وستين طابعاً وناشراً^(٢٤) . وقد فرض على كل كاثولكى الامتناع عن قراءة أى كتاب نشر منذ سنة ١٥١٩ دون أن يحمل اسمى المؤلف والطابع ومكان النشر وتاريخه ، وحرمت قراءة أى كتاب بعد ذلك لم يحصل على إذن كنسى "imprimatur" بطبعه . وشكا باعة الكتب وطلاب العلم من أن هذه الإجراءات معطلة لهم أو قاضية عليهم ، ولكن بولس أصر على الطاعة التامة . وأحرقت آلاف الكتب فى روما وبولونيا ونابلى وميلان وفلورنسه والبندقية — ١٠,٩٠٠ فى البندقية فى يوم واحد^(٢٥) . وبعد موت بولس انتقد نفر من قادة الكنيسة إجراءاته لما فيها من مغالاة فى العنف وعدم التمييز ، ورفض مجمع ترنت فهرسه ، وأصدر تحريماً أكثر تنظيماً ، هو « الفهرس الثلاثى » (١٥٦٤) . وشكلت لجنة خاصة للفهرس فى ١٥٧١ لمراجعة القائمة وإعادة نشرها بصفة دورية .

ومن العسير الحكم على أثر هذه الرقابة . وعند باولو ساربنى ، وكان راهباً سابقاً ، ومعارضاً للإكليروس ، أن الفهرس « هو أبداع سر كشف إلى الآن . . . لفرض البلاهة على الناس »^(٢٦) . ولعله شارك فى أحداث اضمحلال إيطاليا الفكرى بعد عام ١٦٠٠ ، واضمحلال أسبانيا بعد عام ١٧٠٠ ، ولكن العوامل الاقتصادية والسياسية كانت أهم . والفكر الحر ، كما يقول أقوى مؤرخ إنجليزى له ، عاش فى الدول الكاثوليكية خيراً مما عاش فى الدول البروتستنتية ، وتبين حتى عام ١٧٥٠ أن الحكم المطلق للكتب المقدسة الذى فرضه اللاهوتيون البروتستنت أشد إيذاء للبحث والتفكير المستقلين من فهارس الكنيسة ومحكمة تفتيشها^(٢٧) . أياً كان الأمر فان الحركة الانسانية ذهبت ، فى الدول الكاثوليكية والبروتستنتية على السواء . وخف التأكيد على الحياة فى الأدب ، واضمحلت دراسة اليونانية ومحبة الآداب

الوثنية ، ورمى اللاهوتيون المنتصرون الإنسانيين الإيطاليين (ولهم بعض العذر في هذا) بأنهم كفر متعطرسون فاسقون .

ونفذت الرقابة على الكتب في تراخ حتى وكلها بولس الرابع إلى محكمة التفتيش (١٥٥٥) . وكانت هذه المؤسسة التي أنشئت أولا عام ١٢١٧ قد انتكست سلطتها وسمعتها نتيجة لتساهل بابوات النهضة . ولكن حين أخفقت آخر محاولة للمصالحة مع البروتستنت في راتسبون ، وظهرت التعاليم البروتستنتية في إيطاليا ذاتها ، حتى بين رجال الإكليروس ، وخيف أن تتحول مدن بأسرها مثل لوكا ومودينا إلى البروتستنتية (٢٨) اشترك الكردينال جوفاني كارافا ، وإجناتيوس لويولا ، وشارل الخامس في الإلحاح على إعادة محكمة التفتيش . وأذعن بولس الثالث (١٥٤٢) ، وعين كارافا وخمسة كرادلة آخرين لإعادة تنظيم المؤسسة ، وخول لهم سلطة تفويض كنسيين خاصين في أرجاء العالم المسيحي ، وشرع كارافا في التنفيذ بما عهد فيه من صرامة ، وأنشأ مقرا للمحكمة ومبنا ، ووضع هذه القواعد لمرءوسيه :

- ١ — حين يكون الإيمان موضع شك يجب ألا يكون هناك أى تأجيل ، ولا بد من اتخاذ الإجراءات الصارمة بكل سرعة إذا قامت أقل شبهة .
- ٢ — يجب ألا يكون هناك أى اعتبار لأى أمير أو حبر مهما علا منصبه .
- ٣ — الصرامة المتناهية أولى أن تستعمل مع أولئك الذين يحاولون الاحتماء بأى حاكم . ولا يعامل بالرفق والعطف الأبوى إلا من اعترف اعترافاً كاملاً .

٤ — يجب ألا يحط لإنسان من قدره بابداء التسامح نحو المهرطقين أياً كان نوعهم ، ونحو الكالفنيين على الأخص (٢٩) .

فأما بولس الثالث ومارتشييللوس الثانى فقد قيدا حماسة كارافا ، واحتفظا بحق العفو عند الاستئناف . وأما يوليوس الثالث فكان أوهن من أن يتدخل في عمل كارافا ، فأحرق في عهده نفر من المهرطقين في روما .

وفي عام ١٥٥٠ أمرت محكمة التفتيش الجديدة بمحاكمة أي كاهن كاثوليكي لا يعظ ضد البروتستنتية . فلما ارتبى كارافا نفسه عرش البابوية باسم بولس الرابع ، انطلقت المؤسسة إلى العمل بكل طاقتها . « واكتسبت المحكمة بفضل صرامته الحارقة سمعة واسعة : بحيث لم يكن هناك كرسى قضاء آخر في الأرض يتوقع الناس منه إصدار أحكام أشد بشاعة وإرهاباً » على حد قول الكردينال سيرياندو^(٣٠) . ووسع اختصاص محكمة التفتيش حتى شمل التجديف والمتاجرة بالرتب الكهوتية (السيمونية) ، واللوواط ، والزواج المتعدد ، وهتك العرض ، والقوادة ، وانتهاك نظم الكنيسة في الصوم ، وغير هذه من الذنوب التي لا تمت للهرطقة بسبب . ونحن نسوق أيضاً هذه الفقرة من كلام مؤرخ كاثوليكي عظيم :

« كان البابا العجول السريع التصديق يعير أذنًا صاغية لكل اتهام ولو كان شديد السخف . . . وكان رجال محكمة التفتيش الذين لم يفتروا البابا عن حضهم يشمون الهرطقة في حالات كثيرة ما كان المراقب الهادئ الحذر ليكشف فيها أثراً لهرطقة . . . وحرص الحاسدون والمفترون على بذل الجهد في تسقط الكلمات المريبة من شفاه رجال كانوا عمداً راسخة للكنيسة ضد المبتدعين ، وعلى تلفيق تهم الهرطقة لهم . . . وبدأ عصر لإرهاب فعلى ملأ روما كلها بالخوف »^(٣١) .

وفي قمة هذا العنف (٣١ مايو ١٥٥٧) أمر بولس بالقبض على الكردينال جوفاني موروني ، أسقف مودينا ، وفي ١٤ يونيو أمر الكردينال بولي بأن يتخلى عن سلطة الممثل البابوي في إنجلترا ويحضر إلى روما ليواجه محاكمته بتهمة الهرطقة . وقال البابا إن مجمع الكرادلة نفسه سرت إليه دعوى الهرطقة . أما بولي فقد بسطت عليه الملكة ماري حمايتها ومنعت تسليم الاستدعاء البابوي له . وأما موروني فقد اتهم بأنه وقع اتفاق راتسبون حول عقيدة التبرير بالإيمان ، وبأنه تهاون مع المهرطقين الداخليين في

! نطاق سلطته ، وبأنه كان صديقاً لبولى ، وفتوريا كولونا ، وفلامينيو ، وغيرهم من الشخصيات الخطرة ، وبعد أن قضى ثمانية عشر يوماً سجيناً فى قلعة سانت أنجيلو أصدر قضاة التفتيش حكمهم ببراءته ، وأمروا بالإفراج عنه ، ولكنه أبى أن يبرح زنزانه حتى يقر بولس ببراءته . ولكن بولس رفض ، فظل موروئى سجيناً حتى أطلقه موت البابا . وأما فلامينيو فقد فوت على محكمة التفتيش غرضها بموته ، « ولكننا أحرقتنا أخاه شيزارى فى الميدان المواجه لكنيسة المينرفا » (٢٢) ، كما قال بولس : وراح الحبر المحنون يطارد أقرباءه هو بشبهات الهرطقة فى عناد لا يعرف التحيز . قال « لو أن أبى ذاته كان مهرطقاً لجمعت الخطب لحرقه » (٢٣) .

كان بولس لحسن الحظ بشراً نهايته الموت ، فضى لحسابه . بعد أربع سنوات من الحكم . واحتفلت روما بموته بأربعة أيام من الشغب المرح ، حطمت خلالها الجماهير تمثاله ، وجرت فى الشوارع ، ثم أغرقته فى نهر تير ، وأحرقت مبانى محكمة التفتيش ، وأطلقت سبائها ، وأتلفت وثائقها (٢٤) . ولعل البابا كان يرد على هذا بأنه ما كان فى استطاعة رجل أن يصلح أخلاق روما ومفاسد الكنيسة إلا إذا أوتى صرامته وشجاعته اللتين لا هودة فيهما ، وأنه وفق فى هذه المغامرة بينما أخفق أسلافه . ومن أسف أنه فى محاولته لإصلاح الكنيسة تذكر توركويمادا ونسى المسيح .

وتنفس غرب أوروبا كله الصعداء حين اختار مجمع الكرادلة سنة ١٥٥٩ جوفانى أنجيلو دى مديتشى حبراً أعظم باسم البابا بيوس الرابع . لم يكن مليونيراً مديتشياً ، بل ابن جاب للضرائب ميلانى ، اشتغل بالمحاماة ليكسب قوته ، وظفر بأعجاب بولس الثالث وثقته ، فعين كردينالاً ، واشتهر بالدكاء والميل إلى أعمال البر ، فلما ارتقى عرش البابوية ابتعد عن الحرب ووبخ أولئك الذين كانوا يشيرون بالسياسات العدوانية ، ولم يقض على محكمة التفتيش ، ولكنه أشعر قضائاً بأنهم

« يسرونه أكثر لو ياشروا عملهم بلطف السادة المهذبين لا بجلافة الرهبان » (٣٥). وأراد اغتياله متعصب حسبه مفرطاً في اللين ، ولكنه شل رهبة حين مر به البابا هادئاً مجرداً من أسباب الدفاع . وقد برهن على ما أوتى من روح المصالحة إذ سمح لأساقفة ألمانيا الكاثوليك بمناولة سر القربان بالخبز والخبز كليهما . وأعاد عقد مجمع ترنت ، وقاده إلى خاتمة اتسمت بالنظام ، ثم فارق الحياة عام ١٥٦٥ بعد رئاسة دعمت في هدوء حركة المعارضة للإصلاح البروتستنتي .

٣- مجمع ترنت (١٥٤٥ - ٦٣)

قبل أن يأتي لوثر بزمن طويل ارتفعت مئذات الأصوات مطالبة بعقد مجمع يصلح الكنيسة . وطالب لوثر بعرض نزاعه مع البابا على مجمع عام حر ، وطالب شارل الخامس بعقد مجمع كهذا بأمل نفوذ يده من المشكلة البروتستنتية ، وربما بأمل تأديب البابا كلمنت السابع ، واستطاع ذلك البابا الذي أنهكته الهجمات المتكررة أن يجد مائة عذر لتأجيل مثل هذا المجمع حتى يصبح بعيداً عن متناوله . فقد تذكر ما حدث للسلطة البابوية في مجع كونيستانس وبازل ، وما كان يسمح لأساقفة معادين له ، أو لمندوبي الإمبراطور ، بدس أنوفهم في سياساته أو مصاعبه الداخلية أو مولده . ثم كيف يستطيع مجمع أن ينقذ الموقف ؟ ألم يرفض لوثر الاعتراف بالمجمع كما رفض الاعتراف بالبابوات ؟ ولو قبل البروتستنت في مجمع وسمح لهم بحرية الكلام فإن النزاع الذي سيسفر عنه هذا القبول سيوسع الانشقاق ويزيده مرارة ويزعج أوروبا بأسرها ؛ ولو حيل بينهم وبينه لأثاروا غضب التمرد والعصيان . وأراد شارل أن يعقد المجمع على أرض ألمانية ، ولكن فرنسوا أبى السماح للإكليروس الفرنسي بحضور اجتماع خاضع لسيادة الإمبراطور . يضاف إلى هذا

رغبة فرنسوا في الإبقاء على النيران البروتستنتية مشتعلة في المؤخرة الإمبراطورية . لقد كان الموقف مختلطاً أشد الاختلاط .

فلما جاء بولس الثالث ساورته كل مخاوف كلمنت ، ولكنه كان أشجع منه . ففي عام ١٥٣٦ أصدر دعوة لمجمع عام يجتمع في مانتوا في ٢٣ مايو ١٥٣٧ ، ودعا البروتستنت لحضوره . وافترض أن جميع الأطراف التي ستحضره ستقبل النتائج التي يخلص إليها المجمع ؛ ولكن ما كان للبروتستنت وهم أقلية في مؤتمر كهذا أن يقبلوا مثل هذا الالتزام . وأشار لوثر بعدم الحضور ، ورد مؤتمر البروتستنت المنعقد في شمالكالدين دعوة البابا دون أن يفتحها . وواصل الإمبراطور إصراره على عقد المجمع في أرض ألمانية ، وكانت حجته أنه لو عقد في أرض إيطالية لازدحم بالساقفة الإيطاليين ولأصبح لعبة في يد البابا . وبعد الكثير من المفاوضات والتأجيلات وافق بولس على عقد المجمع في ترنت ، وكانت تقع في أرض إمبراطورية وتخضع لشارل على الرغم من غلبة الإيطاليين على سكانها . ودعى المجمع للانعقاد فيها في أول نوفمبر ١٥٤٢ .

ولكن ملك فرنسا رفض أن يلعب دوره . وأبى نشر دعوة البابا في أرجاء ملكه ، وهدد بالقبض على أي فرد من الإكليروس الفرنسي يحاول حضور مجمع منعقد على أرض عدوه ، فلما افتتح المجمع لم يكن حاضراً سوى بضعة أساقفة كلهم إيطاليون ، وأجل بولس الاجتماع حيناً حتى يسمح شارل وفرنسوا بانعقاد المجمع بكامل عدده . وبدأ أن صلح كريبي قد أزاح العقبات من الطريق ، ودعا بولس إلى عودة انعقاد المجمع في ١٤ مارس ١٥٤٥ . ولكن تجدد الخطر على الإمبراطور من العثمانيين أكرهه ثانية على مصالحة البروتستنت ، فطلب تأجيل المجمع مرة أخرى ، ولم يبدأ « المجمع المسكوني التاسع عشر للكنيسة المسيحية » دوراته النشيطة إلا في ١٣ ديسمبر ١٥٤٥ .

ولكن حتى هذه البداية لم يحالفها التوفيق ، ولم تبلغ قط مبلغ « نصف العمل » . ذلك أن البابا الذى قارب الثمانين ظل فى روما ، يرأس المجمع « غيايياً » ، ولكنه ندب عنه ثلاثة كرادلة يمثلونه : ديل مونتي ، وتشرفيني ، وبولى . وكان قوام المجمع كردينال ترنت مادروزو ، وأربعة رؤساء أساقفة ، وعشرين أسقفاً ، وخمسة من قادة الطرق الديرية ، وبعض رؤساء الأديار ، وبضعة لاهوتيين ؛ ولم يكن فى وسع المجمع حتى ذلك الحين الزعم بأنه « مسكونى » — أى عالمي^(٣٦) . وبينما كان حق التصويت فى مجمعى كونستانس وبازل متاحاً للقساوسة ، والأمراء ، وبعض العلمانيين ، كما كان متاحاً للأساقفة ، وكان التصويت بالمجموعات القومية ، فان هذا الحق قصر هنا على الكرادلة والأساقفة والقواد ورؤساء الأديار ، وكان التصويت بالأفراد ، ومن ثم فان الأساقفة الإيطاليين — وأكثرهم مدين للبابوية أو موال لها لأسباب أخرى — سيطروا على المجمع بأغليبيتهم العديدة . وحضرت اللجان المجتمعة فى روما بإشراف البابا المسائل التى لا يمكن عرض غيرها للمناقشة^(٣٧) . وقد لاحظ مندوب فرنسى أنه ما دام المجمع يزعم بأنه يعمل بإرشاد الروح القدس ، فان الأقنوم الثالث كان يأتى إلى ترنت بانتظام فى حقبة البريد القادمة من روما^(٣٨) .

ودارت أولى المناقشات حول الإجراءات : أمن الواجب البدء بتعريف الإيمان ثم البحث فى الإصلاحات ، أم العكس ؟ فأما البابا ومؤيدوه الإيطاليون فأرادوا البدء بتعريف للعقائد . وأما الإمبراطور ومؤيدوه فأرادوا البدء بالإصلاح ، أملأ من شارل فى تهدة البروتستنت أو إضعافهم أو إحداث مزيد من الانقسام فى صفوفهم ، وأملأ من الأحرار الألمان والأسبان أن تقلل الإصلاحات من سلطة البابا على الأساقفة والمجمع . وقد أمكن الوصول إلى حل وسط ، فاتفق على أن تحضر لجان مترامنة القرارات حول العقيدة والإصلاح ، وتعرض هذه القرارات على المجمع بالتناوب .

وفى مايو ١٥٤٦ أوفد بولس اثنين من اليسوعيين هما لاينيز وسالميرون ليساعدا مندوبيه فى الشؤون اللاهوتية وفى الدفاع عن البابا ؛ ثم انضم إليهما بيتر كانيزيوس وكلود لوجى . وما لبث تفقته اليسوعيين الذى لم يضارعه فى أحد أن أكسبهم نفوذاً طاغياً فى المناقشات ، وقاد إصرارهم على سلامة العقيدة المجمع إلى إعلان الحرب على أفكار الإصلاح البروتستنتى بدلا من التماس التوفيق أو الوحدة . وكان حكم الأغلبية فيما يبدو أن أى تنازلات للبروتستنت لن ترأب الصدع ؛ وأن الملل البروتستنتية تعددت وتنوعت بحيث لا يمكن لأى حل وسط أن يرضى بعضها دون أن يغضب البعض الآخر ، وأن أى تغيير جوهرى فى العقائد التقليدية من شأنه أن يضعف بنيان الكاثوليكية العقائدى واستقرارها كله ؛ وأن السماح للعلمانيين بالسلطات الكهنوتية سيقوض السلطة الأدبية للكهنة والكنيسة ، وأن هذه السلطة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى ؛ وأن لاهوتاً يرتكز بصراحة على الإيمان سيحبط نفسه إذا خضع لأهواء التفكير الفردى . وبناء عليه فإن دورة المجمع الرابعة (أبريل ١٥٤٦) أكدت من جديد كل فقرة من فقرات العقيدة النقية ، وادعت سلطاناً متساوياً لتقليد الكنيسة وللكتاب المقدس ، وأعطت الكنيسة الحق دون غيرها فى شرح الكتاب وتفسيره ، وأعلنت أن ترجمة جيروم اللاتينية هى الترجمة والنص النهائى للكتاب . وتقرر أن القديس توما الأكوينى هو الشارح العمدة للاهوت النقى من الشواثب ، ورفع كتابه « خلاصة اللاهوت » إلى مقام لا يعلوه فيه إلا الكتاب المقدس والمراسيم البابوية (٣٩) . وهكذا نرى أن الكاثوليكية بوصفها ديناً ذا سلطان معصوم بدأت عملياً من مجمع ترنت ، وتبلورت على هيئة استجابة عنيدة لذلك التحدى الذى واجهتها به البروتستنتية ، والعقلانية ، والرأى الفردى . وانتهى بذلك « اتفاق الجنتلمان » بين كتيبة النهضة والطبقات المفكرة .

ولكن إذا كان الإيمان حيويًا إلى هذا الحد . فهل كان أيضاً كافياً في ذاته لاستحقاق الخلاص كما زعم لوثر ؟ لقد ارتفعت في الدورة الخامسة (يونيو ١٥٤٦) مناقشات عنيفة حول هذه النقطة ، وأمسك أحد الأساقفة بلحية آخر وانتزع منها حفنة من الشعر الأبيض ، ولما سمع الأمبرطور بما وقع أرسل إلى المجمع يقول إنه إن لم يهدأ فسيأمر بالقاء نفر من الأساقفة في نهر أدبيج ليهديء نائرتهم^(١٠) . ودافع ريجينالد بولى عن رأى قريب قرباً خطراً من رأى لوثر ، حتى أن الكردينال كارافا (الذى أصبح بولس الرابع فيما بعد) دمغه بالهرطقة ، وانسحب بولى من المعركة قاصداً بادوا ، واعتذر بالمرض عن التخليف عن حضور المجمع^(١١) . ودافع الكردينال سيريباندو عن الصيغة التوفيقية التى عرضها فى راتسبون الكردينال كنونتاينى ، وكان قد مات ، ولكن لاينيز أقنع المجمع بأن يشدد على أهمية الأعمال الصالحة وحرية الإرادة ، معارضاً بذلك لوثر معارضة كاملة .

أما إجراءات الإصلاح الكنسى فكانت حركتها أقل نشاطاً من تعريفات العقيدة . كان أسقف كاتدرائية القديس مرقس قد افتتح دورة ٦ يناير ١٥٤٦ برسمه صورة قائمة للفساد الذى استشرى فى العالم ، والذى لن يفوقه فى ظنه فساد الأجيال القادمة إطلاقاً ، وقد عزا هذا الفساد « إلى شر الرعاة دون سواه » . وقال إن هرطقة لوثر سببها الرئيسى خطايا الإكليروس ، وإن إصلاح الإكليروس خير سبيل لقمع هذا التمرد^(١٢) . ولكن الإصلاح الجوهري الوحيد الذى تحقق فى هذه الدورات الأولى كان ذلك الذى حرم على الأساقفة الإقامة بعيداً عن أسقفياتهم ، أو شغل أكثر من أسقفية . واقترح المجمع على البابا أن ينقل إصلاح قسم الوثائق من التوصيات النظرية إلى الأوامر الفعلية ، ولكن بولس كان يريد أن تترك شئون الإصلاح للبابوية ، فلما أصر الإمبراطور على مزيد من السرعة فى مناقشات الإصلاح فى المجمع ، أمر البابا مندوبيه بأن يقترحوا نقل

المجمع إلى بولونيا — التي تسمح لروما بأن تشرف على أعمال المجمع إشرافاً أسرع لأنها واقعة في الولايات البابوية . ووافق الأساقفة الإيطاليون ، أما الأساقفة الإسبان والإمبراطوريون فاحتجوا ، وظهر في ترنت طاعون غير ذى بال في الوقت المناسب ففضى على أحد الأساقفة ، وانتقلت الأغلبية الإيطالية إلى بولونيا ، أما الباقيون فظلوا في ترنت . ورفض شارل الاعتراف بدورات بولونيا . وهدد بعقد مجمع منفصل في ألمانيا . وبعد عامين من الجدل والمناورة خضع بولس وعطل مجمع بولونيا (سبتمبر ١٥٤٩) .

وخف توتر الموقف بموت بولس . ووصل يوليوس الثالث إلى تفاهم مع الإمبراطور ، فدعا المجمع للانعقاد مرة أخرى في ترنت في مايو ١٥٥١ لقاء وعد من شارل بالامتناع عن تأييد أى إجراء من شأنه اختزال سلطة البابا ، ووافق البابا على إعطاء اللوثرين فرصة الإدلاء بأقوالهم . ولكن هنرى الثانى ملك فرنسا رفض الاعتراف بالمجمع لانه كره هذا التقارب بين البابا والإمبراطور . فلما اجتمع كان عدد الحاضرين ضئيلاً فاضطر إلى تأجيل اجتماعاته . ثم عاد إلى الاجتماع في أول سبتمبر بحضور ثمانية من رؤساء الأساقفة ، وستة وثلاثين أسقفاً ، وثلاثة رؤساء أديار . وخمسة قادة ، وثمانية وأربعين لاهوتياً . ويواكيم الثانى ناخب براندنبورج ، وسفراء يمثلون شارل وفرديناند .

وأكدت الدورة الثالثة عشرة للمجمع (أكتوبر ١٥٥١) من جديد عقيدة التحول الكاثوليكية ، فالكاهن بتقدسه الخبز والخمر في سر القربان يحولهما فعلاً إلى جسد المسيح ودمه . بعد هذا لم يعد هناك جدوى من الاستماع إلى البروتستنت ، ولكن شارل أصر على هذا . واختار دوق فورتمبرج ، وموريس ناخب سكسونيا ، وبعض مدن جنوبى ألمانيا — اختار هؤلاء أعضاء وفد بروتستنتى ، ووضع ملانكتون بياناً بالعقيدة اللوثرية لرفعه .

إلى المجمع : وضمن شارل للمندوبين سلامة المرور ، ولكنهم إذ تذكروا كونستانس وهس طلبوا أيضاً ضماناً بسلامة المرور من المجمع ذاته . وبعد نقاش طويل منحهم المجمع الضمان . ولكن راهباً دومنيكياً ذكر في عظة تدور حول مثل الزوان ، ألقاها في ذات الكاتدرائية التي انعقدت فيها دورات المجمع ، أن زوان المهرطقين قد يمهلون إلى أجل ، ولكن لا بد في النهاية من حرقهم (٤٣) .

وفي ١٤ يناير ١٥٥٢ ألقى المندوبون البروتستنت كلمتهم في المجمع : فاقترحوا تأكيد المراسيم التي أصدرها مجمعا كونستانس وبازل بشأن تحويل المجمع سلطانياً أعلى على البابوات ، وأن يحل أعضاء المجمع الحاضر من عهود الولاء للبابا يوليوس الثالث ، وأن جميع القرارات التي وصل إليها المجمع حتى ذلك التاريخ يجب إلغاؤها ، وأنه يجب أن يعيد مجمع موسع يمثل فيه البروتستنت تمثيلاً كافياً مناقشة الموضوعات من جديد (٤٤) . ومنع يوليوس الثالث بحث هذه المقترحات . وقرر المجمع تأجيل البت فيها إلى ١٩ مارس ، وهو التاريخ الذي يتوقع فيه وصول مزيد من المندوبين البروتستنت .

وفي أثناء هذه العطلة طرأت على اللاهوت تطورات حربية على نحو غير متوقع . ففي يناير ١٥٥٢ وقع ملك فرنسا حلفاً مع البروتستنت الألمان ، وفي مارس زحف موريس أمير سكسونيا على إنزبروك ، وفر شارل ، وما كان لأية قوة أن تمنع موريس إن شاء من الاستيلاء على ترنت والإطاحة بالمجمع . واختفى الأساقفة واحداً بعد الآخر ، وفي ٢٨ أبريل عطل المجمع رسمياً . ونزل فرديناند بمقتضى معاهدة باساو (٢ أغسطس) عن الحرية الدينية للبروتستنت المنتصرين حريياً ، فلم يعد المجمع يهتم في شيء بعد هذا .

ورأى بولس الرابع أن من الحكمة أن يدع المجمع يسبب خلال

رياسته . فلما جاء البابا بيوس الرابع ، وكان شيخاً دمث الخلق ، راودته فكرة مؤداها أن منح سر القربان بالخبز والخمر قد يهدى البروتستنت كما هدأ البوهيميين من قبل . فطلب إلى المجمع أن ينعقد من جديد في ترنت في ٦ أبريل ١٥٦١ ، ودعا إليه جميع الأمراء المسيحيين سواء الكاثوليك أو البروتستنت . وقد جلب المندوبون الفرنسيون إلى هذه الدورة الحديدية قائمة رحيية بالاصلاحات التي ينشدونها : القداس باللغة القومية ، والتناول بالخبز والخمر ، وزواج القسس ، وإخضاع البابوية للمجامع العامة ، وإنهاء نظام الاعفاءات البابوية (٥٠) ، ويبدو أن مزاج الحكومة الفرنسية كان في تلك اللحظة شبه هيجونوتي . وأيد فرديناند الأول هذه المقترحات ، وكان الآن إمبراطوراً ، وأضاف أن « البابا يجب أن يتواضع ، ويخضع لإصلاح شخصه ودولته وإدارته » ، أما أساطير القديسين فينبغي أن تنقى من السخافات . وأما الأديار فينبغي إصلاحها حتى « لا تعود ثروتها الطائلة تنفق بمثل هذا السفه » (٥١) . وأندر الموقف بالخطر على بيوس ، وترقب مندوبوه افتتاح الدورة في شيء من الدعر .

وبعد تأجيلات كان دافعها الروية أو الاستراتيجية التأم شمل الدورة السابعة عشرة للمجمع في ٢٨ يناير ١٥٦٢ ، بحضور خمسة كرادلة ، وثلاثة بطارقة . وأحد عشر رئيس أساقفة . وتسعين أسقفاً ، وأربعة قادة ، وأربعة رؤساء أديار . ومختلف الممثلين العلمانيين للأمراء الكاثوليك . واستجابة لطلب من فرديناند عرض ضهان بسلامة المرور لأى مندوب بروتستنتي قد يرغب في الحضور . ولكن أحداً لم يحضر . وتزعّم رئيس أساقفة غرناطة وشارل كردينال اللورين حركة ترمي إلى الحد من امتيازات البابا ، فأكد أن الأساقفة لا يستمدون سلطانهم عن طريقه بل بـ « الحق الإلهي » المباشر ، وردد أسقف سقوية هرطقة من هرطقات لوثر ،

إذ أنكر أنه كان للبابا سيادة على غيره من الأساقفة في الكنيسة الأولى (١٧) .
على أن هذا التمرد الأسقفى أطفأته البراعة البرلمانية التي أبدأها مندوبو البابا ،
وولاء الأساقفة الإيطاليين والبولنديين للبابا ، وبعض الجاملات البابوية
التي وجهت في الوقت المناسب إلى كردينال اللورين . وانتهى الأمر بتوسيع
سلطة البابا لا بالحد منها . واشترط على كل أسقف أن يقسم يمين الطاعة
الكاملة للبابا . وأمكن تهدئة فرديناند بوعده بأن البابا سيسمح في ختام
المجمع بأن يعطى القربان بالخبز والخمر كليهما .

أما وقد فرغ المجمع من أهم نزاع واجهه ، فقد انتهى بسرعة من
أعماله الباقية . فحرم زواج الإكليروس ، وقرر توقيع عقوبات صارمة
على تسرى القساوسة ، وشرع الكثير من الإصلاحات الصغيرة للموضوع
بأخلاق رجال الإكليروس ونظامهم . وقرر إنشاء كليات لاهوتية يدرب
فيها الراغبون في القسوسية على عادات التقشف والتقوى . أما سلطات
الإدارة البابوية فقد اختزات . ووضعت قواعد لإصلاح الموسيقى والفن
الكناسيين . وتقرر تغطية صور العرايا بما يكفي لمنع إثارتها للخيال الحسى .
ووضح الفارق بين عبادة الصور وعبادة الأشخاص الذين تمثلهم الصور .
وتأيد استعمال الصور الدينية بالمعنى الثانى . أما المطهر والغفرانات والتوسل
إلى القديسين فقد دوفع عنها وأعيد تعريفها . وهنا اعترف المجمع في صراحة
بالمفاسد التي انبعثت عن شررها نار التمرد اللوثرى . وقد نص أحد
القرارات على ما يأتى : —

« إن المجمع يقرر بصدد منح الغفرانات . . . أنه يجب القضاء كاية
على كل كسب لإجرامى متصل بها ، باعتباره مصدراً لفساد مخزن بين
الشعب المسيحى : أما عن غير ذلك من ضروب الخلل والفوضى الناجمة
عن الخرافة أو الجهل أو الاستهانة بالمقدسات أو أى سبب كائن ما كان
— فبما أن هذه كلها لا يمكن القضاء عليها بالتحريمات الخاصة نظراً إلى

انتشار الفساد على نطاق واسع ، فان المجمع يلقي على عاتق كل أسقف واجب التعرف على ما يوجد في أسقفيته من مفساد ، وعرضها على المجمع الإقليمي التالى ، وإبلاغها إلى الخبر الأعظم في روما بعد موافقة الأساقفة الآخرين^(٤٨) .

وأجمع البابا والإمبراطور على أن المجمع قد بلغ الآن نهاية نفعه ، وفى ٤ ديسمبر ١٥٦٣ فض نهائياً وسط ابتهاج المندوبين المرهقين . بعد أن حدد طريق الكنيسة لقرون قادمة .

لقد نجحت معارضة الإصلاح البروتستنتى في أهدافها الأساسية : صحيح أن الرجال — سواء في الأقطار الكاثوليكية أو البروتستنتية — ظلوا يكذبون ويسرقون ، يغوون العذارى ويبيعون الوظائف . يقتلون ويشنون الحرب^(٤٩) . ولكن أخلاق الإكليروس تحسنت ، وروّضت الحرية الجاحجة التى اندفعت فيها إيطالية النهضة فتكيفت تكيفاً مذهباً وفق مزاعم البشر . فالبعاء الذى كان صناعة كبرى في روما والبندقية أيام النهضة أخفى الآن رأسه ، وأصبحت العفة طابع العصر . وتقرر اعتبار تأليف الكتب القذرة أو نشرها جريمة كبيرة في إيطاليا . وهكذا شق نيكولو فرانكو ، سكرتير أريتينو وعدوه ، بأمر من البابا بيوس الخامس عقاباً على تأليفه كتاب Priapeia^(٥٠) . أما أثر القيود الجديدة على الفن والأدب فلم يكن مؤذياً أذى مطلقاً لا خلاف عليه ، مثال ذلك أن فن الباروك انبعث على استحياء من مكانه المغمور ؛ كذلك إذا نظرنا من زاوية أدبية خالصة فاننا لا نجد تاسو ، وجوارينى ، وجولدوني ، يهبطون هبوطاً عنيفاً عن مرتبة بوياردو ، وأريوستو ، ومكافيللى المسرحى . وقد أقبل أعظم عصور أسبانيا الأدبية والفنية في ملء « الرجعية الكاثوليكية » . ولكن الفرحة التى كانت طابع إيطالية النهضة انطفأت ، وفقدت النساء الإيطاليات بعض ذلك السحر والابتهاج الذى أتاها من حريتهن السابقة لحركة الإصلاح البروتستنتى . وساد إيطاليا عصر أقرب ما يكون إلى

البيورطانية نتيجة لقيام أخلاقية قائمة واعية . وانتعشت الديرية . وكانت خسارة للنوع الإنساني ، من وجهة نظر العقل الحر ، أن تقضى الرقابة الكنسية والسياسية على حرية الفكر النسبية التي سادت أيام النهضة ، وكانت مأساة أن تعاد محكمة التفتيش في إيطاليا وغيرها من البلاد في الوقت الذي أخذ العلم ينبثق فيه محيطاً قشرته الوسيطة . وضحت الكنيسة عن عمد بالطبقات المفكرة في سبيل الأكثرية المتدينة التي صفقت لقمع أفكار قد تذيب إيمانها المعزى .

كانت الإصلاحات الكنسية حقيقية ودائمة . وإذا كانت الملكية البابوية قد رفع مقامها فوق الارستقراطية الأسقفية للمجامع ، فإن هذا كان يساير روح العصر ، حين كانت الارستقراطيات في كل بلد ، عدا ألمانيا ، تفقد سلطانها ليتقلده الملوك . وأصبح البابوات الآن أرق من الأساقفة خلقياً ، وأمكن تنفيذ النظام الذي تطلبه الإصلاح الكنسي على يد ساطة ممركرة خيراً من سلطة مقسمة ، وأنهى البابوات محاباتهم لأقربائهم . وشفوا الإدارة البابوية من تسوياتها الباهظة الثمن ورشوتها المفضوحة . وأصبحت إدارة الكنيسة بشهادة من فحصوا هذا الأمر من غير الكاثوليك نموذجاً للكفاية والنزاهة (٥١) . وأدخل استعمال مقصورة الاعتراف المظلمة (١٥٤٧) وجعل إجبارياً (١٦١٤) ، ولم يعد القسيس عرضة لأن يفتنه جمال بعض المعترفات . أما باعة صكوك الغفران الحائلون فقد اختفوا ، وأما الصكوك فقد خصصت في معظم الحالات للعبادات الورعة ولأعمال البر لا للتبرعات المالية ، وبدلاً من أن يتقهقر رجال الإكليروس الكاثوليك أمام زحف البروتستنت أو الفكر الحر . انطلقوا ليعيدوا اقتناص فكر الشباب وولاء السلطان . وأصبحت روح اليسوعيين ، تلك الروح الوثيقة ، الإيجابية ، النشيطة ، المدربة على النظام ، هي روح الكنيسة المحاهدة .

لقد كان شفاء الكنيسة في جلته شفاء مذهلاً ، وثمره من أروع الثمرات التي جادت بها حركة الإصلاح البروتستنتي .

كلمة ختامية

النهضة ، والإصلاح البروتستنتى . والتنوير

إن النهضة والإصلاح البروتستنتى هما ينبوعا التاريخ الحديث ، والمصدران المتنافسان للتجديد الفكرى والخلقى الذى طرأ على الحياة الحديثة . وقد ينقسم الناس حسب ميولهم وانتسابهم هنا ، حسب دينهم الواعى الذى يدينون به للنهضة التى أطلقت العقل من عقالة وأضنمت الجبال على الحياة ، أو حسب عرفانهم بصنيع الإصلاح البروتستنتى الذى شحذ الإيمان الدينى والحس الخلقى . والخلاف بين إرزمس ولوثر متصل ، وسوف يتصل ، لأن الحقيقة التى قد يصل إليها الناس فى هذه الأمور الكبيرة هى ثمرة الجمع بين الأضداد ، وستشعر هذه الحقيقة دائماً بأبوتها المزدوجة .

ويمكن القول إن الخلاف من بعض النواحي سلالى وجغرافى ، خلاف بين اللاتين والتيوتون ، بين الجنوب الحسى الطلق والشمال الجلد المعتم ، بين شعوب هزمت على يد روما وتلقت منها التراث الكلاسيكى ، وشعوب قاومت روما — وبعضها هزم روما — وأحبت جذورها وأرضها أكثر كثيراً من اليونان جالبي المواهب أو الرومان حاملى القوانين . لقد قسمت إيطاليا وألمانيا فيما بينهما تشكيل النفس الحديثة ، إيطاليا بالرجوع إلى الأدب والفلسفة والفنون الكلاسيكية ، وألمانيا بالرجوع إلى الإيمان والشعائر المسيحية الأولى . وكانت إيطاليا على وشك النجاح فى محاولتها الثانية لغزو ألمانيا — بالعشور والمذهب الإنسانى هذه المرة ؛ ولكن ألمانيا قاومت ثانية ، وطردت الكنيسة وأسكتت الإنسانين . وأنكرت حركة الإصلاح البروتستنتى النهضة واهتمامها بالشئون والمباهج الدنيوية ، وعادت إلى تلك الناحية (وهى ناحية واحدة فقط !) من نواحي العصور الوسطى التى عدت لإنجازات البشر ومباهجهم تافهة باطلة ، ووصفت الحياة بأنها واد

للدموع ، ودعت الخطاة إلى الإيمان والتوبة والصلاة . فأما إيطاليو النهضة الذين قرأوا مكياقللي وأريتينو ، فقد رأوا في هذا انتكاساً إلى العصور الوسطى ، وعوداً إلى عصر الإيمان في مرحلة المراهقة المناضلة التي يمر بها عصر العقل . وقد ابتسم الإيطالي الذي استمع إلى يومبوناتزي ، وعاش تحت حكم بابوات النهضة الهين اللين ، حين وجد لوثر وكالفن وهنري الثامن يحتفظون بكل العقائد الحارقة التي اتسم بها الإيمان الوسيط — كتاب مقدس من إملاء الله ، وإله مثلث الأقانيم ، وإيمان بالقضاء والقدر ، وخليقة خلقت بأمر إلهي ، وخطيئة أصلية ، وتجسد ، وولادة من عذراء ، وتكفير ، ودينونة أخيرة ، وجنة ونار — ثم يرفضون بالضبط عناصر المسيحية الوسيطة — عبادة العذراء ، والإيمان بإله ملؤه المحبة والرحمة . و ترسل إلى القديسين الشفعاء ، والطقوس التي تزدان بكل الفنون — تلك عناصر التي أضفت على ذلك الإيمان رقة وعزاء وجمالاً يبرر التغاضي عن الأساطير تغاضياً سمح بالاستمتاع بالفنون .

كان الكاثوليكي الصادق الإيمان حجته ضد حركة الإصلاح البروتستانتي . فهو أيضاً يكره العشور ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور القضاء على الكنيسة . لقد كان عليمًا بأن الرهبان أخذ يفلت زمامهم ، ولكنه شعر بأنه ينبغي أن يفسح في الدنيا مكان ومؤسسات لرجال انقطعوا للتأمل والدرس والصلاة ، وكان يقبل كل كلمة من الكتاب المقدس بشرطين : أن ناموس المسيح أبطل ناموس موسى ، وأن للكنيسة سلطاناً مساوياً لسلطان الكتاب لأن مؤسسها هو ابن الله ، ويجب أن يكون لها الحق النهائي في تفسير الكتاب والملاءمة بينه وبين حاجات العيش المتغيرة . وماذا تكون النتيجة لو أن فقرات من الكتاب ملتبسة متناقضة في ظاهرها تركت ليفسرها كل فرد تفسيراً حراً ويحكم عليها كما يشاء ؟ أفلا تمزق مئات العقول الكتاب إرباً ، وألا تتحطم المسيحية وتبدد شيعاً مقتتلة لا حصر لها ؟ .

ويواصل الكاثوليكي العصرى الحجة مروراً بكل ناحية من نواحي الحياة العصرية فيقول « لقد كان إصراركم على الإيمان دون الأعمال مدمراً ، فأفضى إلى دين توارت برودة القلب فيه خلف ورع العبارة ، وكاد البر أن يموت طوال مائة عام فى مراكز انتصاركم . ولقد قضيتم على سر الاعتراف وخلفتم ميثاق التورات فى نفوس البشر الذين تتنازعهم الغريزة والحضارة ، وهأنتم أولاء تعيدون متأخرين ذلك النظام الشافى تحت أشكال مريبة . ولقد دمرتم جل المدارس التى أنشأناها ، وأضعفتم الجامعات التى أسستها الكنيسة وطورتها حتى أشرفتم بها على الموت . إن قادتكم يسلمون بأن تمزيقكم الإيمان أدى إلى تدهور خلقى خطر فى ألمانيا وإنجلترا . فلقد أطلقتم على الناس فوضى من الفردية فى الأخلاق والفلسفة والصناعة والحكم . ولقد انتزعتم من الدين كل بهجته وجماله ، وملأتموه بدراسة الشياطين وبالرعب ، وحكمتم على الجماهير الكبيرة من الناس باللعنة الأبدية لأنهم « مرفوضون » ، وعزيتم قلة وقحة بفخر « الاختيار » والخلاص . لقد خنقتم نمو الفن ، وحيثما انتصرتم ذبلت الدراسات القديمة . لقد صادرتم أملاك الكنيسة لتعطوها للدولة والأغنياء ، ولكنكم تركتم الفقراء أفقر مما كانوا ، وأضعفتم الاحتقار إلى فقرهم وتعاستهم . لقد تغاضيتم عن الربا والرأسمالية . ولكنكم حرمتم العمال أيام الراحة المقدسة التى منحتم لإياها كنيسة رحيمة . لقد رفضتم البابوية لا لشيء إلا لتمجدوا الدولة ، وأعطيتم الأمراء الانانيين حق تقرير ديانة رعاياهم ، واستخدموا الدين سنداً لحروبهم . لقد فرقتم بين الأمة والأمة ، وقسمتم كثيراً من الأمم والمدن على ذواتها ؛ لقد حطمتم الضوابط الأدبية الدولية على القوى القومية ، وخلفتم فوضى من القوميات المقتتلة . لقد أنكرتم سلطان كنيسة أسسها ابن الله باعترافكم ، ولكنكم أقررتم الملكية المطلقة ، ومجدتم حق الملوك الإلهى . ودمرتم وأنتم لا تدرون

قوة « الكلمة » ، وهى البديل الوحيد لقوة المال أو السيف . وادعيتهم حق الحكم الشخصى ، ولكنكم أنكرتموه على غيركم حالما أمكنكم هذا ، وكان رفضكم التسامح مع المنشقين أقل وضوحاً للأفهام من رفضنا ، لأننا لم ندافع قط عن التسامح ، فليس فى وسع إنسان أن يتسامح إلا فى الأشياء التى لا يبالى بها . ثم انظروا ما أفضى إليه حكمكم الشخصى هذا . فكل رجل يصبح بابا ، ويحكم على تعاليم الدين قبل أن يبلغ من العمر ما يتيح له فهم وظائف الدين فى المجتمع والأخلاق ، وحاجة الناس إلى إيمان ديني . وإن ضرباً من جنون التمزيق والتفريق لا تكبحه أى سلطة مجمعة موحدة يلقى باتباعكم فى منازعات بلغ من سفها وعنفها أن الناس راحوا يتشككون فى الدين كله ، وكادت المسيحية ذاتها تصبح فى خطر الانحلال ، وكاد الناس يتركون فى عرى روحى أمام الموت ، لولا وقوف الكنيسة صامدة وسط كل تقلبات الرأى والجدل ، وكل مستحدثات العلم والفلسفة ، ولولا أنها تحفظ قطيعها الذى التأم شمله ، منتظرة ذلك الوقت الذى يخضع فيه المتفهمون منكم ، والمسيحيون الحقيقيون ، كبرياء الفردية والعقل لحاجات البشر الدينية ، ويعودون إلى الحظيرة الوحيدة القادرة على صون الدين برغم الايديولوجيات المجدفة التى راجت فى هذا العصر الشقى .

ترى أيستطيع البروتستنت الرد على هذا الاتهام ؟ « يجب ألا ننسى السبب فى انشقاقنا : فلقد فسدت كنيستكم الكاثوليكية سواء فى ممارساتها أو فى أشخاصها ، وكف قساوستكم عن أداء وظائفهم ، وكان أساقفتكم متعلقين بنعيم الدنيا ، وبابواتكم معرة العالم المسيحى ؛ ألا يعترف مؤرخوكم بهذا ؟ لقد طالبكم رجال أمناء بأن تصلحوا ما فسد ، محتفظين بولائهم للكنيسة ؛ فوعدتم وتظاهرتن بالإصلاح ، ولكنكم لم تفعلوا ، بل لأنكم على العكس من ذلك أحرقتن بالنار رجالا من أمثال هس وجيرونم البراغى لأنهم رفعوا عقائرهن مطالبين بالإصلاح . لقد بذلت مئات الجهود

لإصلاح الكنيسة من الداخل ، ولكنها أخفقت ، إلى أن أكرهتكم حركة إصلاحنا البروتستنتى على العمل ، وحتى بعد ثورتنا أصبح البابا الذى حاول تطهير الكنيسة مثار هزء روما وسخريتها .

« إنكم تتباهون بأنكم خلقتُم النهضة ، ولكن الكل مجمعون على أن النهضة كانت تنبعث وسط فساد خلقى ، وعنف ، وخيانة ، لم تعرفها أوروبا منذ عهد نيرون ؛ أفلم نكن محقين فى الاحتجاج على هذه الوثنية ، التى تخال عجباً حتى فى الفاتيكان ؟ وإذا سلمنا أن الأخلاق انحدرت حيناً بعد أن بدأت حركة إصلاحنا ، فإن إعادة بناء حياة خلقية بليت أسسها وخدماتها الدينية استغرق بعض الوقت ، وأخيراً أصبحت أخلاقيات البلاد البروتستنتية أسمى بكثير من أخلاقيات فرنسا وإيطاليا الكاثوليكييتين .

قد ندين بيقظتنا الذهنية للنهضة ، ولكننا ندين بشفائنا الخلقى لحركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد أضافت دعم الخلق إلى تحرير العقل ، ثم إن نهضتكم اقتصرت على الارستقراطية والمفكرين ، لقد احتقرت الشعب ، وأغضت عن خداع باعة صكوك الغفران لأفراده ، وعن غش مستغلى الخرافات من المتظاهرين بالنسك . أو لم يكن خيراً تحدى هذا الاستغلال المالى الصارخ لآمال البشر ومخاوفهم ؟ لقد رفضنا الصور والتماثيل التى يشتموها فى كنائسكم ، لأنكم كنتم تسمحون للناس أن يعبدوا الصور ذاتها ، كما كان يحدث حين فرضتم عليهم الركوع أمام الدى المقدسة المحمولة فى مواكب تحترق الشوارع . أما نحن فقد جرونا على لإرساء ديانتنا فوق إيمان قوى نشيط ، بدلا من محاولة تخدير عقول الناس بالطقوس ؟

« وقد اعترفنا بأن السلطة الزمنية من عند الله — كما اعترف لاهوتيوكم من قبلنا — لأن النظام الاجتماعى يتطلب حكومة محترمة . ولم نرفض سلطة البابوات الدولية إلا بعد أن استعملوها استعمالا فاضحاً ، لا للحكم بالعدل بين الأمم بل لخدمة مآربهم المادية . وعجزُ بابواتكم الأنانيين عن توحيد

أوروبا في حملة صليبية ضد العثمانيين يدل على أن خيانة البابوية حطمت وحدة العالم المسيحي قبل حركة الإصلاح البروتستنتي بزمان طويل . ومع أننا أيدنا حق الملوك الإلهي ، فاننا أيضاً شجعنا نمو الديمقراطية في إنجلترا واسكتلندة وسويسرة وأمريكا ، في حين كان قساوستكم في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا يخضعون للملوك ؛ وقد حطم تمردنا على سلطة كنيستكم تعويذة الحكم المطلق ، وهياً أوروبا لمساءلة كل ألوان الاستبداد دينية كانت أو علمانية . إنكم تعتقدون أننا جعلنا الفقراء أفقر مما كانوا . ولكن هذه أيضاً كانت مرحلة عابرة ، فالرأسمالية ذاتها التي استغلت فقر الفقراء حيناً تعلمت أن تغني الرجل المتوسط كما لم يغن من قبل ؛ وما من ريب في أن مستوى المعيشة في إنجلترا وألمانيا وأمريكا البروتستنتية أعلى منه في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا الكاثوليكية .

« وإذا كنتم اليوم أقوى مما كنتم بالأمس ، فانما الفضل في هذه القوة لنا . فإذا كان يحدث لو لم تكرهكم حركة الإصلاح البروتستنتي على إصلاح الإدارة البابوية ، وإنقاذ إكليروسكم من التسرى ، وتنصيب رجال مؤمنين على كرسي البابوية بدلا من الوثنيين ؟ ولئن تدينون بالفضل فيما يتمتع به إكليروسكم اليوم من سمعة النزاهة ؟ أجمع ترنت ؟ ولكن لمن تدينون بالفضل في مجتمع ترنت إن لم يكن لحركة الإصلاح البروتستنتي ؟ فلو لا ذلك الضابط لواصلت كنيستكم انحدارها من المسيحية إلى الوثنية حتى ينتهي الأمر بتتويج بابواتكم على عالم لا أدري أبيقورى . وحتى مع هذا التجديد الذي فرضناه على كنيستكم ، فان الشعوب التي تقبل عقيدتكم أشد إهمالا للدين ، وتشككا في المسيحية ، من الشعوب التي اعتنقت الإصلاح البروتستنتي ؛ ويكفي أن تقارنوا بين فرنسا وإنجلترا :

« ولقد تعلمنا أن نوفق بين تديننا وبين حرية العقل ، وأقطارنا البروتستنتية هي التي شهدت أعظم ازدهار للعلم والفلسفة . ونحن نأمل

أن نلائم بين مسيحيتنا وبين تقدم المعرفة — ولكن أنى يتيسر هذا لكنيسة ترفض كل علم القرون الأربعة الماضية ؟ » .

وهنا يتدخل الإنسانى فى المناقشة ، فيهدم البيتين جميعاً على رأسه . هذا فخر البروتستنتية وضعفها ، فهى تستهوى العقل ، الذى لا يفتأ يتغير ، أما قوة الكاثوليكية ففى رفضها أن تكيف نفسها وفق نظريات العلم ، التى ثبتت من الخبرة التاريخية أنها قلما تعيش بعد القرن الذى ولدت فيه . إن الكاثوليكية تستهدف إشباع مطالب الناس الروحية ، الناس الذين قلما سمعوا بكوبرنيك وداروين ، ولم يسمعوا قط بسبينوزا وكانط ؛ وهؤلاء الناس كثيرون خصيصيون ، ولكن أنى لدين يتحدث إلى العقل ، ويتمركز حول العظة ، أن يكيف نفسه وفق كون آخذ فى الاتساع ، كون أصبح فيه الكوكب الذى ادعى أنه تلقى ابن الله نقطة عابرة فى الفضاء ، وليس النوع الذى مات من أجله سوى لحظة فى مشهد الحياة الدائم التغير ؟ وما الذى يحدث للبروتستنتية إذا أخضع الكتاب الذى اتخذته أساسها الوحيد والمعصوم للنقد « الأعلى » الذى يحيله من كلمة الله إلى أدب العبرانيين وإلى تحول المسيح فى لاهوت بولس الصوفى ؟ .

« ليست المشكلة الحقيقية التى تواجه العقل الحديث ذلك الخلاف بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ولا بين الإصلاح البروتستنتى والنهضة ، إنما بين المسيحية والتنوير — هذه الحقبة التى ليس من اليسير تحديد تاريخها ، والتى بدأت بفرانسس بيكن ، وعقدت آمالها على العقل والعلم والفلسفة ، وكما كان الفن ركيزة النهضة ، والدين روح الإصلاح البروتستنتى ، فكذلك أصبح العلم والفلسفة إلهى التنوير . ومن وجهة النظر هذه كانت النهضة تسير فى الخط المباشر للتطور العقلى الأوربى ، وأفضت إلى الاستنارة ، أما حركة الإصلاح البروتستنتى فكانت انحرافاً عن ذلك الخط ، ورفضاً للعقل ، وتأكيذاً جديداً للإيمان الوسيط .

« ومع ذلك فإن حركة الإصلاح البروتستنتى برغم تعصبها فى أول عهدها أسدت صنيعين لحركة التنوير ، فقد حطمت سلطان العقيدة ، وبعثت عشرات الملل والنحل التى لو وجدت قبلها لماتت حرقاً ، وسمحت بأن يقوم فيما بينها جدل كان من القوة بحيث اعترف فى النهاية بأن العقل هو المحكمة التى يتعين على جميع المذاهب أن تترافع أمامها عن قضايها ما لم تكن مسلحة بقوة مادية لا تقاوم . وفى تلك المرافعة ، فى ذلك الهجوم والدفاع ، تضعضعت كل المذاهب والعقائد ، ولم ينقض قرن على تمجيد لوثر للإيمان حتى أعلن فرانسيس بيكن أن المعرفة قوة . وفى ذلك القرن السابع عشر بعينه قدم المنفكرون من أمثال ديكرت وهوبز وسبينوزا ولوك الفلسفة بديلاً للدين أو أساساً له . وفى القرن الثامن عشر جهر هلفتيوس وهولباك ولامترى بالإلحاد ، ونعت فولتير بالتعصب لأنه آمن بالله . هذا هذا هو التحدى الذى واجهته المسيحية ، فى أزمة أعمق كثيراً من الجدل بين الترجمة الكاثوليكية والبروتستنتية لعقيدة العصر الوسيط . والجهد الذى بذلته المسيحية للبقاء برغم كوبرنيك وداروين هو المسرحية الأساسية للقرون الثلاثة الأخيرة . فليت شعرى أى قيمة لصراعات الدول والطبقات بالقياس إلى تلك المعركة الفاصلة الكبرى ، هرمجدون النفس الإنسانية ؟ » .

الآن إذ نلتقى إلى الوراء بنظرة على هذه القصة المتعرجة التى روتها هذه الصفحات الألف ، ندرك أننا نستطيع التعاطف مع جميع الأطراف المقاتلة . نستطيع أن نفهم غضب لوثر على فساد روما وتسلطها ، وكره الأمراء الألمان أن يروا العطايا الألمانية تسمن إيطاليا ، وعزم كالفن ونوكس على بناء جماعات خلقية مثالية ، ورغبة هنرى الثامن فى أن يكون ملكه وريث ، وأن يكون له على مملكته سلطان . ولكننا نستطيع أن نفهم أيضاً آمال إرزمس فى إصلاح لا يسمم العالم المسيحى بالحق ، ونستطيع أن نشعر بفزع الأتقياء من أساقفة روما مثل كونتاريني مما يحتمل من تمزيق

كنيسة ظلت القرون حاضنة وحارسة للحضارة الغربية ، وما زالت أمتع حصن ضد فساد الخلق والفوضى واليأس .

إن شيئاً من هذه الجهود لم يضع سدى . فالفرد يستسلم للموت ، ولكنه لا يموت إذا خلف للبشرية شيئاً . لقد عاونت البروتستنتية في الوقت المناسب على تجديد حياة أوروبا الخلقية ، وطهرت الكنيسة نفسها فغدت منظمة أضعف سياسياً وأقوى خلقياً مما كانت . وثمة درس واحد ينبعث ويعلو فوق دخان المعركة . وهو أن الدين يكون في أفضل حالاته إذا اضطر للعيش في ظروف المنافسة ؛ وهو ينزع إلى التعصب متى وحيثما افتقر إلى التحدى وغدا السيد الأعلى . وأعظم ما جادت به حركة الإصلاح البروتستنتي هو تزويدها أوروبا وأمريكا بتلك المنافسة الدينية التي تشحذ همه كل دنيء ، وتنهبه إلى التسامح ، وتهب عقولنا المشتهة لذة الجرية وامتاحتها .

تشجع أيها القارئ ! فلقد قاربنا النهاية .

المراجع

CHAPTER XXXV

1. Putnam, *Books*, II, 40 - I,
2. Luther, *Works*, IV, 128.
3. Janssen, III, 355.
4. Ibid., 356.
5. 363.
6. Luther, IV, 156.
7. Richard, *German Civilization*, 289; Janssen, III, 358.
8. Paulsen, *German Education*, 56-7.
9. Luther, IV, 128.
10. Janssen, XIII, 260, 264.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 468 ; Gasquet, *Eve*, 42.
12. Traill, III, 93.
13. Owen, J., *Skeptics of the French Renaissance*, 438.
14. Graves, F., *Peter Ramus* 15.
15. *Camb. Hy of Poland*, I, 274
16. Elyot, *The Governor*, I, 21.
17. Ibid., I, 11.
18. Watson, F., *Luis Vives*, 33.
19. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 242 .
20. Ibid, 199.
21. Sichel, *Women* 47.
22. Marot, Rondeau 13. in Ma - uide, 165 .
23. France, A., *Rabelais*, 6,
24. Smith, *Erasmus* , 414; Fra - nce , *Rabelais*, 38.
25. Faguet, 211.
26. Rabelais, *Gargantua*, ed, Cluny, Inrod., xxi.
27. Michelet, III, 300.
28. Rabelais, Inrod., xxiii.
29. Owen, *French Renaissance*, 619.
30. Rabelais, *Works*, bkii, ch. 8,
31. Tilley, *Studies in the French Renaissance*, 85 f.
32. Nock, *Rabelais*, 105,
33. Brunetiere, *Manual of French Literature*, 46n.
34. France, *Rabelais*, 216.
35. Smith, *Reformation*, 195n.
36. France, 124.
37. Sichel, *Women*, 239.
38. Sichel, *Catherine' de Medici*, 245.
39. La Tour, *Origines*, IV, 413.
40. Roeder, *Catherinede Medici*, 510.
41. Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 270
42. *Camb. Hy of English Liter - ature*, III. 189.
43. Richard, *German Civilization*, 151.
44. Janssen, XIII, 467.
45. In Bainton, *Reformation*, 129
46. En. Brit., IX, 675.
47. Putnam, *Books*, II, 243.
48. Janssen, XI, 317 f.
49. In Friedell, *Cultural Hy of the Modern Age* I, 232.
50. Janssen, XII, 324 f.
51. En Brit., XXIII, 1192.
52. In Trend, *Ciullization of Spain*, 101.
53. Prescott, *Ferdinand*, II, 568n,
54. Ibid., 569n; *Camb. Mod. Hy*, V, 495.

55. Hefele. *Ximenez*, 101; Hume, *The Samish People*, 348.
56. Allen. *Political Thought*, 119.
57. Diaz del Castillo. *True Hy of Comquest of Mexico*, xi.
58. Mendoza, *Lazarillo de Tormes*, Introd., 3.
60. Mendoza, 71.

CHAPTER XXXVI

1. In Coulton, *Ari and the Reformation*, 408.
2. Janssen, XI, 56.
3. Calvin, *Institutes*, I, xi 12.
4. Michelet, III, 295.
5. Dimier, *French Painting in the Sixteenth Century*, 51.
6. Tavannes in Sichel, *Catherine*, 294.
7. Vasari, II, 355.
8. Ibid.
9. Blomfield, *Hy of French Architecture*, I, 81.
10. Lacroix, *Arts of the Middle Ages*, 151.
11. Ward, *Architecture of the Renaissance in France*, II, 125.
12. Sichel, *Catherine*, 394.
13. *Réalités* magazine, March, 1954, p. 27.
14. Conway, *The Van Eycks*, 494.
15. Glück, *Pleter Brueghel le Vieux*, 7.
16. Conway, 492.
17. Glück, *Brueghel: Details from His Pictures*, 10 - 11.
18. Craven, *Treasury of Art Masterpieces*, 112.
19. Smith, Luther, 176.
20. Bond Fr., *Westminster Abbey*, 131.
21. Bacon, Fr., *Henry, VII, I Works*, VI, 245.
22. Blomfield, *Renaissance Architecture in England* 8; Lees Milne, *Tudor Renaissance*, 31
23. Ibid.
24. 45.
25. Blomfield, 11.
26. Ganz., P., *The Paintings o Hans Holbein*, 218.
27. So Stange, *German Painting* ..., but Ganz 223, assigns i to 1528-30.
28. En. Brit., VIII, 679a.
29. Stange, 22.
30. Janssen, XI, 48.
31. Ibid.
32. Ganz, 284.
33. Woltmann, *Holbein and His Time*, 454.
34. Calvert, *Cordova*, 97.
35. Dieulafoy, *Art in Spain and Portugal*, 230.
36. Calvert, *Sculpture in Spain* 125; bur Stirling - Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, I, 126, questions the story.
37. Dieulafoy, 336.

CHAPTER XXXVII

1. Schaff, *Swiss Reformatlan*, 182.
2. Janssen, XII, 292.
3. Traill, III, 269.
4. janssen, XII, 307.
5. Thorndike, *Hy of Magic and Experimental Science*, V, 231.
6. Coulton, *Medieval Village*, 268.
7. Janssen. XII, 372.

8. Bainton, *Hunted Heretic* 112.
9. In Kesten, *Copernicus*, 96.
10. Lacroix, *Science and Literature in the Middle Ages*, 211, Thorndike, V, 175, 255-9.
11. Bainton, *Hunted Heretic*, 112.
12. Smith, *Luther*, 310.
13. Roeder, *Catherine de' Medici*, 368.
14. Lecky, *Rationalism*, II, 3.
15. Lacroix, *Military, and Religious Life*, 444; Smith, *Reformation*, 656.
16. Friedell, I, 283.
17. Lea, *Studies in Church History*, 588.
18. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 220.
19. Lecky, *History of European Morals*, II, 54.
20. Traill, III, 326; Froude, *Henry VIII*, III, 191.
21. Lea, IV, 212-25.
22. Janssen, XII, 355.
23. Spence, *Cornelius Agrippa*, 84.
24. *Ibid.*
25. Thromdike, V, 136-7.
26. Spence, 79.
27. Owen, *Evenings with the Skeptics*, II, 495-6.
28. Kesten, 196; Thorndike, V, 178 f.
29. Cath. En., IV, 352.
30. Leonardo, *Notebooks*, I, 310-298.
31. Gassendi in Kesten, 109.
32. Kesten, 132.
33. *Ibid.*, 153.
34. *Commentariolus*, in Rosen, *Three Copernican Treatises*, 58.
35. Trattner, *Architects of Ideas*, 28.
36. Luther, *Table Talk*, 69, in Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xviii.
37. In Russell, B., *History of Western Philosophy*, 528.
38. Kesten 233.
39. *Ibid.* 382.
40. 309.
41. 295-6.
42. Rosen, 30.
43. Kesten, 297-8.
44. E. g., Kesten. 299; Trattner, 31.
45. *Prefaces and Prologues*, in Harvard Classics XXXIX, 52, f.
46. Copernicus, *De revolutionibus*, I, 5.
47. *Ibid.*, I, 10.
48. Josiah Royce in Fletcher, J. B., *Dante*, 236.
49. In *White Warfare of Science with Theology*, I, 212.
50. In Agricola *De re metallica*, 595.
51. Penrose *Travel and Discovery*, 306.
52. R. I. Mantiri of Indonesia has argued unconvincingly that Magellan was not killed on Mactan, but chose to remain behind and to found a kingdom in the Celebes.
53. Castiglioni *History of Medicine*, 421.
54. Sigerist *The Great Doctors*, 125.
55. In Saunders & O'Malley, *The Illustrations from the Works of Andreas Vesalius* 14.
56. Locy, *Biology and Its Makers*, 28.

57. Saunders, 14; *Italics mine.*
58. *Ibid.*, 15.
59. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 198,
60. Vesalius, *De humani corporis fabrica* v, 15, in Thorndike, V, 526.
61. Locy, 35.
62. Letter of Vesalius June 13, 1546, in Thorndike, V, 529.
63. Sarton, III-1, 267.
4. Saunders, 37.
65. *Ibid.*, 39.
66. Walsh *Hopes and Science*, 117
67. *Speculum*, April, 1928, P.193,
68. Castiglioni, 466.
69. Janssen XIV, 68.
70. Sigerist, 131.
71. *Ibid.*, 111. The usual interpretation of *Paracelsus* as meaning "Beyond Celsus" is stultified by the very minor rank of Celsus (1st cy A. D.) in the history of medicine.
72. Pachter, *Magic into Science: the Story of Paracelsus*, 92.
73. *Ibid.*, 105 6
74. Cf. Passage in Robinson. D. S., *Anthology of Modern Philosophy*, 13-14.
75. Pachter, 67, 112-116.
76. Thorndike, V, 628.
77. *Opus Poramirum*, in Pachter, 129.
78. Thorndike, V, 665.
79. In Pachter, 210.
80. *Ibid.*, 211.
81. *Ibid.*,
82. 147.
83. 152-3
84. 163.
85. 158.
85. 155.
87. 168.
88. 187.
98. 167.
90. Inscription on engraving of Paracelsus in Vienna State Library.
91. Pachter 108, 229.
92. *Ibid.*, 4.
93. Commentary on Galatians, iii, 6, in Janssen XIV, 121.
94. Robertson, *Freethought*, I, 399.
95. *Ibid.*, 389.
96. *Table Talk*, 66.
97. La Tour, IV, 417.
98. Sichel, *Women*, 225.
99. In Hallam, *Introd to the Literature of Europe*, II, 140,
- 100 Montaigne Letter to M. de Mesmes in Sichel, *Montaigne*, 21.
- 101 In Rocker, R., *Nationalism and Culture*, 134,
- 102 in Taylor, *Thought and Expression in the 16th Cy*, I, 381.
103. *Speculum*, Oct, 1933 P. 431.
104. Owen J., *Skeptics of the French Renaissance*, 505.
- 105 *Ibid.*, 539.
- 106 Graves, *Peter Ramus*, 108. *Italics mine.*
- 107 Owen, 529.
108. *Ibid.*, 534 5 ; Michelet, III, 474; Graves, 106-7.
109. *Ibid.*, 106.
- 110 Micheler, III, 474.

CHAPTER XXXVIII

1. Pastor, X, 310; XII, 494;
Robertson, *Freethought*, I,
408.
2. Noyes, *Ferrara* 203-19.
3. *Camb. Mod. Hy*, II, 386.
4. Trend, *Civilization of Spain*,
123.
5. Schaff, *Swiss Reformation*,
651.
6. Pastor, XI, 3.
7. *Ibid.*, X, 444.
8. Carpaccioli in Ranke, *Hy
of the Popes*, I, 131.
9. Janelle, *Catholic Reformation*
64.
10. Pastor, XI, 134.
11. *Ibid.*, 155 f.
12. Ranke, *Popes*, I, 117.
13. In Pastor, XI, 164 f.
14. *Ibid.*, 192.
15. McCabe, *Crises in the Histo-
ry of the Papacy*, 319.
16. Voltaire, *Selected Works*, ed.
McCabe, IV, 216.
17. Fülöp-Miller, *Saints That
Moved the World*, 333.
18. *Ibid.*, 350.
19. 354.
20. James, *Varieties of Religious
Experience*, 414.
21. Fülöp-Miller, 375.
22. James, 411.
23. Fülöp Miller, 367.
24. *Ibid.*, 396.
25. 405.
26. 419.
27. 274.
28. Ignatius, St., *Autobiography*,
28.
29. *Ibid.*, 40.
30. 54,
31. Cath. En., VII, 640
32. Fülöp-Miller¹ 302.
33. *Camb. Mod. Hy*, II, 657;
McCabe, *Candid Hy of the
Jesuits*, 8; Ranke, *Popes*,
I, 173n.
34. Longridge, *The Splritual
Exercises of St. Ignatius
Loyola*, 119.
35. Sengkick, *Ignatius Loyola*,
350; McCabe, *Candid Hy*
40 .
36. Sedgwick, 182.
37. Billeoc, 228-234.
38. McCabe, 32.
39. Sedgwick, 221.
40. *Ibid.*, 215.
41. Symonds, *The Catholic Re-
action*, I, 215.
42. Report of Father. Gorzalez
in Sedgwick, 344.
43. Fülöp-Miller, 319-20
44. Cath En., VI, 643.
45. Sedgwick, 111.
46. Penrose, *Trauel and Disco-
uery*, 69.
47. Campbell, Thos., *Jesuits*, 77-8
48. *Ibid.*, 78.
49. 84.
50. McCabe, 84.
51. Actno, *Lectures*, 115.
52. Robertson, *Charles V*, II, 78.
53. Pastor, XIII, 222.
54. Graves, *Hy of Education
during the Middle Ages*, 4 2
55. Smith *Reformation*, 666.

CHAPTER XXXIX

1. Pastor, VII, 6.
2. *Ibid.*, 5.

3. Pastor, X. 385.
4. XI, 40.
5. Cellini, *Autobiography*, i, 123.
6. Pastor, XI, 50.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 233.
8. Ranke, *Popes*, I, 125.
9. Froude, *Council of Trent*, 313.
10. Pastor, XI, 356.
11. XII, 61 f.
12. *Ibid.*, 154.
13. Robertson, *Charles V*, II, 401
14. Pastor, XIV, 72
15. Armstrong, *Charles V*, II, 361.
16. Pastor, XIV, 126.
17. Ranke, *Popes*, I, 218.
18. Pastor, XIV, 345.
19. *Ibid.*, 142-3.
20. Ranke, I, 226.
21. *Ibid.*, 227.
22. Acts, XIX, 19.
23. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, I, 1.
24. Draper, *Hy of Intellectual Development*, II, 214.
25. Pastor, XIV, 277 f.
26. Sirpi, *Isioria del Concilio Tridentino*, II, 91, in Symonds, *Catholic Reaction*, I, 154.
27. Robertson, *Freethought*, I, 456-7.
28. Pastor, XII, 503.
29. Ranke, I, 159.
30. Pastor, XII, 508.
31. XIV, 286.
32. *Ibid.*, 300.
33. *Ibid.*
34. 414f.; Ranke, I, 235.
35. *Ibid.*, 245n.
36. Admitted by Janelle. 78.
37. *Ibid.*, 71.
38. *Camb. Mod. Hy*, II, 664, 678.
39. Sarton, II-2, 916.
40. Ranke, I, 153; *Camb. Mod. Hy*, II, 667; Froude, *Edward VI*, 9 f.
41. Ranke, I, 155; *Comb. Mod. Hy*, II, 668.
42. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 518
43. Froude, *Council of Trent*, 283
44. Pastor, XIII, 116.
45. *Camb. Mod. Hy*, II, 675; Ranke, I, 252.
46. *Ibid.*, 251.
47. *Camb. Mod. Hy*, II, 680.
48. Session XXV; Cath. En.; VII, 787.
49. For Italy cf. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 214, 333; for Spain, Lea, *Auricular Confession*, II, 426.
50. Lacroix, *Prostitution*, II, 1156
51. Figgis, *From Gerson to Gr. otius*, 43; Robertson, *Charles V*, II, 515-6; Tain, *Italy : Rome and Naples* 240.

تصويب الاخطاء الطباعية

نورد الصواب وحده فيما يلي :

صفحة	سطر	صفحة	سطر
٨	٤	٧٥	٦
١١	٤	٨	٨
١٥	١٧	٨٤، ٨٣	٢٤
١٦	١٢	٨٧	٨
١٧	١٦	٨٨	١
٢٤	٢١	١٦	١٦
٢٥	٥	٨٩	٨
٢٦	١٤	٢١	٢١
٢٩	١٥	٩٥	١٥
٤١	٤	٩٩	٦
	٨	١٠٠	١٣
٤٢	١٦	١٠١	١
٥٠	١٣	١٠٣	٣
٥١	١٨، ١٧	٧	٧
٥٣	١٠	١٠٥	٩
٥٤	٢	١٩	١٩
٥٥	٢٠	١٠٦	٨
٦٠	٨	١٠٨	١٨
٦٧	٢٠	١١٠	١٧
٦٨	١٦	١١١	٣
٧٠	٤	١٣٨	٢٤
٧٢	١٤	١٤٥	١٣
٧٤	٢، ١	١٥٠	٢٢
	١٤		

صفحة	سطر	صفحة	سطر
١٥٤	١١	٢٠٩	٥
١٦٥	١٣	٢١١	٦
	٢٣	٢١٤	٩
١٦٦	٤	٢١٦	٨
١٦٧	١٥	٢١٧	٦
١٧٣	٢١	٢١٨	٢٥
١٧٤	٤	٢٢٠	١٢
١٧٨	٢١	٢٢٢	٢٣
١٨٥	١٤	٢٢٣	١٩
١٨٦	٢٠	٢٢٤	٢٢
١٨٧	١٧	٢٢٧	٩
١٨٨	٣	٢٣٣	٢١
	٨	٢٣٤	١٦
١٨٩	٤	٢٤٠	٧
	١٦	٢٤٦	١٣
١٩٣	٥	٢٥٢	١٧
	١١	٢٥٣	٨
	١٤	٢٥٥	٤
١٩٤	٧		١١
١٩٥	١٣		١٢
١٩٨	٤		١٤
	١١		٢٤
	١٤		٢١
	٢٤		٢٤
٢٠٢	٢١		٢٣
	٢٤		٢٤
٢٠٣	٢٣		٢
٢٠٤	٢٤		

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

